سليم الجابي
ماجستير علم الأديان المقارن

باب التفسير (١)



في ظلال دلالات سورة الكهف

بمنظور جديد معاصر



سلسلة مؤلفات سليم الجابي
10

في ظلال دلالات سورة الكهف

بمنظورٍ جديدٍ معاصر

بقلم

سـليـم الجـابـي

ماجستير علم أديان مقارن

في ظلال دلالات سورة الكهف

وبمنظورٍ جديدٍ معاصر

الطبعة الأولى ١٩٩٦ - عدد النسخ المطبوعة ٢٠٠٠

عنوان المؤلف : دمشق - تلفون : ٧٧٧٤١١٣ - ص.ب : ٥٤٢٥
تصميم الغلاف والتنضيد والإخراج الفني :
نيو غرافيك - دمشق - تلفون : ٢٢٢٠٥٣٣ - ٢٢٤٨٠٨٢
الطباعة : مطبعة نضر لفنون الطباعة الحديثة - دمشق - تلفون : ٢٣١٢٣٦٢

- صدر للمؤلف:

- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء أول)
- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء ثاني)
- حقيقة القراءة المعاصرة / مجرد تنجيم (جزء ثالث)
- نظرية جذور الأخلاق . (مترجم الى الفرنسية)
- النظرية القرآنية حول خلق العالم .
- القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة.
- الراي في المراة والحرية والتراث حول حوار د.البوطي و أ.فياض.
- فن الإختزال في القرآن الكريم .
- هل مات المسيح على الصليب ؟ (مترجم الى البولندية)
- في ظلال دلالات سورة الكهف وبمنظور جديد معاصر.

- يصدر قريبا :

الله جل جلاله

(مصداقية وجوده - عرفانه - صراط مكالمته)



المقدمة

إن الذي يطالع ماكتبه المفسرون القدماء رحمهم الله تعالى تفسيراً لسورة الكهف لايلاحظ فيما قدّموه من شروحات ترابطاً موضوعياً بين مضامين آياتها. كما ان سورة الكهف تبدو على حسب ما ذكر المستشرق (الأب ويري) في تفسيره انه ينبغي تسمية هذه السورة بسورة العجائب . ولاأشك للحظة واحدة أن ماذهب إليه المفسّرون والمستشرقون لايمت الى الحقائق التي تضمّنتها سورة الكهف بصلةٍ من الصلات.

وانا إذ اقدمت على تدبّر كتاب الله العزيز، اقدمت من مُنطلق انه كتابٌ سماويٌ وموعود من جانب الله الذي انزله أن يُحافظ عليه إلى يوم الدين، لذلك فهو يصلح لكل زمانٍ ومكان. والمعلوم انه قد مضى على إنزال القرآن الكريم اربعة عشر قرناً من الزمان. وقد حدثت خلال هذه المدّة غير القليلة أحداث ومتغيّرات ليست بالقليلة ايضاً . فأضحى بين أيدينا مُعطيات لم تتوفر للذين سبقونا من علماء الدين الإسلامي. فهذا المنطلق وهذا الإدراك دعاني لأرفع عنواناً (في ظلال دلالات سورة الكهف) . ذلك لأن هذه السورة وغيرها تُظلّ كل مؤمنٍ بوارف ظلها في كل زمان ومكان. لذلك لاينبغي لنا كمسلمين أن نتواكل على تفسيرٍ سابق لهذه السورة وغيرها، وذلك لاستمرار الأحداث والمتغيرات والمعطيات، كذلك اضفت جُملة (وبمنظورٍ جديد معاصر) لأوحي الى القارىء الكريم بما احتواه هذا الكتاب من معلوماتٍ معاصرة لم يسبق لمفسّر ان ذهب ذهنه إليها لضآلة مُعطيات تلك الأزمان .

وانا لااليق اصلاً لتفسير القرآن المجيد . بل استقي المعلومات بصورة عامّة ممّا فتحه الله عزّ وجلّ على مجدّد هذا الزمن الأخير ، وكلما احببت ان اكتب متدبراً كتاب الله العزيز شيئاً من تفسيره ، اسبق عملي المذكور بالسّجود على أعتاب الله تعالى استمدّ منه العون والتأييد والتفهيم .

ولابد لي في هذه المناسبة من ان اذكر القارئ الكريم بما اوردتهُ في كتابي - فن الإختزال في القرآن الكريم - وهوان سورة الحجر التي استهلها ربّنا بالأحرف (آلر) استدعى مضمونها الواسع أن يُلحق الله عزّ وجلّ بها سوراً ثلاثة هي : النحل والإسراء والكهف ، كفصول تكمل مضمونها . فخصّص جلّ شأنه سورة النّحل للكلام عن الدور الذي يقوم به تنزّل وحي الله تعالى وملائكته في هذا العالم ، من منطلق وحدة القوانين الطبيعيّة ، والمقصد من خلق الإنسان والعالم المسخر له من حوله . كما خصّص جلّ شأنه سورة الإسراء لإلقاء الضوء على التجربة الدينيّة الإسرائيليّة التي اتت كنتيجة طبيعيّة في منطقتنا لتنزّل ملائكة الله. فألقى الله تعالى فيها الضوء على تاريخ هذه التجربة ، وعلى الأدوار التي مرّت بها ، وكيف استبدلها الله تعالى ببعثة خاتم النبيّين وبالتعاليم الأقوم التي انزلتها عليه . ولم يتطرّق جلّ شأنه في سورة الإسراء إلى الكلام عن بعثة المسيح عيسى ابن مريم ولا عمّا تأتّى على يديه . بالرغم من انّ بعثته تُكمل اصلاً التجربة الدينيّة الإسرائيليّة . فلماذا لم يتطرّق الله تعالى في سورة الإسراء إلى ذلك ؟ كانت الحكمة من ذلك ، ليفرد لهافصلاً خاصّاً عن النصارى ولأهميّة الدور الذي سيلعبونه في المستقبل فيما ورد تسميته في القرآن والحديث باسم آخر الزمان بعد بعثة محمد رسول الله ﷺ وللكلام عن المصير المحتوم الذي سيؤولون اليه في نهاية المطاف . فهذا التقسيم المذكور اقتضاه التسلسل الموضوعي لسورة الحجر والسّور التّابعة لها وهي النحل والإسراء والكهف .

فماهي أدلتنا على انَ سورة الكهف قد خُصصت للكلام عن المسيحيّة وادوار تاريخها ومصيرها ؟

دليلنا الأوّل مُستمدٌ ممّا ذهب إليه اذهان المفسّرين القدماء انفسهم . فابن كثير على سبيل المثال استهلّ تفسيره لسورة الكهف بعنوان بين قوسين: (ذكر ماورد من فضلها ، والعشر الآيات من اوّلها وآخرها وانّها عصمة من الدجّال) . وراح فأورد تحت هذا العنوان الأحاديث الشريفة الدالّة على ماذهب إليه . وممّا اورده حديث (مَن حفظ عشر آياتٍ من أوّل سورة الكهف عُصِم من الدجّال .)[1] كما اورد حديث (من قرأالعشر الآواخرمن سورة الكهف عُصم من فتنة الدجّال .) [2].

لكنّ الذي يُؤسف له ، هو أنّ ابن كثير رحمه الله عجز عن الربط بين دلالات هذه الأحاديث وبين سورة الكهف وماتضمّنته من مضامين ، ربطاً موضوعيًا مقبولاً . ودليلنا الثاني هو مانصّت عليه السورة في مقدّمتها وهو ﴿وينذر الذين قالوا اتّخذ الله ولداً.﴾ .

والسؤال هنا ماالذي يُقنعنا أنّ أحاديث ظهور المسيح الدجّال متعلقة بالنصارى وبتطورهم التاريخي وبالمصير الذي سيؤولون إليه ؟ وللإجابة على هذا السؤال يتوجّب علينا تفهُم حقيقة المسيح الدجّال وكذلك الإحاطة بحكمة تسميته الدجّال وبهذا الإسم الوصفي .

وفي الجواب اقول : إنّ الأناجيل المعاصرة والقرآن الكريم استعملوا لعيسى ابن مريم وهو (يسّوع الناصري) وصف (المسيح) مضافاً إلى يسّوع تيمّناً من انّ ابن مريم هو المسيح المُنبأ عنه في صحف التوراة باسم المسيح . فالمسيح اصلاً إسمٌ وصفي اشتقّ لغةً من السّياحة والتنقّل خارج الأوطان[3] .

---

(1)- رواه مُسلم والنسائي والترمذي.

(1) - رواه مُسلم والنسائي .

(٣) - قاموس محيط المحيط .

وكان في هذا الإسم الوصفي الإشارة إلى اضطرار عيسى ابن مريم إلى الهجرة من فلسطين بعد نجاته من محاولة قتله على خشبة الصليب . والسّياحة خلال الأقطار خارج فلسطين بحثاً عن الشتات من اسباط بني إسرائيل المنفيّين من فلسطين على أيدي الملك العراقي (بختنصر) قبل المسيح بـ (٥٨٨) عاماً .تلك الأسباط العشرة الذين تشتّتوا بين فارس وافغانستان وكشمير شمالي الهند . الأمر الذي اثبت صحته في كتابي (هل مات المسيح على الصليب ؟).

ثمّ إن الذي يطالع الأناجيل المعاصرة ، يلحظ داب يسوع المسيح على القول : (لم أرسل إلاّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة) (١) كما أنه عليه السلام ورد عن لسانه قوله :(أنا الراعي الصالح اعرف خرافي ، وخرافي تعرفني ، كما ان ابي يعرفني ، وانا اعرف ابي ، وابذل نفسي في سبيل الخراف ، ولي خراف اخرى ليست من هذه الحظيرة ، فتلك ايضا لابد لي ان اقودها ، وستصغي إلى صوتي فيكون هناك رعيّة واحدة وراع واحد ...) (٢) فقول المسيح :(ولي خراف اخرى ليست من هذه الحظيرة ، فتلك ايضا لابد لي ان اقودها ، وستصغي إلى صوتي فيكون هناك رعيّة واحدة وراع واحد ...) لم يتحقّق قوله هذا إلاّ من خلال هجرته من فلسطين سائحاً للاجتماع بالشتات من اسباط بني اسرائيل الضالة خارج وطنها .

وعليه ، فقد انتهج محمد رسول الله ﷺ نفس نهج الأناجيل والقرآن فأطلق هذا الوصف (المسيح) إضافة إلى وصفة (الدّجال) على اقوام اوربا وأمريكا الذين سينطلقون آخر الزّمان بحثاً عن الذّهب والفضّة واستعمار شعوب الأرض لهذه الغاية . في وقت كان يسوع النّاصري ماساح إلاّ لنشر كلمة الله بين أسباط بني اسرائيل الضّالة .

---

(١) - إنجيل متى الإصحاح ١٥/٢٤ .

(٢) - إنجيل يوحنا - الإصحاح ١٠/ ١٤-١٦ .

ولايغرّنا أن الحديث الشريف استعمل صيغة الإسم المفرد للدجّال . بل هو شعبٌ وأمّة وليس فرداً من الأفراد . هذا الأمر نبهت اليه القرائن من احاديث الدجّال . فلوانّ المسيح الدجّال كان شخصا بعينه ويتّصف بمثل الأوصاف المذكورة في الأحاديث على وجه الحقيقة وليس على وجه المجاز لاستحال على المرء أن يؤمن به . على حين ورد في الحديث (وإن منكم إلاّ ليتّبعنّه) . وحمار الدجّال الموصوف في الأحاديث أن طوله سبعون ذراعاً ويخرج من أسته نار وصوته يدوي في الخافقين . يستحيل أن يتولد مثل هذا الحمار على وجه الحقيقة.وأيّ شارع سيتسع له؟وكم سيكون حجم المسيح الدجال ليحتاج الى مثل هذا الحمار بهذا الحجم وهذه المواصفات ؟

انّ جميع هذه القرائن تدلّ صراحة على أن ما رآه رسول الله ﷺ كشفا وقد عبّر عنه بهذه الألفاظ وكان كشفا روحيًا ينبغي تأويل مضامينه، وهو يشير الى جماعة امم وليس الى شخص بمفرده .

فالسياحة تتصف بها الأمم الغربيّة المعاصرة . هذه الأمم التي ساحت في الأرض بحثاً عن الذهب والفضة الى امريكا وسواها من القارات ،وبدات بذلك عصر الإستعمار . فهي التي أطلق عليها اسم المسيح الدجّال في احاديث رسول الله ﷺ في رايي واجتهادي ذلك أن الدجّال اشتقّ من دجل الرجل : كذب . ودجلَ الشيءَ : غطاه . ودجلَ الإناءَ : طلاه بالذهب (1) . فالأمم الغربيّة ساحت في الأرض تستعمرها طلباً لكنوزها . وكانت تغطي كذبها واهدافها بشعار السعي لتمدين الشعوب . وكانت تصيغ الكلام المعسول وكأنها تطليه ذهبا . فلا تنطبق هذه الأوصاف إلاّ على الأمم الغربيّة المعاصرة وحدها طوال اربعة عشر قرنا الماضية الأمر الذي يعني صراحة انّ هذه الأمم الغربية المعاصرة هي التي كانت مقصودة بنبوءة (المسيح الدّجال) .

---

(1) - قاموس محيط المحيط .

والذي يؤكّد لنا إشارة إسم المسيح الدجّال إلى هذه الشعوب المسيحيّة التي ذكرناها ، هوماورد في الحديث الشريف من أنّ المسيح الدجّال يأتي إلى بلاد المسلمين راكباً حماراً طوله سبعين ذراعاً ويخرج من استه نار وصوته يدوي في الخافقين . وهذه الأوصاف تنطبق على الأساطيل البخاريّة التي كانت في بدايات صُنعها بهذا الطول وهذه الأوصاف . الأساطيل البخاريّة التي صُنعت بعد اكتشاف الآلة البخاريّة فهي التي تسير على البخار ويخرج من مؤخّرتها نار ولها صفّارة بخاريّة تجعل صوتها يدوي في الخافقين . فالأسطول البخاري الذي اخترعته اوربة هو الذي وُصف في الأحاديث بالأوصاف المذكورة . ونعذر ابن كثير بالتالي خطأ اجتهاده فما كان يمتلك ما نمتلكه من معطيات.

واعلموا أنّ سور الإسراء والكهف ومريم كانت من أوائل ما نزل من القرآن الكريم من سور في مكّة المكرّمة ، ولربما كانت نزلت هذه السور في السنوات الخامسة أو السادسة (١) . وقد ذُكر في التفسير أنّه نزل مع سورة الكهف سبعون ألف ملك . وليس المقصود من نزول الملائكة القيام بمهمة المحافظة على السورة أثناء نزولها لقول القرآن بحق الشيطان ﴿ إنّهم عن السمع لمعزولون ﴾(٢). بل إنّ نزول الملائكة يرتبط بسعة مضامين السورة وعظمة الأنباء المستقبليّة الواردة فيها . فهؤلاء الملائكة كان من مهمتهم ترتيب أسباب تحقّق تلك الأنباء ومضامينها عبر تطوّر الزمن .

إنّ هذا الفهم الجديد الذي ذكرناه يدفع دفعاً لتفهُّم سورة الكهف من مُنطلقه وبمنظورٍ جديد ، وعلى حسب قول محمد رسول الله ﷺ : (من قرا العشر الأوائل أو الأواخر من سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدّجال .) .

الأول من محرم ١٤١٧ هـ.

١٨ أيار ١٩٩٦ م

سليم الجابي

---

(١) - صحيح البخاري - الجزء ٣ - الصفحة (٢٠٧) .

(٢) - سورة الشعراء الآية ٢١٢.

علاقة سورة الكهف بسورة الإسراء

لابدّ لمن طالع كتابي " فن الإختزال في القرآن الكريم " أن ألمّ بوجود ترابط وتسلسل موضوعي بين مضامين سور القرآن الكريم . لذلك كان لابدّ لي من كشف هذا الترابط الواقع بين سورتي الكهف والإسراء .

فالملاحظ أنّ سورة الإسراء قد بحثت كما سبق أن ذكرت مايتعلّق ببني إسرائيل وتطوّرهم التاريخي وحاجة البشر إلى إنزال تشريعٍ عالمي سماويّ خصوصاً وأنّ التشريع التوراتي كان قوميّاً محدوداً ليعالج أحوال قوم معيّن في فترة زمنيّة معيّنة . والملاحظ أيضاً أنّ الله عز وجل أنهى سورة الإسراء بقوله تعالى : ﴿ **وقل الحمد لله الذي لم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ في المُلك ولم يكن له وليٌّ من الذلّ وكبّره تكبيراً** ﴾. ومضمون هذه الآية الكريمة مهّدت لموضوع سورة الكهف المتعلّقة بالذين اتّخذوا لله ولداً كماوضّحت حقيقة التعاليم التوراتيّة والقرآنيّة من أنّها قامت جميعاً على التوحيد الخالص من شوائب الشرك . فهي مهّدت للإنتقال منها إلى موضوع سورة الكهف التي سبق أن ذكرت أنّها خُصّصت للكلام عن مسيحيّي زماننا بالذات الذين وصفتهم الأحاديث التي استدلّ بها ابن كثير باسم المسيح الدجّال .للكلام عن المسيحيّين الذين هجروا التوحيد التوراتي وابتدعوا شركاً لاأساس له في تعاليمها . في الوقت الذي كان المسيح قد ذكر من قبل في إنجيله : (ماجئت لأنقض الناموس بل لأكمل)(١) .

فقد أنهى تعالى سورة الإسراء بالآية التي ذكرناها والمستهلّة بجملة ﴿**وقل الحمد لله**﴾ أي أنّ جميع أنواع الحمد لايستحقّها إلاّ ذات الله تعالى . وراح فاستهل سورة الكهف بنفس الألفاظ تقريباً ونفس الدلالات فقال : ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ۝ قيّماً لينذر بأساً شديداً من لدنه .... وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً** ﴾ فهذه البداية وهذه النهاية التي تضمنتها هاتان الآيتان حدّدت لنا ووضّحت أنّ الذين خرقوا

---

(١) - إنجيل متّى - الإصحاح الخامس - الجملة السابعة عشر.

تعليم التوحيد هم النصارى ، في الوقت الذي لم يُبعث فيه المسيح بدين جديد ولا بتعليمٍ جديد. فلم يُبعث لينقض ناموس التوراة بل ليكمل كما نبّهت أذهاننا إلى أنّ سورة الكهف قد خُصصت للكلام عن هؤلاء المسيحيّين الذين أطلق عليهم محمد رسول الله ﷺ صفة (المسيح الدجّال) وبهذا الفهم لهذه الآيات التي استهلت بها سورة الكهف ، وتلك التي أُنهيت بها سورة الإسراء . أقول بفهمنا هذا اتضح لنا الترابط الموضوعي الكائن مابين سورتي الإسراء والكف وضوحاً لالُبس فيه .



خلاصة مضامين سورة الكهف

إنّ الذي يتقصّى مضامين سورة الكهف ويتدبّرها سيدرك أنّ الله جلّ شأنه جاء بتمهيد للمواضيع التي بحثها فيها . وهذا التمهيد جاء على شاكلة مايفعله الكُتّاب إذا جلسوا يكتبون مواضيعهم . وقد خصّص الآيات الثمانية الأولى مشتملةً على هذا التمهيد .

وفي هذا التمهيد ذكر أموراً تعدّ كمنطلقات لسورة الكهف سآتي على بيانها عند البدء بالتفسير وشرح هذه الآيات التمهيديّة .

وراح تعالى من الآية التاسعة وحتى التاسعة والخمسين يتكلّم عن المسيحيّة وتطورها قبل الإسلام وبعده بكلامٍ بليغٍ مابعده بلاغة ذلك أنّ من أصول تفسير القرآن الكريم أن نفسّر نبوءاته مستعينين بالمعطيات التاريخية . وكشفت هذه الآيات الكريمة عن الحقائق التاريخيّة التي غابت عن أذهان الناس كما أنبأ عن أمور تطوّر العالم المسيحي المستقبليّة .

وخلال الآيات مابين الستّين والثانية والثمانين كشف لنا الله عز وجل عمّا كان أنبأ به موسى عليه السلام عن بعثة محمّد رسول الله ﷺ وعن كمال التعليم الذي سينزله الله عليه وعن الفروق الجوهريّة مابين تشريع موسى ومابين تشريع محمد سيّد المرسلين ﷺ. مذكّراً المسيحيّين بهذه النبوءات والكشوفات وهم الذين انحرفوا عمّا نزلت به تعاليم موسى من توحيدٍ وتشريعٍ مرحلي . كما نبّه الله تعالى هؤلاء المسيحيّين إلى أنّ شركهم هذا ماكان ليغني عنهم شيئاً وأنّ العاقبة للمؤمنين المتّقين .

ومن خلال الخمسة عشر آية التي تلت ذلك أي بين الثالثة والثمانين والثالثة والتسعين لّمح تعالى إلى زمن انحطاط المسلمين وتخلّفهم الذي سيرافقه زمن غلبة المسيحيّين وهيمنتهم على العالم ، وأشار إلى بعض الوسائل التي سيعالج بها حال الإسلام و المسلمين في ذلك التاريخ .

ومن ثمّ راح الله عز وجل ضمن الآيات مابين التاسعة والتسعين وبين المائة وستة آيات ، أقول يصوّر فيها للقارئ ماسيحلّ بالمسيحيّين أخيراً زمن نشأتهم الثانية وسيطرتهم على

العالم . فلمّح إلى الدمار والعذاب الذي سينُزله بهم جزاء كُفرهم برسالة الإسلام واستهزائهم بآيات الله وكتابه المبين .

ومن الآية السابعة بعد المائة ، وإلى آخر آيات سورة الكهف . بشّر الله تعالى الذين سيقبلون الإسلام ديناً ويؤمنون برسوله وبالوسيلة التي قيّضها جلّ شأنه لتوضيح الوجه الحقيقي للإسلام ، أقول بشّر هؤلاء المؤمنين يومئذٍ بجنات الفردوس نزلاً . كما وضّح أنّ وحي الله القرآني هو بحرٌ زخّار من العلوم والنبوءات ، فلاعجب أن يتضمّن جميع مااحتوته هذه السورة من حقائق ونبوءات . وعاد فذكّر أنّ جميع الرسالات السماويّة قد دارت جميع تعاليمها حول توحيد الله والعمل الصالح وتجنّب الشرك بالله بجميع أنواعه .

فهذا إجمالٌ للمواضيع التي بحثتها سورة الكهف . وننتقل من ذلك للدخول في شرح الآيات بشكل تفصيلي .



تفسير سورة الكهف

وأتناول أوّل ما أتناوله الآيات الأولى الثمانية التمهيديّة . وأختصر للقارئ ماحتوت عليه من عناصر قبل الدخول في شرح مضمون سورة الكهف . فهو تعالى نبّه ذهن القارئ من خلال هذا التمهيد إلى الأمور التالية كمنطلقات لبحثه عزّ وجلّ:

أولاً – أعاد الله تعالى إلى ذهن القارئ أنّ القرآن الكريم هو الكتاب المعهود بنزوله ذهنيّاً لدى اليهود والنصارى وفقاً لنبوءات كتبهم . وأنّه كتابٌ منزّه عن أن يحتوي ايّ زيغٍ عن الحقيقة والواقع . وأنّ من المهمّة الأساسيّة لهذا الكتاب هوأن يكون (قيّماً) على الكتب السابقة ومتوليّاً مااعتراها من تحريفٍ ونقصٍ في تعاليمها .

ثانياً – ونبّه إلى صفة العالميّة التي يتمتّع بها هذا الرسول وهذا الكتاب الذي أُنزِل عليه لذلك أنزل القرآن الكريم منذراً من عواقب تكذيب ماأنزل الله تعالى فيه.

ثالثاً – وبشّر كلّ من يؤمن بهذا الرسول وكتابه ويعمل صالحاً بالأجر والثواب الدائم .

رابعاً – وأنبأ عن مستقبل المسيحيّين الذين سيعلون في الأرض كما أنبأ عن انحرافهم يومئذٍ عن الصراط وإفسادهم في الأرض .

خامساً – وأعطى فكرة عن الفرق بين نفسيّة رسول الله ﷺ تجاه هؤلاء المسيحيّين ونفسيّتهم تجاهه .

سادساً – ووضّح تعالى أنّه أنزل كتابه هذا ليحثّ الناس على البحث العلمي في جميع أشياء هذا العالم على أن يُسخّر الناسُ جميع مايكتشفونه لصالح البشر وخيرهم وسعادتهم . وليس أن يسخّروا ثمار أبحاثهم وتجاربهم ليظلموا الناس ويثيروا الفتن والحروب وهو الأمر الذي سيقدم عليه هؤلاء المسيحيّون عندما تستتبّ لهم السيادة في العالم .

سابعاً – وأقسم تعالى أنّه من جرّاء انحراف هذه الأمم الغربيّة سيدمّر ماتوصّلوا إليه ويجعل أرضهم كأن لم تغن بالأمس .

ثامناً – وهو تعالى استهلّ جميع مااستهلّ به سورة الكهف بقوله ﴿ **الحمد لله** ﴾ أي أنّ جميع ماتضمّنه هذا التمهيد من عناصر ، يُثبت لله جميع أنواع الحمد ، وليس لأحدٍ سواه فهو القادر وهو علاّم الغيوب .

هذه هي أهم عناصر هذا التمهيد الذي مهّد به الله تعالى به موضوع سورة الكهف ولنشرع الآن نتفهّم آيات التمهيد الثمانية هذه بشكل موضوعي .

قال تعالى :

الآية ﴿١﴾ ﴿ **الحمد للّه الذي أنزل على عبدِهِ الكتاب ولم يجعل له عوجاً** ﴾

(العِوج) بكسر العين يعني الزيغ معنويّاً . و(العَوَج) بفتح العين يعني الميل ماديّاً (١) . ثمّ إنّ لفظ (الكتاب) ورد مُعرّفاً بالألف واللام إشارة إلى النبوءات المعهودة في أذهان أهل الكتاب بشأن نزوله والواردة في الكتب السماويّة السابقة .

وهكذا فإنّ هذه الآية الكريمة دعت إلى توحيد الله وحمده توحيداً خالصاً من شوائب الشرك ، شكراً له تعالى على ماأنبأ به سابقاً وماحقّقه لاحقاً ببعثة هذا الرسول الكامل التعاليم والعالميّ الصفة والبعيدة تعاليم كتابه عن الزيغ عن الحقّ .

الآية ﴿٢﴾ و ﴿٣﴾ ﴿ **قيّماً ليُنذر بأساً شديداً من لدنه ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً حسناً ۝ ماكثين فيه أبداً** ﴾

القيّم على الأمر : متولّيه . (٢) والإنذار له ثلاث دلالات : الإعلام عن حقيقة شيءٍ من

(١) – قاموسي محيط المحيط و أقرب الموارد .

(٢) – قاموس محيط المحيط .

الأشياء . والتحذير من عواقب هذا الشيء والتّرهيب في إبلاغـه عـن هـذا الشـيء .(١) كمـا أنّ الإنذار في الحرب يعني شدّته .(٢).

ويكون معنى قوله تعالى ﴿ **قيماً لُينذر بأساً شديداً من لدنه** ﴾ أنّ الله قد أنزل القرآن الكريم كاملاً لازيغ فيه وليتولّى تصحيح الإنحرافات التي وقع فيها أصحاب الكتب السابقة ويوضّح لهم حقيقة هذه الأمور ويحذّرهم من عواقب انحرافاتهم وبأسلوب الإنـذار أي بأسلوب الوعيد والتّرهيب بالعذاب الشديد للذين يكذّبون ماأنزل الله فيه فهذا معنى ﴿ **قيّماً لينذر بأساً شديداً من لدنه** ﴾ .

وأضاف تعـالى قولـه : ﴿ **ويبشّـر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً حسناً**﴾ والإيمان معناه التصديـق مطلقـاً ، وهـو الإقـرار باللسـان بعد الإحاطة بعلـم الشـيء ، والاعتقاد بالقلب وإثبات ذلك على صعيد العمل . وقال ﴿ **ويعملون الصالحات** ﴾ و لم يقل: (**يعملون الخيرات**) ، تنبيهـاً إلى مرونة التعاليم القرآنيّـة فلايجوز التزمّت عند العمـل على تعاليم القرآن بل لابدّ من توفّر عنصر صلاح هـذا العمل مكانـاً وزمانـاً . والأجـر هـو ثـواب العمل(٣) على حين أنّ الأجرة هي مايعود على العامل من أجرٍ ماديّ (٤) وقوله ﴿**أجراً حسناً**﴾ ليفيد ثبوت الأجر ، من باب الصفة المُشبّهة باسـم الفـاعل . والأجـر الحسن هـو الأجر الذي يُفضي إلى نتيجة حسنة لاتؤذي بل تفيد .

ويصبح معنى هذا الشطر من الآية أنّ الله تعـالى أنـزل هـذا القـرآن قيّمـاً ليـس ليتولّـى تقويم انحراف أهل الكتاب ولينذرهم وحسب . بـل وليبشّـر الذيـن يؤمنـون مـن أهـل الكتـاب وسواهم بما أنزل الله في كتابه العزيز ، والذين يصيغون أعمالهم وفقاً لتعاليمه وعلـى أن تكـون أعمالهم غير متزمّتة ولامتشنّجة بل أن تتصف بصلاحيتها مكاناً وزماناً عنـد القيـام بهـا فهـؤلاء يبشرهم الله ويعدهم بثوابٍ يجنونه ويقطفون ثماره الحسنة فلا يعودون يضلّون بعده.

(١) – قاموس أقرب الموارد .

(٢) – تاج العروس .

(٣) – أقرب الموارد .

(٤) – مفردات الراغب .

الآية ﴿٣﴾

﴿ ماكثين فيه أبداً ﴾

ماكثين من مكث في المكان : لبث فيه وأقام [1] وأبداً : الأبد هو الدهر والدوام والقديم والأزلي[2] والأبد في معجم المفردات هو مُدّة الزمان المُمتد الذي لايتجزّأ .

فمعنى ﴿ **ماكثين فيه أبداً** ﴾أنّ الله تعالى يبشّر المؤمنين والعاملين على تعاليم هذا الكتاب من هؤلاء ثواباً غير منقطع على مرّ الزمان .

الآية ﴿٤﴾

﴿ ويُنذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾

الواو هنا عطفت هذا الإنذار الخاص المتعلّق بالذين اتخذوا لله ولداً على الإنذار العام الذي تضمّنه قوله تعالى ﴿ **لينذر بأساً شديداً من لدنه** ﴾ . وهو تعالى بهذه الإضافة وضّح للقارئ أنّ هذا الكتاب لم ينزل لينذر الذين عاصروا رسوله الكريم ﷺ ،ويكون قيّماً عليهم ، ويبشّر الذين يؤمنون منهم وحسب . بل إنّ كتابه هذا يحمل إنذاراً آخر للأقوام المسيحية الذين سيأتون بعد انقضاء فترة النشأة الأولى للإسلام ويدأبون على التصريح والاعتقاد بأنّ الله اتخذ ولداً وهذه إشارة منه تعالى إلى زمننا الحاضر بالذات وإلى هؤلاء الذين يعتقدون هذا الاعتقاد الذين يهيمنون على العالم . فهو تعالى يمهّد للكلام عنهم بهذا التمهيد الذي لاحظناه .

الآية ﴿٥﴾

﴿ مالهم به من علمٍ ولا لآبائهم كبُرت كلمةً تخرجُ من أفواههم إن يقولون إلاّ كذباً ﴾

وراح تعالى في هذه الآية الكريمة يضع بين أيدي القارىء وبإيجاز أدلّة بُطلان عقيدة هؤلاء المسيحيين.

فنبّه أولاً إلى أنّ عقيدتهم ظنيّة لاتستند إلى علم يقينيّ فهذا ماأشار إليه قوله تعالى :﴿ **مالهم به من علم ولا لآبائهم.**﴾ ونبّه ثانياً إلى أنّ مايدّعونه ويعتقدونه هو أمرٌ خطير جدّاً، و غير

(١) – أقرب الموارد .

(٢) – أقرب الموارد .

مُستساغ لا عقلاً ولا تهذيباً. فلا يعقل أن يحتاج الله إلى ولـد، وليس من التهذيب أن يُقال قتلوا ابن الله على خشبة الصليب. فهذه هي دلالة قوله تعالى **ثانياً** ﴿**كَبُرت كلمةً تخرج من أفواههم**﴾. ونبّه من جهة ثالثة إلى أنّ المسيحيّين لايطرحون حادثة صلب المسيح على حقيقتها التاريخية. بل يصوّرون الحادثة التاريخية خلافاً لواقعها. على اعتبار أنّ معنى الكذب في اللغة الإخبار عن أمرٍ بخلاف حقيقته، مع علم المُخبر بحقيقته(١) وهو تعالى قد أشار بقوله ﴿ **إن يقولون إلاّ كذباً** ﴾ إلى أن المسيحيين بالرغم من اعتقادهم بالتوراة الوارد فيها :(يقول الرّب اسرائيل ابني البكر.)(٢) وبالرغم من نقلهم قول المسيح في الاناجيل : (إن تصنعوا مشيئة أبي الذي في السماوات أبناء الله تُدعون.). أي أن المسيح يستعمل لفظ الابن بمعناه المجازي.

فبالرغم من علم هؤلاء المسيحيين بتلك الحقائق كلّها، فهم يكذّبون على الناس ويزعمون أن المسيح عيسى ابن مريم هو ابن الله الحقيقيّ. فهذه دلالة ﴿ **إن يقولون إلاّ كذباً**﴾.

الآية ﴿٦﴾

﴿ **فلعلّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً** ﴾

لعلّ : تفيد الطّمع والاشفاق. فتارة تشير إلى طمع المخاطب وتارة إلى طمع غيره (٣).

باخعٌ : اسم فاعل من بخع نفسه : قتلها من وجدٍ أو غيظ (٤) و بخع نفسه : قتلها غمّاً(٥) .

فمعنى ﴿ **فلعلك باخع نفسك** ﴾ أي أشفق عليك أن تقتل نفسك غمّاً راجياً أن يتقبّل الإسلام هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً.

---

(١)- (اقرب الموارد).

(٢)- الكتاب المقدس - سفر الخروج - الاصحاح ٢٢/٤.

(٣) - مفردات الراغب.

(٤)- أقرب الموارد.

(٥)- تاج العروس.

وقوله ﴿ **على آثارهم** ﴾ جمع أثر، وهو مابقي من رسم الشيء. أسفاً : مصدر أسف. وأسف عليه : حزن أشدّ الحزن وتلّهف(١) والمعنى أن الله تعالى ينهى رسوله الكريم عن أن يبالغ في حزنه وتلهُّفه علىأن يتقبّل هؤلاء المسيحيون، الاسلام على اعتبار أنهم يعتقدون خلافاً لما يعلمون فما هم بطُلاّبٍ للحقيقة.لذلك دعهم يؤولوا إلى مصيرهم المحتوم. والله عز وجل يُواسي رسوله الكريم في الوقت نفسه ويوصيه بالصّبر والرضا بمشيئة ربّه عز وجلّ. وهذه الآية الكريمة تُظهر للقارىء البون الواسع بين مايسعى إليه رسول الله ومن سار على نهجه من المؤمنين وبين هذه الأقوام المسيحية التي تستهزىء بهذا الوحي الحادث نزوله بعد بعثة المسيح الذي أشركوا به ذات الله عز وجل في الوقت الذي يحمل هذا الوحي القرآني أدلّة صدق مايطرحه من تعاليم ونبوءات ويدّعيه. فهذا هو معنى ﴿ **إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً** ﴾.

وأضاف تعالى قائلاً :

الآية ﴿٧﴾

﴿ **إنّا جعلنا ماعلى الأرض زينةً لها لنبلوهم أيُّهم أحسن عملاً** ﴾

جعل الشيء : أوجده وصنعه ـ وقوله ﴿ **ما على الأرض** ﴾ لايعني فوق سطح الأرض. بل إنّ حرف (على) ورد هنا موافقاً حرف (من) أي إنّا أوجدنا وصنعنا كل شيء من أشياء هذه الأرض. فلماذا أوجدنا وصنعنا هذه الأشياء؟ يقول تعالى أوجدنا وصنعنا هذه الأشياء ﴿**زينةً لها**﴾. فاللاّم هنا جارّة للاختصاص. والزينة هي كل مايُتزيّن به، وهو اسم من تزيّن(٢) والزّين ضدّ الشين، وهو مصدر يدل على كمال وحسن الشيء وتحسينه. يقال ازّينت الأرض إذا غشيها حسنُها (٣).والزينة يُتزيّن بها سَتراً للعيوب وإخفاءً لها (٤) . ثم إنّ الذي يتدبّر آيات القرآن الكريم يُلاحظ إطلاقه سبحانه وتعالى لفظ الزينة على جميع أشياء الأرض، وعلى الحياة، وعلى المال والبنون، وعلى مأدّى إلى هلاك الأمم.

---

(١)- أقرب الموارد.

(٢)- محيط المحيط.

(٣)- معجم المقاييس.

(٤)- أقرب الموارد.

فالله تعالى عندما قال: ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها** ﴾ فقد أراد أنّ كل شيء في هذه الأرض فيه فائدة للنّاس. ثم راح فوضّح المقصد من هذا البيان الإلهي وقال: ﴿ **لنبلوهم أيُّهم أحسن عملاً** ﴾. فأدخل لام التعليل على نبلوهم لتفيد هذه الدّلالة. و (نبلوهم) من بلاه.يبلوه : امتحنه واختبره وجرّبه. أي أننا جعلنا جميع أشياء هذه الأرض زينة لها ليُستعان بهذه الأشياء على استمرارالحياة والتكاثر في المال والبنين امتحاناً للإنسان من جانب الله واختباراً. وما جعلنا القصد من هذه الأشياء أن يسخّرها الإنسان ليظلم ويُفسد في الأرض. لذلك أضاف قوله ﴿**لنبلوهم أيُّهم أحسن عملاً**﴾. أي أيّهم يسعى للكمال من خلال محافظته على معالم الحياة السّعيدة في هذه الأرض، ومن خلال محافظته على التّكاثر في الأموال والبنين بأسلوبٍ سليمٍ وعلمّي مستفيداً من هذه الأشياء التي أوجدها الله الخالق في هذه الأرض . وأحسن ـ صيغة تفضيل ـ علماً بأنّ العمل لايكون إلا عن فكرٍ ورويّة ولهذا قرنوه بالعلم. والفعل أعمّ من العمل.

فهذه الحقيقة الكونية التي وضحتها هذه الآية الكريمة، وردت تنبيهاً منه تعالى لأذهان مسيحيّي عصرنا خاصة. ولتحثّ الإنسان بشكل عام على البحث العلمي في كل شيء من أشياء هذه الأرض ليكتشف ما احتوته هذه الأشياء من فوائد لصالح وخير البشر جميعهم.

والملاحظ تاريخيّاً أن المسلمين استفادوا من تعليم هذه الآية في القرون الثلاثة الأولى للإسلام، فتقدموا وسادوا الأمم. ومن ثم خلف من بعد أولئك خلفٌ أهملوا هذا التعليم الذي يحثّ على البحث العلمي وبدأ بذلك عصر تخلّفهم وانحطاطهم. وقد أدى ذلك كلّه إلى مانلاحظه من حال تخلف المسلمين في زمننا الحاضر.

والأمم المسيحية وقد انتبهت إلى ضرورة انتهاج منهج البحث العلمي في حياتها. استفادت من ذلك. لكنّ الذي يؤسف له هو أنّهم راحوا يستعينون بحصيلة أبحاثهم العلمية على ظلم الشعوب وعلى إخضاعها وعلى إثارة الفتن والحروب بين هذه الشعوب. فانحرفوا بذلك عن الغاية الأصلية للبحث العلمي والذي حثنا الله تعالى عليه. ولّما كان الله عز وجل سبق أن

أنذر مسيحيّي عصرنا بالذات في التمهيد الذي مهد به لهذه السورة، فهو أخذ انحراف هذه الأمة المسيحيَّة في هذا المجال الذي ذكرناه بعين اعتباره ، فراح ينذرهم ويتوعّدهم وقال :

الآية ﴿٨﴾

﴿ وإنّا لجاعلون ماعليها صعيداً جُرُزاً ﴾.

فاللاّم هنا لام القسم ـ وأدخلت على فعل (جعل) تذكيراً لهؤلاء المسيحيين وشهادةً أنهم انحرفوا عن الغاية من جعله تعالى أشياء هذه الأرض زينة لها وليس وسيلة ظلم وإفساد. ذلك أن القَسَم في اللغة يعني تقديم شهادة . أي أن انغماس الذين اتخذوا لله ولداً في البحث العلمي لم يُسفر عن النتيجة المرجوة منه. فأقسم جل شأنه أنه سيجعل أرضهم صعيداً جرزاً. من جرز زيداً من الناس : اجتاحه ودمّره تأديباً وعقاباً لهم لإزاحة زينة الأرض عن المقصد الذي وُجدت من أجل المساعدة على تحقيقه .

وقلت إن الانذار مُحددٌ بأرض هؤلاء المسيحيين بدليل التسلسل الموضوعي للبيان الإلهي قوله **﴿وينذر الذين قالوا اتّخذ الله ولداً.﴾** .

فلما انتهى جلّ شأنه من تمهيده هذا الذي مهّد به لموضوع سورة الكهف، ابتدأ الموضوع بقوله تعالى :

الآية ﴿٩﴾

﴿ أمْ حسبت أنّ أصحاب الكهف والرّقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾

والسؤال هنا : لماذا استهلّ جلّ شأنه الآية بحرف العطف (أمْ) وما دلالة ذلك؟

نقول : (أمْ) حرف عطف يرد على ثلاثة أوجه : فإمّا أن ترد مُتّصلة لطلب تعيّين مادخلت عليه همزتها الاستفهامية.نحو : أزيدٌ عندك أم عمرو؟ وفي هذا الوجه ترد لطلب التّصور. ولايكون ماقبلها إلاّ استفهام. ويكون مابعدها مفرداً أو جُملة. وقد تحتاج إلى الجواب وقد لاتحتاج ويكون جوابها بالتّعين.

والوجه الثاني للحرف (أمْ) أن ترد غير مُتّصلة. أي مُنقطعة، وتقع حينئذٍ بين جُملتين مُستقلّتين. نحو ﴿ **هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظّلمات والنّور** ﴾. ولاترد في

هذا الوجه لطلب اليقين.بل تفيد الإضراب أي الانتقال إلى أمرٍ جديد، وتطلب تصديقه. ولايشترط ورود استفهام ماقبلها، بل قد يرد استفهام وقد لايرد وقد يكون غيره. إنما لايرد بعدها إلاّ جُمله وتحتاج إلى الجواب بنعم أو لا فقط.

والوجه الثالث للحرف (أم) أن تحلّ محلّ (أل) التّعريف، وهي نادرة الاستعمال.(١)

ويتبيّن لنا من تدبّر الآية ﴿ **أم حسبت.**﴾ أنّ القرآن الكريم استعمل حرف العطف "أم" هنا بوجهها الثاني. فهي تطالب بتصديق ماسيخبر به تعالى عن أصحاب الكهف والرقيم وعدم الظّن أنّ ماسيخبر به هو عجيبة من العجائب علماً بأنّ الخطاب لايزال يدور حول قوله اتخذوا لله ولداً، ليحقّ عليهم وَعيد : ﴿**وإنّا لجاعلون ماعليها صعيداً جُرزاً.**﴾ ويتحملّوا بذلك وزر ماأنكروه.فهو تعالى راح يكشف بذلك عن خفايا تاريخهم.

على هذه الصورة يتجلّى إعجاز البيان القرآني من خلال إيراده لحرف العطف (أم) في هذا المقام، وقبل البدء بسرد حقيقة تاريخية خافيةٍ على النّاس تؤكّد مضمون ماسبق أن مهد به تعالى من خلال قوله : ﴿ **ماهم به من علمٍ ولا لآبائهم** ﴾. ويتجلّى بذلك تسلسل الأفكار الموضوعي. هذا التّسلسل الذي استعصى على أفهام من سبقنا من المفسّرين.

وبألفاظ أخرى، فإن الله جل شأنه حين أورد حرف العطف (أم) شاء أن يُذكّر هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً، أن حواريّي المسيح الأوائل، كانوا في حقيقة أمرهم من الموحّدين الذين يعتقدون أنّ المسيح ابن مريم كان نبيّاً، و لم يدّع مايزعمون.ثم نتساءل عن الحقيقة التاريخية الخافية تلك؟ وهل أنّ القرآن الكريم سيوردها بألفاظ يريد منها معانيها الحقيقيّة المتبادرة لذهن القارىء أم بألفاظٍ تشبيهيّة الدلالة؟ وماهي قرينة تحديد أحد الوجهين للألفاظ؟

أقول : اختار القرآن الكريم وجه التشبيه في بيانه لتلك الحقيقة التاريخية الخافية على الناس. وأتى بقرينة دالّة على ذلك. وذلك ليُضفي على بيانه الإلهي هالةً من الاستطراف واستعظام مايقرأ، ويرضى به. وهذه القرينة تجلّت من خلال إيتائه بفعل (حسبت) مباشرة، وبكلمة (عجباً) في نهاية الآية الكريمة (٢).

---

(١)- محيط المحيط .

(٢)- محيط المحيط .

فهو جَـلّ شـأنه، وقـد اختـار الوجـه الآخـر في بيانـه، فليوهـم القـارىء لأوّل مـرّة أنّ المسيحيين الأوائل وكأنهم كانوا إحدى عجائب الله التي تخـالف النواميـس الطبيعيّـة. لكنّـه نبّـه بأسلوبٍ بلاغي من خلال (حسـبت.. وعجبـاً) أنّ قصّـه هـؤلاء ليســت كذلـك، بـل كـانت حقيقية ، ووفق سُنن الله وقوانينه الطبيعية المسنونة. وعلى هذه الصورة يكون جلّ شأنه قد أتـى باعجازٍ آخر في بيانه تاه في خِضمّه المفسرون الأولّون. الذين ذهب ذهنهم إلى أنّ القصّة وردت بدلالاتها الحقيقية المُتبادرة لأذهـانهم، وأنّهـا كـانت قصّـةً عجيبـةً مـن عجـائب القـدرة الإلهيـة ومخالفة كذلك للنواميس الطبيعيّة.

فهو جلّ شأنه قال : ﴿ **أم حسبت أنّ أصحاب الكهف كـانوا مـن آياتنـا عجبـاً.** ﴾ وأصحاب جمع صـاحب تقـول صحـب الرّجـل : عاشـره ورافقـه ولازمـه. ولافـرق أن تكـون مصاحبته بالبدن، وهو الأكثر شـيوعاً، أو تكون المصاحبة بالعناية والهمّة. ولايُقال الصاحب في العُرف إلاّ لمن كثُرت ملازمته. كذلك يُقال لمالكِ الشيء هو صاحبه فهـو يملـك حـقّ التصـرّف فيه. وقد يُضاف الصاحب إلى مسوسه كصاحب الجيش، وإلى سائسه كصاحب الأمير. والعامة يطلقون الصّاحب على الصّديق. فإذا أضيف الصّاحب إلى المرأة فقيل صـاحب المرأة، دلّ علـى صداقة السّوء (١).

الكهف : جمعه كهوف. قال ابن كثير في تفسيره لهذا اللفظ : (وأمّا الكهف فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليــه هـؤلاء الفتيـة المذكـورون.)(٤) وابـن كثـير قـد أخطـأ في معنـى الكهف. فالكهف غير الغار : الكهف واسـع والغـار ضيّـق. والكهـف بمثابـة البيـت المنقـور في الجبل. ويعني الملجأ أيضاً (٢).

الرّقيم : رقم معناه كتب . والرّقيم الكتاب المرقوم. (٣) ورقـم الكتـاب أعجمـه وبينّـه. ورقم الثّوب خططّه.

---

(١)- محيط المحيط.

(٢)- أقرب الموارد.

(٣)- أقرب الموارد.

(٤) - ابن كثير ٣ ج ص٧٣.

ثم إن الواو عطفت الرّقيم على أصحاب بمعنى أنّ أصحاب الكهف الذين سكنوه ولازموه اعتادوا أن يرقموا أي يكتبوا قصّة مايجري لهم وينقشونها على جدران كهفهم.

فسمُّوا بالرّقيم لاعتيادهم على الكتابة على جدران الكهف الذي لازموه.

أي أنّ الله تعالى رسم إطار قصّة أهل الكهف التي تمثل المسيحيين الأوائل كما سيأتي اثباته من خلال هذه الآية الكريمة مُنبّهاً القارىء إلى أن المسيحيين الأوائل لازموا كهفاً له شهرته مدة طويلة من الزمن. ولذلك راحوا يكتبون قصّة مايجري معهم على جدران الكهف واستحقوا بذلك اسم الرقيم.

وأنا حينما قلت : لازموا كهفاً له شهرته، فلأنّ لفظ الكهف ورد معرّفاً بالألف واللاّم إشارة إلى أنّ الكهف المذكور يشكّل معهوداً ذهنياً عند أهل منطقته. المتواجد عندهم وهذا التّحديد لإطار قصّة أهل الكهف والرّقيم ورد هنا ليهدي الباحث المحقّق على درب بحثه وتحقيقه فيما يقرأه من بيان الوحي القرآني. ومُلفتاً نظر المسيحيين في الوقت نفسه ليعيدوا النظر فيما يعتقدونه من خلال آثار الكهف المذكور.

وعلى هذه الصورة، ومن خلال هذه الألفاظ المعدودة أتى جلّ شأنه باعجازٍ بيانّيٍ ثالث قلّما يستطيع كاتب أن يضارعه ويُضاهيه. فكأنه تعالى قال : كان هناك في فترة من الزمان كهفٌ اشتُهر تاريخيّاً أن المسيحيين الأوائل لجؤوا إليه واتّخذوه مسكناً ولازموه مدّة طويلة جدّاً من الزمان هرباً من اضطهاد الناس وظلمهم إيّاهم. وكانوا يكتبون على جُدران الكهف قصّة حياتهم فيه. حتى أضحى الكهف المذكور بمثابة متحفٍ يروي ماعاناه المسيحيون الأوائل في سبيل نشر عقيدتهم هناك.

ويُواجهنا سؤال : أين يقع الكهف الموصوف في هذه الآية الكريمة؟

وللإجابة على هذا السؤال، يقتضي منا البحث العلمي والمنطق أن نعود إلى سفر أعمال الرّسل من العهد الجديد المقدّس لدى النّصارى، نستشفّ منه وممّا كتبه المؤرّخون المسيحيون المعلومات التي تضيء لنا درب الإجابة على هذا السؤال.لارتباط ذلك بنشاط المسيحيّين الأولين، كما سبق أن وضحّناه ومن منطلق أن هذه الآية تتناول بحثاً تاريخياً .

وسفر أعمال الرسل ورد في المدخل إليه: (إنّ سفر أعمال الرسل.. من تأليف لوقا رفيق بولس. وقد روى فيه أحداثاً عرفها معرفة جيّدة.. ذلك كان اعتقاد الكنيسه في جُملتها نحو السّنة (٢٠٠) م)(١).

وورد حول الناحية الأدبية : (لاشكّ أنّ واضع سفر أعمال الرّسل قد استعمل بعض المراجع. فالأدلّة على ذلك كثيرة. لكن هل كانت هذه المراجع مخطوطة أم شفهيّة؟ لربّما كانت من كلا النّوعين.. وأخيراً فإذا كان صاحب يوميّات السّفر ومؤلف أعمال الرّسل رجلاً واحداً، فقد كان له، وهو رفيق بولس، ذكرياتٌ خاصّة به.)(٢)

ومّما ورد حول الناحية التاريخية لسفر أعمال الرسل قولهم : (إنّ نتائج هذا الفحص تؤيّد صحّة أسفار أعمال الرّسل أكثر مّما تخالفه. وتمكننا بذلك من إقامة مواد تسلسلٍ زمنيٍّ ثابت لنشأة المسيحيّة، ولحياة بولس ورسائله..)(٣)

وأورد المدخل المذكور بشأن المؤلف وتاريخ تأليفه : (ولّما كان نُقّاد عصرنا يُحدّدون تاريخ تأليف الإنجيل الثالث ـ لوقا ـ فيما بعد السّنة (٧٠)م. فهم يحدّدون تاريخ أعمال الرسّل في نحو السنة (٨٠)م في وقت ينقص أو يزيد عشر سنوات.)(٤)

تلاحظون من خلال هذه المقتبسات أنّ أعمال الرسل كتبها لوقا على حدّ زعمهم. واستندوا فيما زعموه إلى اعتقاد الكنيسة التي تواجدت بعد المسيح ابن مريم بمائتي سنة. ولايملكون سنداً آخر على مازعموه. وسندهم ولاشك ليس بالقوّة المطلوبة.

وتلاحظون أيضاً أنّهم لايجزمون في موضوع المراجع التي اعتمدها لوقا في ذلك أكانت مراجع مكتوبة بين يديه أم كانت مراجعه شفهية رواها له بعض الرّواة. كما أنهم لايجزمون في موضوع هل كتب لوقا أعمال الرسل لوحده أم كتبه معه رجال آخرون؟.

---

(١)- المدخل إلى أعمال الرسل - الصفحة ٣٦٥ من الكتاب المقدّس طبع بيروت عام ١٩٨٩ م.

(٢)- المدخل نفسه ص٣٦٦.

(٣)- نفس المرجع السابق.

(٤)- المدخل نفسه ص٣٧٣.

والذي يهمُّنا من مراجعة سفر أعمال الرّسل، أن نصل عن طريقه إلى معرفة خط سير حواريي المسيح الناصري هذا الخط الذي اتّخذوه أساساً لتنقّلاتهم وهم يبشّرون بتعاليم المسيح عليه السلام.

فالرسالة الأولى من أعمال الرّسل والموّجهة إلى (تاوفيلس) تروي استشهاد أوّل شهيد مسيحيّ في أورشليم واسمه (أسطفانس) على أيدي اليهود الذين اشتدّوا في اضطهاد المسيحيين بعده (ص٣٩٤) كما تروي تنصّر بولس الرسول (ص٣٩٦)، هذا الذي بشّرالوثنيّين من غير اليهود وآمنوا على يديه (ص٤٠٢)، الأمر الذي فتح باب تبشير غير اليهود وخلافاً لتعاليم المسيح الناصري.

وعلى الصفحة (٤٠٥) يروي كاتب أعمال الرّسل أنّه بنتيجة اشتداد اضطهاد اليهود لمسيحيّ أورشليم اضطر هؤلاء للهجرة منها والانتقال إلى فينيقية وقبرص وأنطاكيه. وتأسست بذلك كنيسة أنطاكية التي سُميّ تلاميذ المسيح فيها لأوّل مرة مسيحيّون (ص٤٠٥). ورحل بولس الرسول إلى أنطاكية بعد عشر سنوات من هروبه من دمشق (ص٤٠٩). وألقى في أنطاكية أوّل موعظة له (ص٤١٠). ومن ثم أخذ يبشّر الوثنيين لرفض اليهود إيّاه على حسب ماقال في موعظته. فاليهود كانوا يُجدّفون عليه (ص٤١٢).

وانتقل بولس من انطاكيه إلى أيقونية برفقة أحد حواريي المسيح وأخذ يبشّر اليونانيين الوثنيين ثم انتقل إلى ميسيّة على البوسفور. ومنها إلى مرفأ طرواس (ص٤١٩). ومنه إلى ساموترافيا. ثمّ إلى فيليبّي وهي عُظمى المدن وفي ولاية مكدونية التي كانت مستعمرة رومانية (ص٤١٩). وانتقل من هناك إلى تسالونيقي (ص٤٢١)، ووصل منها إلى أثينة عاصمة اليونان (ص٤٢٢). ثم عاد أدراجه إلى أنطاكية (ص٤٢٦) وأسس في سفره هذا عدّة كنائس (ص٤٢٨)، إلى أن وصل أورشليم (ص٤٣٥) حيث اعتُقل فيها (ص٤٣٦).

واضطرّ تجاه الذي اعتقله واستجوبه أن يكذب عليه ويزعم له أنّه روماني ومن مواليد روما بالذات (ص٤٣٨) ونجى بذلك من هؤلاء. فعاد بعدها إلى روما (ص٤٤٨) عن طريق مالطة (ص٤٥١) فوصل روما ومكث فيها مدة سنتين كاملتين (ص٤٥٢). وفي روما كتب

رسالته إلى أهلها ص٤٦٤. وكان لرسالته تلك مكانة عظيمة في تاريخ المسيحيّة. وقد قلب بولس الرسول في تلك الرسالة عدّة مفاهيم توراتيّة كما استحدث عقائد جديدة للمسيحيّين وانتهت رسالته عند الصفحة (٥٠٣).

والذي يهمّني من جميع ماذكرت واقتبست هو أن التبشير بالمسيحية لم ينحصر في فلسطين بل امتد عبر سوريا وتركيا واليونان إلى أن ابلغ روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية في ذاك التّاريخ. والمعلوم هو أنّ فلسطين كانت آنذاك عبارة عن مستعمرة رومانية ، من هنا ندرك أنّ هذا المسار كان مساراً طبيعيّاً جدّاً. فصاحب العقيدة يهمُّه نقل عقيدته إلى عاصمة الدولة التي يحميه عَلَمُها . علماً أنّه كان يعيش يهود كثيرون في مختلف المناطق التي ذكرناها.

ولّما كان الرّومان في ذاك التاريخ وثنيّون، يقدّمون القرابين للأصنام. فقد تأذى أولئك الوثنيّون ممّا كان يطرحه المسيحيون من عقائد جديدة تُنكر عليهم شركهم وسجودهم للأصنام. واعتبر أهل روما المسيحيّين مُخرّبين لعقائدهم، فعمدوا إلى اضطهادهم وتقتيلهم. واضطر المسيحيون الأقليّة الوافدة إلى اللّجوء إلى كهف قريب من روما ليتّخذونه مسكناً لهم. ولابدّ أن تكون سورة الكهف قد أشارت من خلال ﴿**أم حسبت أن أصحاب الكهف**.. ﴾ إلى المسيحيين الأوائل من حواريي المسيح، هؤلاء الذين تواجدوا في روما ولاقوا من أهلها صنوفاً من الاضطهاد والظلم. الأمر الذي الجأهم إلى سكنى الكهف المذكور خصوصاً وأنّ ذهن ابن كثير ذهب إلى أن سورة الكهف تتكلم عن المسيح الدّجال، وأنّ التّمهيد الذي مهّد جل شأنه به لقصة أصحاب الكهف، احتوى التّصريح بإنذار المسيّحيين الذين اتخذوا لله ولداً، و لم يذهب ذهن ابن كثير إلى أن قصة أصحاب الكهف قد لفت الله تعالى نظرنا فيها إلى هذا الكشف التاريخي المتعلّق بالأولين من الموحدين المسيحيين من حواريي المسيح.

وقبل أن أجزم بهذا الأمر، لابدّ لي كمحقّق من أن أراجع كتب تاريخ المسيحية لمختلف مؤرّخيها، وهو الطريق العلمي الثاني الذي اخترناه إلى جانب الرجوع إلى سفر أعمال الرسل، وذلك لتعيين وتحديد موقع الكهف جغرافياً.

فمن تلك الكتب التاريخية القيّمة التي طالعناها، كتابٌ بعنوان **Coto Combs of Rome** أي كهوف روما. وقد صرّح فيه كاتبه أنّ أوائل المسيحيين كانوا موحدين غير مشركين. وكان اعتقادهم بالمسيح أنه مخلّص ونبي وحسب. وقدّم الكاتب دليلاً حسيّاً يثبت ذلك، وهو وجود كهوف في ضواحي روما، كان المسيحيون الأولون قد اتخذوها ملجأً لهم يسكنونها في فترات اشتداد اضطهاد الرّومان إياهم. ويضيف هذا الكاتب يقول إنّ الحفريات أدّت إلى اكتشاف كتاباتٍ ونقوش منحوتة داخل تلك الكهوف. وهي تصوّر ماكان الرومان ينزلونه من مظالم في تلك الأيّام بالمسيحيين الضعفاء. ويضيف أيضاً قوله : لقد حدثت تلك المظالم على فترات ضد هؤلاء، ودامت مدّة ثلاثة قرون، إلى أن اعتنق المسيحية القيصر الروماني قسطنطين. وهذا المؤلّف نفسه يروي أنّه حدث بعد ذلك أن هُوجمت روما من قبل قبائل (الكات)، وعملت هذه القبائل في روما وكهفها نهباً وسلباً، وممّا فعلوه هو أنّهم خرّبوا آثار تلك الكهوف ونهبوا مُحتوياتها وحطموا ماتبقّى منها، وضاعت قصّة تلك الكهوف على مرّ الأيّام. إلى أن قام بعد ألف عام من ذاك التّاريخ علماء آثار نقبّوا هناك وتمّ لهم العثور على بعض مُحتويات تلك الكهوف، فأعادوا بذلك ذكرياتها إلى حيّز الوجود.

والحقّ أنّ من يُطالع تاريخ روما، وعهد نيرون بالذات الذي حكمها مابين عام (٥٤ ـ ٦٨) م والذي عاصر حواريي المسيح المتواجدين في بلده وعاصمته. فالمُعتقد أنّ نيرون هو الذي أعدم بطرس الحواري المعروف. علماً بأنّ نُقّاد النّصوص المعاصرين عثروا على مايثبت سفر بطرس إلى روما. حتى وأنه ورد في دائرة المعارف البريطانية وتحت لفظ (ساين بيتر) أنّهم عثروا على قبر بطرس هناك في عام ٢٥٨م. ونقلوا عظامه إلى الكهوف المجاورة لروما. كما أن كتاب قصة روما (**Story of Rome**) أتى كاتبه فيه على ذكر قصّة اكتشاف قبر بطرس المذكورة. المهم هو أن القيصر نيرون اضطهد المسحيين. وكان يُضحك شعبه بـإحراق المسيحي حيّاً وبتسليط الكلاب عليه. فهذه حقائق تاريخية لاتُنكر وأضحت معروفة لدى المؤرخين.

كما أنّه يُستفاد من مطالعة تاريخ روما أن القيصر (دقيانوس) هو الذي سنّ قانوناً ظالماً بحقّ المسيحيين تتراوح عقوبته مابين قتل أو سجن مدى الحياة. ذكر ذلك دائرة المعارف

البريطانية. تحت لفظي كاليـــس ودقيانوس. وهذا القيــصر حكم روما مــابين عــامي (٢٤٩ ـ ٢٥١) م.كما تروي أنّه استمرّ العمل على هذا القانون إلى أن ألغاه القيصر (كاليس) قبل وفاته. فبـدأ بذلـك عهـد التّسـامح مـع المسيحيين في رومـا، ودام الأمركذلـك إلى أن اعتنـق القيصـــر قسطنطين المسيحية عام (٣٣٧م)، وانتشرت المسيحية بذلك في تلك الأرجاء بعد صمــود ثلاثـة قرون زمنيّة.

وهذه النتيجة وهذه المعلومـات المتعلقـة بكهـوف رومـا ولجـوء المسيحيين المُضطدين وسكناهم فيها. أفادتنـا بهـا كتـب المؤرخـين المسيحيين أنفسـهم، ودائـرة المعـارف البريطانيـة. وجميعها تؤكّد أن المسيّحيين الأوائل من حواريـي المسيح ماكـانوا مشـركين بـل مُوحدّيـن وأنّ تبشيرهم صَمَدَ في وجه الوثينيّـن ثلاثـة قـرون وانتصـروا أخـيراً واعتنـق قيصـر رومـا قسـطنطين عقائدهم بعد أن تخلّى عن عقائده الوثنيّة. وعليه فقد حدّدت لنا هذه المعلومــات موقـع الكهـف جغرافيّاً. هذا الكهف الواردة الإشارة إليه في قوله تعالى : ﴿ **أم حسـبت أنّ أصحـاب الكهـف والرّقيم كانوا من آياتنا عجباً**.﴾ كما تأكّد لنا ذلك وعلى ضوء مأأفـاده سـفر أعمـال الرسـل الذي أتى على ذكر وصــول بعـض حواريـي المسيـح النـاصري إلى رومـا عاصمـة الإمبراطوريـة الرومانية والقيام بالتبشير هناك أيضاً.

وسؤال يطرح نفســه هنـا : هـل أنّ كهـوف رومـا كـانت كهوفـاً طبيعيّـة أم كـانت إصطناعية محفورة في الجبل المجاور لرومـا؟ خصوصـاً وأننـا لاحظنـا أن صـاحب معجـم (أقـرب الموارد) عرّف الكهف بقوله (بمثابة البيت المنقور في الجبل) فهل أن كهوف روما كانت منقـورة في جبالها كالبيت، أم أنّها كانت كهوفاً طبيعية تأتّت بفعل العوامل الطبيعية؟

وللإجابة على هذا السؤال نعمد إلى نفس المصادر الـتي أتينـا علـى ذكرهـا لنسـتلهمها الإجابة على هذا السؤال. فنلاحظ أنّ الأناجيل تروي بأنّ اليهود كانوا يحفـرون كهوفـاً صغـيره في الجبال لدفن موتاهم. كما تفيدنا المصادر التاريخية أن الوثنيين كــانوا يفعلـون نفـــس ماكـان يفعله اليهود لدفن موتاهم. ثم إنّ الذي يـزور المُـدن الإيطاليـة ويـزور قبورهـا القديمـة، يلاحـظ انتشار هذه الظاهرة هناك. وبهذه الظاهرة تتميّز المـدن الايطاليـة عمـا سـواها مـن مـدن الـدّول

الأخرى المجاورة . فقد ثبت تاريخيّاً أنّ الرومان كانوا يقومون بحفر كهوف في ضواحي مُدُنهم على شكل بيوت منحوته ويدفنون فيها موتاهم. فكانت تلك الكهوف بمثابة البيت المنقور في الجبل وفقاً لما أورده صاحب معجم أقرب الموارد في وصفه للكهف. ثم إنّ الرّومان اشتُهروا كثيراً بضخامة أبنيتهم ولاتزال تشهد آثارهم في روما على ذلك حتى يومنا هذا. فوسائل القيام بمثل هذه الأعمال كانت مُتوفّرة لديهم في تلك الحقبة من الزّمان.

وظاهرة قبور الرّومان هذه، استفاد منها المسيحيون الأوائل المضطهدون في روما فلجؤوا إليها واتّخذوها مسكناً لهم يحتمون به. خصوصاً وأنّ الوثنيين في ذاك الزمن كانوا يخشون زيارة قبور موتاهم ويعتقدون أنّها مسكن للأرواح والمخلوقات المؤذية الخافيه عن الأعين. وقد أكّد هذه الحقيقة مؤلف كتاب (قصّة روما) الذي أتينا على ذكره، على الصفحة (٦٣) من كتابه. وهذه الأمور جميعها تتلاقى وماطرحته الآية القرآنية ﴿ **أم حسبت أن أهل الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً.**﴾.

أضف إلى ذلك كلّه أنّ المؤرخ الرّوماني (ميش) كان قد أشار في مؤلفه التاريخي إلى أنّ القيصر نيرون كان يحرق المسيحيّين وهم أحياء ليُضحك جماهير عاصمته، بل وكان يسلّط عليهم الكلاب. وأنّ مظالمه المتكررة تلك دفعت المسيحيّين في عهده إلى الهرب من روما والالتجاء إلى القبور المجاورة لها والتي كانت محفورة على شكل كهوف.

كما أنّ المؤرّخ نفسه ذكر أن المسيخيّين المُضطهدين ماكانوا يكتفون بما هو محفور بل وكانوا يتوسّعون فيحفرون غُرفاً جديدة داخل الكهف، ويتخذونها كنائس لصلاتهم. بل وراحوا فحفروا طابقين تحتها دون أن يصلوا بين الطوابق بأدراج خشبية أن ينزل جُند القيصر لملاحقتهم. وكانوا يحتفظون بأعمدةٍ وألواح خشبية يستعملونها عند الضرورة للصعود من طابق إلى طابق أو النزول منه. كذلك روّضواكلاباً يضعونها على أبواب الكهف تُحذّرهم بنباحها من كل طارق. وهذه المعلومات تضمنّتها أيضاً دائرة المعارف البريطانية تحت لفظ (كيتا كونر) أي قبر الكهف.

ثم إنّ الحفريات التي قام بها علماء الآثار في تلك الكهوف أثبتت لهم أنّ المسيحيّين الأولين من حواريي المسيح وتلاميذهم كانوا في تلك الحُقبة من الزّمان يؤمنون بإله واحد وأنّ المسيح الناصري مُخلّص ونبيّ ليس إلاّ.

إلى هنا نكون قد فهمنا موضوع (أهل الكهف والرقيم) بمنظورٍ جديد. فما كان هؤلاء "عجباً" كما صوّرهم لنا المفسّرون القدماء، الذين خالفوا صريح دلالة النّص القرآني ﴿**أم حسبت أن .. كانوا عجباً**﴾. بل إنّ أهل الكهف والرّقيم هم أوائل المسيّحيين الذين كانوا موحدين، ولم يتخذوا لله ولداً، والمقصد من التّذكير بقصتّهم في بداية مضمون هذه السورة، لتعود قصّتهم حجّة تُفحم مسيحيي عصرنا الذين اتخذوا لله ولداً، وليثبت من ذلك بُطلان هذا الشّرك الذي يزعمون .

فلمّا نصل هذا الحدّ من البيان عن الكهف المذكور في الآية وعن موقعه الجغرافيّ وعن علاقته بالمسيحيين الأولين من حواريي المسيح الناصري عليه السّلام. نتابع مابعد هذه الآية الكريمة حيث قال الله عز وجلّ :

الآية ﴿١٠﴾ ﴿ **إذ أوى الفتية إلى الكهف، فقالوا ربّنا آتنا من لدُنك رحمة وهيّىء لنا من أمرنا رشداً** ﴾

فاستهل جل شأنه قصّة هؤلاء بظرف الزّمان (إذ) كإسم للزمن الماضي. وكأنّه قد قال عن طريق ذلك : سنُحدّثكم عمّا جرى في الزمن الماضي ماكان من حال أصحاب الكهف والرّقيم. ثم إنّ لفظ (أوى) إلى المكان يعني نزل بنفسه ليلاً أو نهاراً داخله وسكنه ومال إليه (١) ولفظ (الفتية) جمع فتى، ويعني الشّاب الحدث السّخي الكريم. (٢).

أي أنّه قد كان في ذاك الزمن الماضي شبابٌ حديثي السّن أسخياء وكرماء آمنوا بالمسيح الناصريّ وانتشروا بعد محاولة صلبه في مُختلف أقطار الامبراطورية الرومانية

(١)- محيط المحيط .

(٢)- أقرب الموارد.

ينشــرون دعوته وتعاليمه إذ كان كثيرٌ مــن شــتات اليهـود منتشــرين في تلـك البقـاع، إلى أن وصلوا روما عاصمة الامبراطورية وهناك اضطهدهم أهلها وحكومتها وظلموهم ظلماً اضطرهـم إلى أن يجعلوا الكهف القريب من روما مأوى لهـم ومســـكناً. والـذي دلّنـا علـى أن المقصـود بالفتية هنا المسيحيون الأولون هوإيراد الآية للفـظ (الفتيـة) معرفـاً بالألـف والـلاّم أي المعهوديـن ذهنيّاً من المسيحيين الأولّين من حواريّي المسيح.

ثم إنّ وصفهم بالأسخياء الكرماء هذه الصّفات الدّال عليها لفظ (فتية) من حيث اللغة هو أمرٌ يؤيّده ماورد في أعمال الرسل تحت عنوان (الحياة المسـيحيّة في الجماعـة الأولى) ويقصـد بهم حواريّي المسيح. فقد ورد هناك : (وكان جماعة الذيـن آمنـوا قلبـاً واحـداً ونفسـاً واحـدةً، لايقول أحدٌ منهم أنّه يملك شيئاً من أمواله. بل كان كل شيءٍ مُشتركاً بينهم.. فلم يكـن فيهـم مُحتاج، لأنّ كُل من يملك الحقول أو البيوت، كان يبيعها ويأتي بثمن المبيـع فيُلقيـه عنـد أقـدام الرّسل، فيعطي كلٌّ منهم على قدر احتياجه.. وإنّ لاويّاً قبرسيّاً اسمه يوسـف، ولقّبـه الرّسـل ـ ويقصد بالرّسل حواريي المسيح الناصري ـ لقبّوه (برنابا) أي ابن الفرج. كان يملك حقلاً فباعـه وأتى بثمنه، فألقاه عند أقدام الرّسل..)(١).

وهذا الكلام الوارد في أعمال الرسل. يؤيّده ماأوصى به المسيح ابـن مريـم حوارييـه في حياته بينهم قائلاً في انجيـل متـى: (لاتقتنـوا ذهبـاً ولا فضّـة ولا نُحاسـاً في منـاطقكم ولامـزوداً للطّريق، ولاثوبين ولا أحذية ولا عصاً، لأن الفاعل مُستحقٌّ طعامه..)(٢). وعليـه فـلا ينبغـي أن نستغرب دلالة لفظ الفتية الوارد في قوله تعالى : ﴿ **إذ أوى الفتية إلى الكهف..**﴾. دلالته علـى حواريي المسيح الناصري.

وأضاف تعالى يقول : ﴿ **فقالوا ربّنا آتنا من لُدنك رحمة وهيّء لنا من أمرنـا رشـداً.**﴾. وهـو تعالى أتى هنا بفعل (فقالوا). والقول لغة هو التلفّظ. وقد يُستعمل لغير ذي لفـظٍ تجـاوزاً كقـول الشـــاعر : فقالت له العينان سمعاً وطاعةً. وقال الحائط : بمعنى سقط. وللقول دلالات أخرى

---

(١)- العهد الجديد - أعمال الرسل - الصفحة٣٨٥.

(٢)- إنجيل متّى - الإصحاح ٩/١٠.

فالمقصود هنا تلفُّظ الفتية وصف المأساة التي عاشها الفتية بلسان حالهم، لذلك أتى تعالى بلفظ (فقالوا) - فالمقصـود من (فقالوا) التعبير عن حالهم الذي وصلوا إليه نتيجة مالاقوه من اضطهاد وظلم. أي أنه راح تعالى يصف حال هؤلاء بأنّهم راحوا يستمدّون من ربهم أن يرحمهم بهم وأن يَرِقّ لحالهم السيئة وأن يغفر لهم من ذنوبهم وأن يتعطّف عليهم. ذلك أنّ (الرحمة) تعني طلب أن يرقّ فؤاد المطلوب منه لحال الطالب. فهذا ماقصده تعالى بقوله : ﴿ **فقالوا ربّنا آتنا من لُدنك رحمة..**﴾ وأضاف : ﴿**وهيّء لنا من أمرنا رشداً.**﴾. ويقصد به أن لسان حال هؤلاء الفتية كان يطلب من الله ربّهم أن يُهيّء لهم بتقدير منه أسباب خلاصهم من محنتهم التي ابتُلوا بها. ليتمكنوا من استعادة حرّيتهم ويفوزوا بتبليغ تعاليم المسيح الناصري عليه السّلام.

كما دلّ على ماذكرناه من معنى لفظ (رشداً) من رشد إذا اهتدى. والرَّشد يكون في الدّين. على حين أنّ الرُّشد يكون في العمر.

وعلى هذه الصّورة، يكون تعالى قد أعطانا فكرة مُجملةً عن الحالة السّيئة التي وصل إليها حواريّوا المسيح الناصريّ في روما. وانتقل جل شأنه من ذلك ليُجمل لنا قصّة هؤلاء الفتية في آيتين فقط، قبل أن يتبسّط في شرح ماجرى لهم. وهاتان الآيتان اللّتان أجملتا قصّة هؤلاء الفتية، هما ماأورده تعالى بقوله العزيز :

الآيتين ﴿ ١١-١٢ ﴾

﴿ **فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ۝ ثم بعثناهم لنعلم أيُّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً.**﴾.

وقد اقتضى هذا الإجمال منه جلّ شأنه أن يقول : ﴿ **فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً..**﴾. وإنّ لمّا يؤسف له أنّ ابن كثير أخطأ حينما فسّر هذه الآية الكريمة وقال : [﴿ **فضربنا على آذانهم** ﴾ أي ألقينا عليهم النّوم حيث دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة. ثم بعثناهم أي من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه كما سيأتي بيانه وتفصيله. ولهذا قال : ثم بعثناهم لنعلم أيّ الحزبين. أي المختلفين فيهم.

أحصى لما لبثوا أمداً. **قيل عدداً وقيل غاية. فإن الأمد الغاية.** كقوله : سبق الجواد إذا استولى على الأمد.)](١).

قلت إنّ ابن كثير رحمه الله قد أخطأ. لأنّ أصحاب المعاجم كصاحبي محيط المحيط وأقرب الموارد ذكروا في معاجمهم : ضرب على أُذنه : منعه أن يسمع. فأين منعه أن يسمع من ألقينا عليهم النّوم؟

ثم إنه لايُشترط في الذي لايسمع أن يكون نائماً. فلو كان المعنى الصحيح هو الذي ذهب إليه ابن كثير من معنى فلا معنى حينئذٍ أن يناموا سنين عدداً بلا طعام ولا شراب ولا تغوّط. فلّما يستفيقوا يُرسلوا لشراء الطعام. وهو الأمر الذي يثبت منه أن أجسادهم كانت لايقوم لها قائمة بدون طعام وشراب.

ثم إنني سبق وقلت إنّ الله عز وجل قد أجمل قصّة هؤلاء الفتية في هاتين الآيتين. وها أنّ ابن كثير قد اعترف بذلك من خلال مانقلناه من كلامه. هذا وإن هذا الإجمال هو الذي اقتضى جملة ﴿ **فضربنا على آذانهم** ﴾. حيث أنّ هذه الجملة هي في الأصل جاءت لتشرح حال الفتية وهو أنّ مشيئة الله تعالى اقتضت عزلهم عن النّاس ليس إلاّ، فهذا هو المقصود من قوله تعالى : ﴿ **فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً** ﴾. وكأنّه جل شأنه أجمل قصّة الفتية وقال : إنّ خلاصة ماجرى لهؤلاء الفتية هو أننا تركناهم يقطنون الكهف، وبذلك عزلناهم عن المجتمع الذي يظلمهم ويضطهدهم. فما كانوا يغادرون الكهف إلا للتبشير وطلباً لحاجاتهم. وتركناهم على تلك الحال مدّة طويلة جدّاً، ليتمكنوا فيما بعد من التغلّب على الذين يظلمونهم ويستضعفونهم.

وأضاف جلّ شأنه يقول : ﴿ **ثم بعثناهم لنعلم أيُّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً** ﴾ فقوله : ﴿**ثم بعثناهم** ﴾ أي ثم أرسلناهم إلى هؤلاء وكتبنا لهم الحرّية والنّصر على أهل روما. ﴿ **لنعلم أيّ الحزبين أحصى لِما لبثوا أمداً** ﴾. الحزب يعني الطائفة من الناس ، وكلُّ قومٍ تشاكلت

(١)- ابن كثير - الجزء الثالث - الصفحة ٧٣.

قلوبهم وأعمالهم فهم حزب، وإن لم يلق بعضهم بعضاً(١) .

وكأنه تعالى بذلك قد قال : هاكم انظروا هاتين الطّائفتين : طائفة المسيحيّين الأوائل الذين كانوا من الموحدّين. وطائفة أهل روما الذين كانوا من المشركين الوثنيين. انظروا نتائج صراعهم وكيف أنّ التوحيد تغلّب على الشرك والوثنية في آخر المطاف. وكيف انهزم الشرك والوثنية في آخر المطاف. فالّذين كانوا يُوحّدون ربّهم لم يضجرهم طول زمن بقائهم في الكهف. لأنّهم حَمَلة رسالة وأصحاب هدفٍ معلوم. على حين أنّ المشركين كانوا يقيمون عقائدهم على أساسٍ من الظّنون، لذلك انهزموا أخيراً وتنصّر القيصر قسطنطين.وأثبت بتنصّره بذلك بُطلان عقائد الرّومان وضجرهم من طول الزمن وتوالي السّنون. وتجلّت بذلك كلّه استجابة الله الأحد لمقتضيات أحوال الموحّدين من المسيحيين الفتية الأولين.

ودلّنا على ذلك لفظ (أمداً) الذي قال فيه صاحب معجم المفردات : (الفرق بين الزمن والأمد، أنّ الأمد يُقال باعتبار الغاية. والزمان يُقال في المبدأ والغاية. ولذلك قال بعضهم : الزّمن والأمد يتقاربان.). وعليه فإنّ الأمد يُستعمل باعتبار الغاية . وبهذا اللّفظ تجلّت لأعيننا الحقيقة التي ذكرناها. وهو أنّ الموحّدين لم يسأموا ولم ييأسوا من طول المُدّة التي ظلّوا خلالها يقطنون الكهف ويعيشون بين الأموات. وإنّ عدم سأمهم وصمودهم تحقّق بسبب الغاية التي كانوا يسعون لتحقيقها. أمّا الوثنيّون فقد طال عليهم الأمد وانهار ماكانوا يعتقدون صحّته.

فلّما انتهى جل شأنه من هذا الإجمال لقصّة هؤلاء الفتية، انطلق يُفصّل للقارىء ماأجمله ويقول :

الآيتين ﴿ ١٣-١٤ ﴾

﴿ نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحقّ إنّهم فتيةٌ آمنوا بربّهم وزدناهم هُدىً ۝وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا: ربُّنا ربُّ السّموات والأرض، لن ندعو من دونه إلهاً، لقد قُلنا إذاً شَطَطا ﴾.

(١)- أقرب الموارد.

وقبل أن نبدأ بشرح هاتين الآيتين الكريمتين، نأتي على شرح المُعضل من ألفاظها ونقول :

نقُصّ : من قصّ أثره تتبّعه شيئاً بعد شيء. ومنه : فارتدا على آثارهما قَصصا، أي رجعا في الطريق التي سلكاها يُقصّان الأثر. وقصّ عليه الخبر والرؤيا : حدّث بهما على وجههما. ومنه نحن نقصّ عليك أحسن القصص، أي نُبيّن لك أحسن البيان (١).

نبأهم : نبّأه الخبر وبالخبر : خبّره. ويُقال : نّبأت زيداً عمراً مُنطلقاً. النبأ : الخبر. وقال في الكُليّات : النّبأ والإنباء لم يردا في القرآن إلاّ لِما له وقعٌ وشأن عظيم (٢).

بالحق : الباء حرف جرّ لإفضاء معاني الأفعال إلى الأسماء. وتفيد الاستعانة في هذا المقام لدخولها على آلة الفعل. والحق : مصدر حقّ. وحقّه حقّاً : غلبه على الحق. وحقّ الأمر : أثبته وأوجبه وكان على يقينٍ منه. وحقّ الخبر : وقف على حقيقته. والحقّ ضدّ الباطل، والأمر المقضي والعدل والصدق والمِلك والموجود الثّابت. والحق : اليقين بعد الشّك والموت والحزم (٣) فمعنى بالحق أي نستعين في إنبائنا بالموجود الثابت والعدل.

وربطنا على قلوبهم : ربط الله على قلبه : صبّره زمن المصائب والابتلاءات (٤).

إذ قاموا : أي في الزمن الماضي الذي فارقوا فيه ديارهم ونهضوا لرفع كلمة التّوحيد.

شططا : من شطّ إذا جار وظلم وأفرط. وشطط في سُلعته شططاً : جاوز القدر المحدود وتباعد عن الحق. شطّ في السّوم : غالى في الثّمن. والشطط مجاوزة القدر والحدّ (٥).

والآن، وعلى ضوء معاني الألفاظ التي بيناّها، يكون تعالى قد بدأ قصّة هؤلاء الفتية من حواريي المسيح الناصري كما يلي : إننا نحدثّكم ونبئكم مستعينين بعلمنا الغيبي الحق الذي ينطلق من الموجود الثابت، أنّ هؤلاء الشباب الفتية الأسخياء الكرماء الذين كانوا من حواريي

---

(١)- أقرب الموارد.

(٢)- أقرب الموارد.

(٣)- أقرب الموارد ومحيط المحيط.

(٤)- أقرب الموارد.

(٥)- أقرب الموارد .

المسيح الناصري كانوا مؤمنين بالله الواحد، وقد باركنا في إيمانهم ومنحناهم عزيمة صبرٍ على الشّدائد، في الزمن الذي نهضوا فيه لإعلاء كلمة الله تعالى . فهجروا موطنهم أورشليم اتقّاء من اضطهاد سكانها اليهود. وقد عزموا وصمّموا ألاّ يتخاذلوا ولايرتدوا عن إيمانهم بربّ السماوات والأرض، معتقدين أنّ الشرك بهذا الإله فيه تجاوزٌ وبعدٌ عن الحقّ وإفراط في الدّين وتجاوز للحدّ.

ولنلاحظ أنّ اتّصاف هؤلاء بهذه الصفات يعود أصلاً إلى وصيّة المسيح الناصري وتعليمه. فهو كان قد أوصاهم بقوله : (ها أنا أرسِلكُم كغَنَمٍ في وسط ذئاب. فكونوا حكُماء كالحيّات، وبُسطاء كالحمام. ولكن احذروا من النّاس، لأنّهم سيُسلّمونكم إلى مجالس، وفي مجامعكم يجلدونكم. وتُساقون أمام وُلاةٍ ومُلوكٍ من أجلي شهادة لهم وللأمم. فمتى أسلموكم فلا تهتّموا كيف أو بما تتكلّمون. لأنّكم تُعطون في تلك السّاعة ماتتكلّمون به. لأن لستم أنتم المتكلّمين به، بل روح أبيكم الذي يتكلّم فيكم. وتكونون مُبغضين من الجميع، من أجل إسمي. ولكنّ الذي يصبر إلى المُنتهى، فهذا يخلُص. ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى.)(١).

إنّ هذه الوصايا تشفّ عن الإيمان بالله عز وجلّ. وجملة (بل روح أبيكم يتكلّم فيكم) تتفّق وقول القرآن: ﴿ **يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثّابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضلُّ الله الظالمين، ويفعل الله مايشاء.**﴾(٢). ولفظ (أبيكم) الوارد في الجملة الإنجيلية هو نفس لفظ (أبانا الذي في السموات..) وهو مايدعو به المسيحيون في صلوانهم.

الأمر الذي يعني أنّ المسيح الناصري حين استعمل لله تعالى لفظ الأب، فقد استعمله بهذا المعنى المجازيّ وليس بمعناه الحقيقي. إن وصيّة المسيح الناصري هذه رسّخت في أفئدة حواريّيه الصّبر على اضطهاد الملوك ورعاياهم لهم وسومهم إياهم أصناف الظّلم والعذاب.

فهذا هو معنى ﴿ **نحن نقصّ عليك نبأهم بالحقّ..**﴾. وأضاف جل شأنه يقول عن لسانهم :

---

(١)- إنجيل متى الإصحاح ١٠/ ١٦ .

(٢)- سورة ابراهيم - الآية (٢٧).

الآية ﴿ ١٥ ﴾

﴿ هؤلاء قومُنا اتخذوا من دونه آلهةً، لولا يأتون عليهم بسلطانٍ بيّن، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمّن افترى على الله كذباً ﴾.

والسّؤال هنا : هل يصحّ إطلاق لفظ (قومُنا) على الوثنيين الرومان من غير اليهود ؟

وقد أجاب صاحب معجم (محيط المحيط) على هذا السؤال وقال : (وقد يُقيم الإنسان بين الأجانب، فيُسّميهم قومه مجازاً للمُجاورة. وفي سورة (يس) ﴿ **ياقوم اتبّعوا المرسلين** ﴾. قيل كان مقيماً بينهم ولم يكن منهم، وقيل كانوا قومه.).ولفظ السّلطان يعني هنا الحجّة والدليل (١).وبيّن : معناه واضح وجلّي (٢) .

والمعلوم بشأن اليهود أنّهم تلّقوا عن موسى عليه السّلام عبادة الله الأحد، فهم مُوحّدون وقد أتى جلّ شأنه في هذه الآية الكريمة بقول الفتية ﴿ **هؤلاء قومُنا اتّخذوا من دونه آلهة..** ﴾ إشعاراً منه تعالى للقارىء أنّ الفتية كانوا يعيشون بين الرّومان الوثنيين الأجانب عنهم، فاستعمل لفظ (قومنا) مجازاً لمجاورتهم إيّاهم. ولُيشعر القارىء أيضاً أنّ حواريي المسيح كانوا من الموحدّين. لذلك اعترضوا على الرّومان الذين أشركوا وسجدوا للأصنام. ولُيشعره أيضاً بما كان يدور من حوار ونقاش بين الفتية وبين الرومان، وأنّ الفتية تيقّنوا من أنّ عقائد الوثنيين تقوم على مُجرّد الظنون ولايسندها حُجّة ولا دليل واضح وجليّ. من هذا نُدرك أن الله جل شأنه لايزال يتكلّم عن الفتية بلسان حالهم ليس إلاّ من أنّهم كانوا كُلّما حاوروا الرومان وناقشوهم ازدادوا إيماناً بالله تعالى واستنكاراً لواقع الوثنيين الذين يفترون على الله كذباً من خلال مايشركون به عزّ وجلّ .

وأضاف جل شأنه يقول شارحاً موقفه الذي اتخذه من هؤلاء الفتية :

(١)- أقرب الموارد.

(٢)- نفس المصدر .

الآية ﴿ ١٦ ﴾

﴿ وإذ اعتزلتموهم، ومايعبدون إلاّ الله، فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكّم من رحمته ويُهيّء لكم من أمركم مّرفقاً.﴾

قال ﴿**وإذاعتزلتموهم**﴾ ومعنى اعتزل الشيء وعنه : تنحّى جانباً (١) .وقال ﴿ **ينشر لكم** ﴾ ومعنى نَشَرتْ أوراق الشجر انبسطت وامتدّت. ونشر له : هيّأ له (٢) فالمعنى يهيّء لكم ربكّم الذي تعبدونه من رحمته. ومرفقاً : من رفق به وعليه وله : بمعنى لطُف و لم يُعنّف (٣) ومرافق الدّار منافعها (٤).

والملاحظ أنّه تعالى عاد فاستعمل لفظ الكهف مُعرّفاً بالألف واللاّم ليُنبّه القارئ إلى أنّه كهفٌ له شهرته. المهم أنّه تعالى، وقد ثبت له أن هؤلاء الفتية ﴿ **مايعبدون إلا الله** ﴾، وأنّهم يُريدون وجهه وشاهدوا ظلم الرومان الوثنيين واضطهادهم إيّاهم، ألهمهم أن يأووا إلى الكهف المشار إليه، ليتّخذوه ملجأ لهم ومستقرّاً يستقرّون فيه، ووعدهم بقوله ﴿**ينشر لكم ربكّم من رحمته ويهيّء لكم من أمركم مِرفقاً.**﴾ إشارة إلى أنه جل شأنه سيُهيّء لهم من عالم غيبه أسباب اللّطف بهم وتأمين منافعهم التي يحتاجونها. وهذا البيان الإلهي يشعر القارىء أنّ حواريي المسيح المذكورين كانوا مُلهمين ومؤيّدين بروح القدس، وفقاً لما بّشرهم به المسيح الناصري من قبل .

وإلى هنا يكون تعالى قد أتمّ لنا قصّةِ هؤلاء الفتية من المسيحيين الأوّلين. و لم يكتف جلّ شأنه بسرد قصّتهم تلك. بل شاء أن يُدلي لنا بدليلٍ بيّنٍ على مدى علمه الغيبي.
فراح يحدّد للقارىء موقع الكهف جغرافياً بالنسبة إلى العاصمة روما المُجاور لها، قال :

---

(١)- محيط المحيط.

(٢)- اقرب الموارد ومحيط المحيط.

(٣)- أقرب الموارد.

(٤)- محيط المحيط.

الآية ﴿ ١٧ ﴾

﴿ وترى الشّمس إذا طلعت تَزَاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرِضُهم ذات الشمال، وهم في فجوةٍ منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المُهتد ومن يُضللْ فلن تجد له وليّاً مُرشداً ﴾.

ونشرح الألفاظ فنقول. تزاور من تزاور عنه : عدل وانحرف (١).تقرضهم : من قرض الشّيء : قطعه. قرض الوادي : جازه. قرض المكان : عدل عنه وتنكّبه (٢) .الفجوة : الفُرجه بين شيئين، وما اتّسع من الأرض، وساحة الدّار (٣).يُضلل : من الضلال. والضّال من لايجد طريقاً يوصله إلى مقصده. فالضلال أن تخطىء الشيء في مكانه ولاتهتدي إليه. والضلاله في مقابل الهُدى. والغيّ في مقابلة الرّشد (٤).يهدي : هداه أرشده ضدّ الضلال. أي يبيّن له الطريق ويُعرفه به (٥) .وليّاً : ولي الشي وعليه: ملك أمره وقام به ونصره وأحبّه. (٦) .مُرشداً : من رشد أي اهتدى واستقام على طريق الحق مع تصلُّب فيه. وضدّ الغيّ (٧).

يتبيّن على ضوء هذه المعاني أنّ الكهف يقع شمال غرب روما. فإذا أشرقت الشمس تنحرف عن الكهف ذات اليمين. وإذا غربت تعدل عن شماله وتتنكّبه. ويعيش الفتية بين حركة الشمس المذكورة في فجوة أي داخل الكهف، فلا يتلقّون من ضوء الشمس وحرارتها إلاّ الشيء القليل.

وحدد الله تعالى للقارىء موقع الكهف جغرافياً من العاصمة روما قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، يوم لم تكن لهذه الحقائق بين يدي محمد رسول الله ﷺ من معطيات. وأثبت تعالى بذلك أنّه قدّم آية عظيمة من آيات علمه الغيبي : ﴿ **ذلك من آيات الله** ﴾ مُستبدلا (هذا)

---

(١)- أقرب الموارد.

(٢)- أقرب الموارد.

(٣)- أقرب الموارد.

(٤)- محيط المحيط.

(٥)- نفس المصدر.

(٦)- نفس المصدر.

(٧)- نفس المصدر.

بذلك إسم الإشارة للبعيد ليفيض على خبر تحديد موقع الكهف عظمةً ليست بالقليلة.وراح تعالى ينبّه بعد ذلك إلى أنّ الهداية بيد الله وأنّ الإضلال بيده أيضاً، ومن يضلل الله فلن تجد له من يقوم بأمره ويحبُّه وينصره، ويهديه السّبيل القويم.

فإلى هنا يكون الله جلّ شأنه قد روى لنا قصّة حواريي المسيح الناصري المسيح الناصري الشباب الأسخياء الكرماء الموحدّين. قصّة تحمّلهم مختلف أنواع الظلم والاضطهاد من قِبَل الرومان الوثنيين. فقضوا سنين عدداً في كهفٍ يقع شمالي غرب روما. وظلّوا على تحمّلهم وتوحيدهم إلى أن اعتنق الامبراطور قسطنطين المسيحية، وكتب الله تعالى للفتية وتلاميذهم بعد ذلك الغلبة والانتشار في تلك الأرجاء.

فلّما أنهى جلّ شأنه قصّة هؤلاء الفتية راح يروي الدّور الثاني الذي أتى على المسيحية مبتدئاً خبره بنفس الفعل (حسبت). على شاكلة مافعل عندما ابتدأ يقصّ ويروي أخبار الدور الأول بقوله ﴿أم حسبت﴾. فهو جلّ شأنه راح كما قلت يروي أخبار الدور المسيحي الثاني والذي عاصر زمن بعثة محمد رسول الله ﷺ خاصة وقال :

الآية ﴿ ١٨ ﴾

﴿ وتحسبُهم أيقاظاً وهم رُقود ونُقلّبهم ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال وكلبُهُم باسطٌ ذراعيه بالوصيد، لو اطّلعت عليهم لولّيت منهم فراراً، ولَمُلِئت منهم رُعباً.﴾

والذي تبادر لذهن المفسّرين القدماء من هذه الآية الكريمة، هو أن الله تعالى لايزال يتكلّم فيها عن الفتية أصحاب الكهف والرّقيم. مُتناسين أنّه تعالى أنهى الكلام عن قصّتهم حينما قال : **﴿ثم بعثناهم لنعلم أيّ الحزبين أحصى لِما لبثوا أمداً.﴾**.

والحقيقة هي أنّ الله تعالى راح يتكلم في هذه الآية الكريمة عن المسيحيّة بعد اعتناق الرومان وسواهم عقائدها وتمذهبهم بمذهبها. وذلك بعد تمذهب القيصر قسطنطين بالمسيحية . أي راح يتكلّم عن فترة القرون الوسطى المُظلمة والتي عاصرت زمن بعثة محمد سيد المرسلين ﷺ. فقد لعبت رسائل بولس دورها في تشويه وحرف المسيحية عن وجهة التّوحيد، التي جاء موسى والمسيح يناديان بها. فحرفت رسائل بولس هذا التوحيد إلى الاعتقاد أنّ المسيح هو ابن الله

الحقيقي. فلما أنزل الله تعالى القرآن الكريم وأنذر في الآيات التي مهدّ بها للكلام عن دور الشرك هذا بقوله تعالى : ﴿**ولتنذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً، ماهم به من علم ولا لآبائهم، كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.**﴾. يكون الله جل شأنه لايتكلم عن الدور الأول للمسيحية بل عن دورها الثاني، أي عن دور إنحراف، عن عقيدة التوحيد إلى الشرك بالله تعالى، هذا الانحراف الذي أفقدهم روح الدعوة وديناميكيتها، وأدّى بالمسيحيّين إلى انقسامهم على أنفسهم دُولاً يُقاتل بعضُها بعضا في فترة مايُسمونّه العصور الوسطى المظلمة التي عاصرت زمن ظهور الدّين الاسلامي .

والمؤسف أن يفهم المفسّرون القدماء مضمون هذه الآية الكريمة على غير حقيقته ولايستفيدون بذلك من حكمة سرد الدور المسيحي الثاني المذكور الذي نبّه من خلال التجربة المسيحية إلى أن دخول الناس أفواجاً في الدّين لايُبشّر بخيرٍ بقدر مايحمل معه من أخطار. وإلى القارىء ماكتبه ابن كثير في تفسيره لهذه الآية قال : (وقوله تعالى : ﴿**ونقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال**﴾ قال بعض السّلف يُقلّبون في الطعام مرتين. قال ابن عباس : لو لم يُقلّبوا لأكلتهم الأرض. وقوله: ﴿**وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد**﴾.. الوصيد الفناء.. وهو الباب، ومنه قوله ﴿**إنّها عليهم مؤصدة**﴾.. ويقال وصيد وأصيد ربض كلبهم على الباب، كما جرت به عادة الكلاب.. وكان جلوسه خارج الباب لأن الملائكة لاتدخل بيتاً فيه كلب كما ورد في الصحيح.. وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ماأصابهم من النوم على تلك الحال، وهذه هي فائدة صُحبة الأخيار، فإنّه صار لهذا الكلب ذكرٌ وخبر وشأن.. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة همّام بن الوليد الدمشقي : حدثنا صدقه بن عمر الغساني، حدثنا عباد المنقري، سمعت الحسن البصري يقول : كان اسم كبش ابراهيم عليه الصّلاة والسّلام جرير، واسم هدهد سليمان عليه السّلام عنفز، واسم كلب أصحاب الكهف قطمير، واسم عجل بني اسرائيل الذي عبدوه بهموت. وهبط آدم عليه السّلام بالهند وحوّاء بجدّة، وإبليس بدست بيسان والحيّة بأصفهان.. واختلفوا في لونه على أقوال لاحاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولاحاجة إليها، بل هي ممّا ينهى عنه فإنّ مُستندها رجمٌ بالغيب. وقوله تعالى : ﴿**لو اطّلعت عليهم**

لولّيت منهم فراراً ولُملئت منهم رُعباً.﴾ أي أنّه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لايقع نظر أحدٍ عليهم إلاّ هابهم، لِما أُلبسوا من المهابة والذّعر، لئلا يدنو منهم أحد ولاتمسّهم يدُ لامس، حتى يبلُغ الكتاب أجله، وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم، لِما لَهُ في ذلك من الحكمة والحُجّة البالغة والرحمة الواسعة.)(١).

ولا أعتقد أن مانقلناه عن تفسير ابن كثير لهذه الآية الكريمة هو بحاجةٍ للتّعليق عليه، فهو لايمتّ بصلةٍ لمضمون هذه الآية من قريب ولا من بعيد. ولذلك أتناول أولاً شرح الألفاظ أيقاظاً : يقظ الرّجل : تنبّه للأمور وحذر وفطن فهو يقظ، ضد نام (٢).رُقود : مفرده راقد أي نائم. رقد الرّجل : نام. والرّقود خاصّ باللّيل. ورقد عن الأمر : غفل ورقد بالمكان : أقام به . ورقد عن الأمر : غفل. (٣) .نُقلّبهم : قلّبه : حوّله عن وجهه ومقصده. قلّب الشيء : حوّله وجعل أعلاه أسفله. قلّب الشيء للابتياع: تصفّحه فرآى داخله وباطنه. قلّب الأمر ظهراً لبطن اختبره. قلّب القوم : صرفهم (٤).بالوصيد : الوصيد هو الفناء ، القبة بيت كالحظيرة يُتخذّ من الحجارة للغنم وغيرها في الجبال (٥) .لو : هي ستّة أقسام. وقد استُعملت هنا حرف شرط في معنى المستقبل، وليس الماضي ولذلك فهي لم تجزِم، وتفيد في هذا القسم معنى (إن). بمعنى:إنْ أنت اطلّعت على ماسيكون عليه هؤلاء في المستقبل **﴿ لوليت منهم فراراً ولُملئت منهم رُعباً﴾**. ومعنى لولّيت لأدبرت هرباً من قُوّتهم التي سيبلغونها وجبروتهم الذي سيكونون عليه (١) .ومعنى لَمُلئت : لشُحنت وأُفعمت رعباً أي خوفاً وفزعاً.

أقول : إنّ الخطأ الذي وقع فيه المفسرون يعود إلى أنّهم أخذوا لألفاظ الآية الكريمة معانيها الحقيقيّة المُتبادرة لأذهانهم دون ربطهم معنى الآية بتسلسلِ السّورة الموضوعي الواضح المعالم ، وكنّا لاحظنا أنّ الله تعالى نبهّنا من قبل من خلال **﴿ أم حسبت.. عجباً ﴾** إلى أنّه

---

(١)- ابن كثير الجزء الثالث ص٧٦.

(٢)- محيط المحيط.

(٣)- نفس المصدر.

(٤)- أقرب الموارد.

(٥)- نفس المصدر.

يتكلّم بلسان المجاز والتشبيه، وليس بدلالات الألفاظ المُتبادرة للأذهان. الأمر الذي يفرض على من يريد فهم مضمون هذه الآية أن ينطلق من الدلالات المجازية لألفاظها، وإلا تاه فيما تضمنته من معاني ودلالات.

وهاأنه تعالى يشرع ويستهلّ هذه الآية بقوله ﴿**وتحسبهم**﴾ أي وتظنّهم، وهو إشعار منه تعالى للقارىء بنفس المعنى الذي أشعره به حين قال ﴿**أم حسبت..**﴾ بمعنى أننا لانتكلّم عن عجيبةٍ من العجائب، بل نقصد المعنى المجازي من وصفنا الذي نصف به أصحاب الدور الثاني المسيحيّ، وهو دور القرون الوسطى المظلمة التي مرّ خلالها المسيحيّون زمن نزول هذا القرآن العظيم.

ويكون معنى ﴿**وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود**﴾ أي أنّ المسيحيّين، بعد زمن انتصار عقائدهم على عقائد الوثنيين الرّومان وبعد اعتناق النّاس لدينهم أفواجاً، أحدث هؤلاء النّاس الذين تنصرّوا في عقائد المسيحيّة ماليس منها، وقلبوا التّوحيد إلى شرك، فانحرفوا بذلك عن سبيل الرشّاد. وفقدوا بالتّالي حيويّة التوحيد ففقدوا بذلك تأييد الله ونُصرته ومحبّته وعادوا ﴿**تحسبهم أيقاظاً**﴾ حذرين ومنتبهين لواجب الدعوة إلى سبيل الله. والحقيقة هي أنهم ﴿**رُقود**﴾ غافلين عن نشر دعوة الله، ومُكتفين بما حصلوا عليه. ويكون الله تعالى قد نبّه القارىء من خلال قوله : ﴿**وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود**﴾ إلى أنّ العالم المسيحي في دوره الثاني المعاصر للبعثة الإسلامية كان يعيش عصر ظلام وانحطاط وتخلّف، وهو ماأطلق عليه المؤرخون المسيحيّون أنفسهم مصطلح القرون الوسطى.

ووضّح جلّ شأنه لقارىء القرآن الكريم حقيقة أخرى من حقائق المجتمع المسيحيّ في دوره الثاني المذكوروقال: ﴿**ونُقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال**﴾ فهو تعالى أتى بالواو العاطفه التي تفيد الحال لورود فعل المضارع نقلبهم بعدها مباشرة. تنبيهاً لذهن القارىء إلى عطف ماسيبيّنه على ماقبله. وليشيرمن خلال ﴿**نُقلّبهم**﴾ إلى انحراف هؤلاء المسيحيّين عن عبادة الله الأحد ، الأمر الذي دعا ربّهم ليقلّبهم أي ليحوّلهم ويصرف قلوبهم عن مقاصدها الحقيقيّة

(١)- أقرب الموارد.

وأقعدهم بذلك عن القيام بمهمّة نشر الدعوة وأوقعهم في شقاقٍ وصراعٍ داخليّ فعادوا مُنقسمين إلى دُولٍ تتناحر فيما بينها فتارة تنتصر دول اليمين على الدول الشمالية وتارة يحدث العكس . وتاريخ حروب القرون الوسطى معروف لدى المؤرخين وعليه فإنّ لفظ نُقلّبهم استعمل هنا بمعناه المجازي .

وأضاف الله جل شأنه موضحاً حقيقة ثالثة تتعلّق بالمجتمع المسيحي خلال دوره الثاني المذكور وقال : ﴿**وكلبهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد**﴾. فهو أتى بحرف الواو العاطفة للمرّة الثانية تنبيهاً للقارىء إلى أنّ المسيحيّين في دورهم الثاني بالرغم من انحراف عقائدهم ظلّوا يُقلّدون أصحاب الكهف والرقيم ويقتفون آثارهم في تربية الكلاب فقط ففي كلّ دار من دورهم في القرون الوسطى كان يبدو كلب صاحب الدار باسط ذراعيه و لم يتخلّوا في دورهم الجديد عن عادة تربية الكلاب هذه، حال أنّ هذه الظاهرة كانت ضرورية لفتية أهل الكهف والرقيم وحدهم وماكانت ضرورية لمجتمع القرون الوسطى وغيره من المجتمعات. والعجيب هو أنّ الإنسان الذي يُسافر إلى بلاد المسيحيين في زمننا الحاضر يلحظ من فوره اعتناء مسيحيي الغرب بتربية الكلاب، فكلّ بيت من بيوتهم يربّي كلباً باسطاً ذراعيه بفناء الدّار.

والسؤال الذي كان سيطرح نفسه هو : هل كانت ستستمر حالة تخلُّف المسيحيّين التي آلوا إليها في القرون الوسطى زمن تنزّل القرآن العظيم، أم كان سيطرأ على مجتمعهم بعد ذلك تحوُّل عقائدي وعروج؟

وبدافع الإجابة على هذا السؤال، أتى جل شأنه بالحرف (لو) واستعمله دلالة على المستقبل وبمعنى (إنْ) الشرطية التي تفيد الاستقبال وقال : ﴿**لو اطّلعت عليهم لولّيت منهم فراراً، ولَمُلئت منهم رُعباً.**﴾ مشيراً بذلك إلى دور المسيحية الثالث الذي ستتطور إليه شعوبها في أوربة وأمريكا بعد مدّة من ظهور الإسلام . هذا الدور الذيّ انسلخ علماء المسيحية خلاله عن سُلطان كنائسهم، وحاولوا التمرّد وانتهاج المنهج العلمي العلماني في حياتهم بعيداً عن تعاليم دينهم ، و ترقوا نتيجة لذلك علميّاً وتقنيّاً وقد برز دور رقيّهم المادّي المذكور إلى الوجود على حين أصيب فيه المجتمع الإسلامي الذي مزّقته عقليّة التشيّع والتمذهب والانقسام، بالتخلّف

والانحطاط وعاد أهله لقمة سائغة في فم هؤلاء المسيحيّن الذين لايمتّون إلى المسيحيّة إلا بالإسم وتربية الكلاب.

وينبىء الله تعالى عن هذا الدور المستقبلّي للشعوب المسيحية ويقول : **﴿لو اطّلعت عليهم لولّيت منهم فراراً.﴾** أي أننا إذا كشفنا لك عن مستوى ترقّيهم المادّي الذي سيبلغونه لأدبرت من رؤيتهم هرباً. والسؤال : متى يولي المرء دُبُره ويهرب ؟ الجواب هو أنّ الإنسان يفعل ذلك في حالة الخوف. وهل يُخيف الإنسان رؤية أشخاصٍ نيام ؟ فالمقصود هنا من (لولّيت منهم فراراً) رؤية هذه الدول الغربية المسيحية بعد بلوغها مبلغ القوّة والرقي المذكور .

فالخوف يتأتى أصلاً من مواجهة القوّة والجبروت الأمر الذي يعني أنّ الآية نزلت تنبئ عن دور القوّة والجبروت التي ستبلُغها الحكومات المسيحية في المستقبل غير المنظور نسبةً لزمن نزول القرآن الكريم.

وأضاف جل شأنه يقول : **﴿ولَمُلئت منهم رُعباً﴾** وليؤكّد قوله **﴿لولّيت منهم فراراً.﴾**.أي أنّ هؤلاء المسيحيّن سيبلغون حدّاً من القوّة المادية والجبروت السيّاسي بحيث يُشحن المتأمّل في حالهم تلك خوفاً وفزعاً. فبهذه الألفاظ الموجزة، يكون جلّ شأنه قد وصف دور المسيحيين الثالث الذي سيمرّون به ـ وهو دورهم الحالي ـ بوصف يستحيل أن يضارعه إيجازٌ ووصفٌ وتصويرٌ لواقعهم الحالي أبلغ من هذا الوصف البليغ . وهذه تعدّ إحدى ظواهر إعجاز البيان القرآني. فأين هذا البيان وماتضمنّه، من أنباء غيبية عظيمة وأين القصّة الأسطورية التي ذهب إليها ذهن ابن كثير رحمه الله وأمثاله من المفسرين القدماء ؟

وقد لاحظنا كيف أنّ الله عز وجلّ، ومن خلال آية لم يتجاوز عدد ألفاظها عشرون لفظاً، أتى على تصوير ماكان عليه حال المسيحيين في عصرهم الذي يسموّنه بالقرون الوسطى المظلمة ذاك العصر الذي مرّت به المسيحيّة من بعد اعتناق القيصر قسطنطين الدين المسيحيّ ودخول شعبه في المسيحيّة أفواجاً. كما أتى على تصوير ماسيؤول إليه حال المجتمعات المسيحية في المستقبل، حيث لايعُود النّاس هناك إلاّ مسيحيّن إسماً، مع احتفاظهم بظاهرة تربية الكلاب في دورهم الثالث المذكور أيضاً.بالرغم من ابتعادهم عن كنائسهم وترقيهم علميّاً وتقنيّاً بصورة

مدهشة يرهب سواهم من شعوب الأرض، الذين سيُشحنون خوفاً وفزعاً من جرّاء مايبلغه هؤلاء الغربيين من قوّة،وسلطان.

بهذا الفهم لمضمون هذه الآية الكريمة، نتمكّن من إدراك مارمى إليه قول رسول الله ﷺ الذي نقله إلينا ابن كثير في مقدمة تفسيره لسورة الكهف، وهو : (من حفظ عشر آياتٍ من أوّل سورة الكهف، عُصم من الدّجال.). ذلك أنّ رسول الله ﷺ اصطلح لهؤلاء المسيحيّين في دورهم المستقبلي الثالث المذكور مُصطلح (المسيح الدّجال). ولابُدّ أن يكون قارىء القرآن أن لاحظ كيف أنّ الآيات العشر الأوائل من سورة الكهف أنذرت هؤلاء المسيحيّين الذي أنبأ الله تعالى عن دورهم الثالث المعاصر بقوله تعالى : ﴿**ولتُنذر الذين قالوا اتّخذ الله ولداً.**﴾ كما أقسم جلّ شأنه متوعداً إياهم بقوله : ﴿**وإنّا لجاعلون ماعليها صعيداً جُرُزاً.**﴾ أي قدّرنا منذ الآن أن نعيد المناطق التي يقطنونها ﴿**صعيداً جُرُزاً**﴾، إن لم يعودوا ويتخلّوا عن عقيدة الشرك هذه، التي لم يوصهم بها المسيح عيسى ابن مريم، ولا حواريّوه أصحاب الكهف والرقيم الفتية الشباب الأسخياء الكرماء. الذين قضوا أيّام حياتهم يعبدون الله وحده ولايشركون به أحداً. معتبرين الشرك عقيدةً شططاً.

على هذه الصّورة تكون هذه الآية الكريمة : ﴿**وتحسبُهم أيقاظاً وهم رُقود، ونقلّبهم ذات اليمين وذات الشّمال، وكلبُهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد، لو اطّلعت عليهم لولّيت منهم فراراً ولَمُلئت منهم رُعبا**﴾ يكون تعالى قد أجمل فيها مايتعلّق بدور المسيحية المستقبلّي الثالث الذي يعقُب دور مايُسمونه العصور الوسطى المظلمة. والمعلوم هو أنّ الكاتب يجمل مايريد بحثه وكتابته، ومن ثم يعمد إلى تفصيل ماأجمله في كلامه. فمن هذا المُنطلق نُدرك أنّ الله جلّ شأنه راح بعد هذه الآية يفصّل ماأجمله فيها ويقول :

الآيتين ﴿ ١٩ - ٢٠ ﴾

﴿**وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ، قال قائلٌ منهم : كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم. قالوا ربّكم أعلم بما لبثتم، فابعثوا أحدكم بِوَرِقِكم هذه إلى المدينة، فلينظر أيّها أزكى**

طعاماً، فليأتكم برزقٍ منـه، وليتلطّـف، ولايُشـعرنّ بكـم أحـداً ۞ إنّهـم إن يظهـروا عليكـم يرجموكم أو يُعيدوكم في ملّتهم،ولن تُفلحوا إذاً أبداً﴾.

وقبل أن نحاول فهم هذه الآيات الكريمة التي تضمّنت تفصيل ماتضمنته الآية التي قبلها. أجد مـن واجبي التنبيـه إلى أنّ النبـوءات لا تـأتي أصـلاً بظـاهر ألفاظهـا، إنمـا بمعانيهـا المجازيـة، وإشاراتها. وأنبّه هنا إلى أننا لاينبغي لنا أن نقف عنـد دلالات مايتبـادر إلى أذهاننـا مـن ألفـاظ هذه الآيات ، ذلك لأن القرآن الكريم هو بحر معارف زخار لاتُعرف لـه حـدود.وقـد استعمل الحقيقة والمجاز. وأنبّه أيضاً إلى ضرورة الإلتزام بأصول التّفسـير وأسـس فهـم كتـاب الله القـرآن الكريم. فمن تلـك الأصـول محاولـة فهـم الاشـارات والـدلالات التاريخية للآيـات علـى ضـوء المعطيات التاريخية نفسها المتعلقة بها هذه الدلالات وهذه الإشـارات، وهكـذا دواليـك في كـل موضوع تتطرّق إليه آية من الآيات.

وأنا أُلزم نفسي عند شرح هذه الآيات التي تتكلّم عن تاريخ المسيحيّين بمعطيات تـاريخ المسيحيين أنفسهم ، خاصـة منـه مـاأعقب العصـور المسـيحية الوسـطى المظلمـة. وإنّ كـلّ مـن يتصدّى لتفسير هذه الآيات من غير منطلقي هذا، لابُدّ أن يزيغ نظره عن الحقيقة الـتي أشـارت إليها هذه الآيات القرآنية، لمخالفته لأصول تفسير القرآن وهو الأمر الذي وقع فيه المفـسرّون الأقدمون. هذا خصوصاً وأنّ الله جلّ شأنه نبّه بدءاً من كلامـه عـن تـاريخ المسـيحيين بقولـه : **﴿أم حسبت أنّ أصحاب الكهف والرّقيم كانوا من آياتنا عجباً.﴾** أي لاينبغـي للقـارىء أن يعتبر أصحاب الكهف أعجوبة من الأعاجيب. وهو أمرٌ سبق أن وضّحناه وذكرنا هناك أن قصة أصحاب الكهف تُجلّي قصّة الفتية الشباب الأسـخياء الكرمـاء الموحّديـن مـن حواريي المسيح الذين اضطهدوا وظلموا بسبب عقيدتهم هذه من أهل روما وحكومتها في غابر الزمان.

وعلى أساسٍ من هـذا التّسلسـل الموضوعـي المرتبـط بـالإنذار الإلهي الموجّـه إلى الأمـم الغربيّة المعاصرة ضمن قوله تعالى : **﴿وينذر الذين اتخـذوا لله ولـداً﴾** والقسـم بـأنّهم إن ظلّـوا على عقيدتهم المنحرفة هذه، فسيجعل الله أرضهم **﴿صعيـداً جـرزاً﴾**. أقـول انطلاقـاً مـن هـذا التسلسل الموضوعي ، أنطلق لشرح هذه الآيات العظيمة الدلالات.

فقد أتى جل شأنه في مستهلّ هــذه الآيـات بكلمـة ﴿وكذلـك﴾. ولايـأتي الله تعـالى بكلمةٍ ولاحرفٍ إلا بدلالاتها الحقيقيّة. فلننظر فيما قاله أصحاب المعـاجم. قـال صـاحب محيـط المحيـط :(كذلـك : الكـاف كـاف التشـبيه. وذا للإشـارة. والـلاّم لام البعـد والكـاف كــاف الخطاب.). ونتساءل ماهي حكمة الجمع بين هذه الأحـرف ذات الـدلالات الـتي لاحظناهـا في هذا المقام ؟ والتي جُمعت على كلمة (كذلك). فالمعلوم أنّه جلّ شأنه لايُلقي بكلامه جُزافاً بـلا حكمة ولا دلالة.

والحقيقة أنّ كاف التشـبيه في (كذلك) أوردها تعالى تنبيهاً لذهن القـارىء أنّـه لايـزال يتكلّم عن المسيحيين الذين انحرفوا عقائدياً زمن العصور الوسطى عن توحيد الله تعالى، ووقعــوا في الشرك واتخذوا لله ولداً، وانقسموا من جرّاء ذلك إلى دولٍ ومذاهب يُعادي بعضها بعضهـا الآخر. أي على هذه الشاكلة إما حرف (ذا) في (كذلك) فقد أوردها جلّ شأنه إشارة منـه عـز وجلّ إلى الدور المسيحي المستقبلي الذي أجمل الله تعالى الكلام عنه في الآية السابقة.

وأمّا حرف (اللاّم) من (كذلك) الدّالة على البعد، فقد أورده جـلّ شـأنه خطابـاً وتنبيهـاً لذهـن القارىء إلى البعد الزمني المستقبلي الـذي سـيبلغه هـؤلاء المسـيحيون في المسـتقبل. وأمّـا حـرف (الكاف) من (كذلك) وهو حرف خطاب. فقــد أورده الله جـلّ شـأنه تنبيهـاً لأذهـان رسـوله والمؤمنين إلى الخطر الكــامن وراء دور نهضـة المسـيحيين المسـتقبليّة المُشـار إليهـا. أي أنّ الخطـر الحقيقي الذي سيتهدّدهم في المستقبل سيأتي من جانب هؤلاء المسيحيّن الغربيين المشــار إليهـم في هذه الآيات والذين يأتون بعد مضي دور زمن القرون الوسطى . وهم الذيـن سمّـاهم رسـول الله ﷺ بالمسيح الدّجال وحذّر المسلمين من أخطارهم المتوقّعــة. وللأسـف أقـول : إن مفكـريّ الاسلام ومفسّريهم فهموا قول رسول الله ﷺ على ظاهره كما فهموا هذه الآيات الكريمة علـى ظواهرها، فلم يفهموا مراميها لذلك آل أمرهــم أخـيراً إلى ماصـاروا إليـه مـن تخلّـف وانحطـاط وفهمٍ سطحيّ لآيات القرآن الكريم.

وهو جل شأنه لم يقل (كذلك) وحسب بل أدخل عليها واو العطف وقال (وكذلك). فلماذا ؟ ليعطف لنا مضمون هذه الآيات على الآية التي أجملت ماجاءت هذه الآيات تفصلّه.

ولايغُرّنا أنّ الآيات صيغت بصيغة الزمن الماضي. ذلك أنّ القرآن الكريم يمتاز بهذا الأسلوب البياني فهو يصيغ بالماضي ويريد المستقبل ليفيد معنى الجزم والأمثلة على ذلك لاتُحصى في كتاب الله عز وجلّ. هذا وإن سياق الآيات قرينة على أنها وردت تنبىء عن الزمن المستقبل يقيناً.

قوله تعالى ﴿**بعثناهم**﴾ يعني بدأنا دورهم المُستقبلي، أي بعثنا فيهم روح النهضة من جديد بعد زوال زمن القرون الوسطى المظلمة بدليل اللاّم في (ليتساءلوا) التي تفيد الطّلب. فاللاّم على حسب ماورد في (محيط المحيط) ثلاثة أقسام : عاملة للجرّ، وعاملة للجزم، وغير عاملة. واستعملت هنا في (ليتساءلوا) عاملة للجزم وبمعنى الطّلب إشعاراً منه جلّ شأنه للقارىء أنّ مشيئة الله قرّرت أن يبدأ دور المسيحيّين المستقبلي المذكور. فهذه هي دلالة ﴿ **بعثناهم ليتساءلوا** ﴾ وليس أنّهم كانوا أمواتاً فأحييناهم فالألفاظ بدلالاتها المجازية .

وأضاف تعالى يقول ﴿**ليتساءلوا بينهم**﴾. وفعل يتساءلوا من سأل : بمعنى طلب واستدعى واستخبر لعدم تعدّي هذا الفعل هنا إلى مفعولين. وقد ورد في الكليّات : السؤال للمعرفة قد يكون تارة للاستعلام وتارة للتّبكيت، وتارة لتعريف المسؤول عنه وتبينّه. فمعنى (ليتساءلوا) : إذن ليعرفوا بعد أن يستخبروا عن الحقيقة.أمّا الجار والمجرور (بينهم) فكلمة تنصيف وتشريك. ومن حقهّا أن تُضاف إلى أكثر من واحد. على حد قول اللغويّين. فإذا أضيفت كلمة (بين) إلى الواحد، وجب أن يُعطف عليه بالواو. فنقول : المال بين زيد وعمرو ولم يورد النّص هذه الواو في هذا المقام (١).

ويصبح معنى ﴿ **ليتساءلوا بينهم** ﴾ أي أنّ مشيئة الله عز وجل تجلّت في ضرورة أن ينهض المسيحيّون من تخلّفهم، فيتدارسوا أحوال أمتّهم وأسباب تخلّفها وليصحّحوا مسارها.

---

(١)- محيط المحيط.

ولكن ماذا فعل هؤلاء بعد نهضتم التي مثّلت مشيئتنا لصالحهم؟ الجواب هوماستنبىء عنه مـابعد هذه الألفاظ من آيات.

وقبل الانتقال إلى مابعد (وليتساءلوا بينهم). أذكّرمجدّداً بضرورة الإلتزام هنا بأصل مـن أصول تفسير القرآن الكريم وهو ضرورة مراجعة تاريخ عصر نهضـة أوربـة الحديثـة ومعطياتـه بسبب أن الإنباء متعلّقٌ بتـاريخهم المعـاصر في هـذا المقـام. ذلـك أنّ الأمـور التاريخيـة الـواردة في كتاب الله تعالى ينبغي عند محاولة فهمها الرجوع إلى معطيات التاريخ المتعلّق بها وفهمها بمنظار الأسلوب العلمـي النـاقد للتـاريخ لأن نتنـاول العبـارات منقطعـة عـن سياقها الموضوعـي وعـن مُعطياتها التاريخية على شاكلة مافعله المفسرون الأقدمون.

وهذا الأمر دفعني لأستعرض هنا وبإيجاز تام حوادث ومجريات الأمـور الـتي تحققـت في سنوات فجر عصر نهضة أوربة فأقول : من المعلوم تاريخيّاً أنّ النُخبة من علماء أوربة اصطدمـوا في أول أمرهم بما توارثوه من عقائد وبما للكنيسة عليهم من سلطان، وانتهى الصّـراع الـذي دار بينهم وبين الكنيسة إلى محاولة انسلاخهم عن سلطان الكنيسة والبابويـة. ومـن ثـم تحقـق علـى أيديهم اكتشاف الآلة والبخار واستعمالاته. فازدهرت صناعاتهم، وتولّد عنهـا طبقـة رأسمـاليّين مُستغلّين هيمنوا على رجال السّياسـة وأخضعوهـم لمصـالحهم المادّيـة. وبالتـالي فلـم يعـد يكفـي مصانعهم مافي بلادهم من موادّ أولّية. لذلك تحولّوا يتدارسون مُعضلاتهم وتطلّعوا إلى اسـتخبار أحوال جغرافية الدّول الأخرى ومااحتوته من خيرات. وكانت للهند شُهرتها في العالم أنّها بـلاد التّوابل والخيرات والكنوز. فتساءلوا بينهم وتحاوروا وتدارسوا الطريق إلى استطلاع أحوال بـلاد الهند. وأرسلت كبرى شركاتهم مندوبهـا إلى خليـج البنغـال مـن الهنـد، وعلـى ظهـر قطعٍ مـن الأسطول البخاريّ الذي أنجزوا تصنيعه وكُتبت لهم السيطرة على البحار بسببه، هــذا الأسـطول البخاريّ الذي وردت تسميته في النبوءات المتعلقة بظهور المسـيح الدّجـال باسـم حمـار الدّجـال طوله سبعون ذراعاً ويخرج من أسته نار بسبب أنه يسير على البخار. وصوتُه يدوي في الخـافقين بسبب الصنارة البخارية التي اخترعوها وركّبوها على ظهره.

وقد حمّل هؤلاء مندوب شركتهم أموالاً طائلة ليُغروا بها حاكم البنغال وليسمح لهم بتأسيس فرع لشركتهم هناك. وقد أفلحوا في تخطيطهم المذكور وأسّسوا مصنعاً لهم في مدينة (سورت).وتحقّق لهم إيجاد أوّل موطىء قدم لهم في الهند. وقد ثبت تاريخيّاً أنّ مخططهم السّري هذا كان يرمي إلى أكثر من تأسيس مصنع بكثير. فقد خطّطوا لرمي وُلاة الهند بعضهم بالبعض الآخر، وبالتالي استعمار الهند بصورة تدريجيّة، ومن ثم تنصير أهلها لتُصبح الهند تابعة للتاج البريطاني إلى يوم الدّين. وعلى ضوء هذه المعلومات التاريخيّة من تاريخ المسيحيين المعاصرين ندرك دلالة وإشارة قوله تعالى ﴿**وليتساءلوا بينهم**﴾. فقد تضمّنت هذه الجملة إذا قلّبناها على أوجهها، إشارات إلى المخططات الاستعمارية التي اتخذها المستعمرون الأوربيون سرّاً في مجالسهم النيّابية ومؤتمراتهم الاقتصادية في تلك الحُقبة من الزمان. فهذا هو المعنى الذي نتوصّل إليه إن نحن حاولنا تفسير جملة ﴿ **وليتساءلوا بينهم** ﴾ على ضوء المعطيات التاريخية ووفقاً لأصول التّفسير لهذا الكتاب الفرقان العظيم. وعلى ضوء التّسلسل الموضوعي الوارد في سورة الكهف.

والآن نتابع تفسير الآيات الكريمة. فقد أضاف الله جل شأنه قائلاً يفضح مااتخذه الغربيون زمن فجر نهضتهم من مخطّطات وقرارات : ﴿**قال قائلٌ منهم : كم لبثتُم ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم. قالوا ربكّم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بوَرِقكم هذه إلى المدينة، فلينظر أيُّها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه..**﴾.

لنلاحظ أنّه جلّ شأنه لم يُعط أهميّة لذكر الرأس المدّبر من هؤلاء المسيحيّن والذي رجَحَت اقتراحاته لديهم. الأمر الذي يدل عليه إيتاؤه صيغة المجهول ﴿ **قال قائلٌ منهم** ﴾ لكنّه تعالى نوّن لفظ قائل ، إشارة منه تعالى إلى ترجيح من كان معه من المتشاورين والمتآمرين، لرأيه في نهاية المطاف .

قال .. كم لبثُم ؟ أي كم لبثتم على هذه الحال من التخلّف والإنحطاط ؟ وهذا تساؤل من طرف المتآمرين بلسان حالهم . إشارةً إلى أنّ المسيحيّين فكروا أولاً في إعادة النّظر في العقائد

التي توارثوها وضرورة إجراء تجديد عليها معتبرين إياها أحد أسباب تخلّفهم الرئيسية. ﴿**قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم.**﴾ وبلسان حالهم أيضاً .

ولنتذكر هنا أنّ التساؤل : (كم لبثتم) لايعني كم بقيتم ، بل هي محاورة عربية، واستعملها القرآن الكريم في مواضع أخرى من سور كتابه العزيز حيث قال الله تعالى في سورة المؤمنون : ﴿**كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين.**﴾ فهذه محاورة القصد منها أنّهم يقولون مكثنا مدّة مديدة وحسب. ولذلك أضافوا قولهم ﴿**فاسأل العادّين**﴾. أي لا يستطيع تحديد المدّة إلاّ المختصّون بإحصائها.

وهو جلَّ شأنه لجأ إلى هذه المحاورة الكلامية في هذا المقام، ذلك أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضا بمعنى أنّ المسيحيين اختلفوا منذ فجر نهضتهم في موضوع تقييم ماضي أمّتهم و لم يصلوا إلى نتيجة. لذلك أعرضوا عن تلك الدراسات على اعتبار أنّهم لاحظوا أنّها تزيدهم انقساماً وانحطاطاً. لذلك تركوا هذا الأمر على الله يكشفه على حينه. وعبّروا عن يأسهم ذاك أن ﴿**قالوا ربُّكم أعلم بما لبثتم**﴾ أي دعونا من تقييم تلك المدّة الزمنية وتحديدها . واتجهّوا إتجّاها آخر لترقية أحوالهم، وهو أن يلتزموا بنهج علمّيٍ علماني في حياتهم اليومية. وأن تكون أوّل خطواتهم محاولة تأمين المواد الأولية اللازمة لصناعاتهم، وفتح أسواقٍ جديدة لتصريف مُنتجاتها. فماذا فعلوا بعد أن تحوّلوا هذا التّحول في تفكيرهم وتخطيطهم لرفع مستوى أمّتهم؟أنبأنا جل شأنه عن تلك الخطوة من خلال جملة : ﴿**فابعثوا أحدكم بورِقِكم هذه إلى المدينة**﴾.

وأتمهلّ هنا قليلاً، قبل أن أتابع هذا الشرح والتفسير. لألقي الضوء أكثر فأكثر على دلالة ﴿ **وليتساءلوا بينهم..**﴾ ومابعدها من جُملات خشية أن يظنّ ظانٌّ أنّي أُحمّل الآيات أكثر مما تحتمله من دلالات. وأعمد إلى تفسير ذلك بالقرآن انطلاقاً من أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً.

أقول : إذا أردنا أن نفسّر هذه الآية، فلا بدّ أن نجد تفسيرها فيما بعدها من سورٍ وليس قبلها لعلاقتها بتاريخ المسيحيّة وتطُّوره. فسورة الكهف خُصّصت أصلاً لهذا المقصد، وإن

سورة مريم ألقت الضوء على الرجالات والنساء الذين حاولوا أن يجدّدوا تعاليم موسى عليه السّلام اشعاراً منه تعالى للمسيحيين بانحرافهم عن خطّ التّجديد المذكور. ومن ثم أتت سورة طه لتبيان عظمة محمد سيد المرسلين ﷺ والتي استهلّها جل شأنه بقوله تعالى :﴿**طه ۞ ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى ۞ إلاّ تذكرةً لمن يخشى**﴾ فالشقاوة ضدّ السّعادة. والتذكرة ماتُستذكر به الحاجة (محيط المحيط). والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر مايكون ذلك عن علمٍ ممّا يُخشى منه (١) ويكون معنى الآيتين السابقتين والمخاطب طه بمعنى أيّها الرجل الكامل الصّفات والمؤهلات(٢)، التي تؤهلك لتلقّي شريعة كاملة التعاليم. من غير المعقول أن نُنزل عليك هذا الكتاب الموصوف بالقرآن بمعنى أنّه كتاب سيطبع ويصبح في متناول أيدي الناس يتلونه صباح مساء. فمن غير المعقول أنّها حين تتحقّق هذه النبوءة المُضمرة في إسمه الوصفي (القرآن)، وذلك بعد بزوغ عصر الطباعة في العالم، من غير المعقول أن ندعَكَ تشقى وتذهب سعادتك من جرّاء تخلّف أمتّك وهيمنة القوم الذين اتخذوا لله ولداً على العالم وعلى أمتّك أيضاً. وها أننا نورد في هذه السّورة مايستذكر به عند الحاجة إليه في المستقبل عند ظهور الخطر هذا الدّاهم المذكور، أي عند الخشية من زوال مابعثتك لتقوم به وتنجزه. خصوصاً وأنّك تعظّم ربّك ولاتُشرك به أحداً.

وبعد أن استهلّ جلّ شأنه سورة (طه) بهذا الاستهلال، استعرض تاريخ بني اسرائيل الطويل وعرّج على الانحراف الذي أصابهم على أيدي السّامري الذي أعادهم إلى الشرك وعبادة العجل وقال :﴿**انظر إلى إلهك الذي ظلْت عليه عاكفاً، لنحرّقنّه ثم لننسفنّه في اليّم نسفاً ۞ إنّما إلهكم الله الذي لا إله إلاّ هو وسِع كُلّ شيءٍ علماً.**﴾ وعرّج بعدها على ذكر المسيحيين الذين أصابهم من الإنحراف عن توحيد الله ماأصاب بني اسرائيل على أيدي السّامري. وابتدأ ذلك بقوله تعالى : ﴿**كذلك نقصُّ عليك من أنباء ماقد سبق** ـ والخطاب لايزال موجّهاً إلى رسول الله (طه) العظيم ـ **وقد آتيناك من لُدنّا ذكراً**﴾ أي كتاباً يرفع من

(١)- مفردات الراغب.

(٢) - فن الاختزال في القرآن الكريم للمولف نفسه.

شأن الذين يؤمنون بالله وبهذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الذكرومن ثمّ توجّه جلّ شأنه يُنذر هؤلاء المسيحيين المنحرفين الذين اتّخذوا لله ولداً، وقال :﴿**من أعرض عنه** ـ أي عن هذا الذكّر وصاحبه ـ **فإنّه يحمل يوم القيامة وزراً.**﴾ والمقصود من القيامة هنا هو ما وضّحته في كتابي (فن الاختزال في القرآن الكريم) من أنّه اصطلاح اصطلحه القرآن الكريم لدور البعثة الثانية للإسلام.بدليل أنّه جل شأنه أتبع ذلك بقوله : ﴿**خالدين فيه، وساء لهم يوم القيامة حملاً**﴾. فيوم القيامة الثاني هو يوم الحساب الأكبر يوم النشور من الأجداث. فالمقصود أنّ انحراف المسيحيين المشار إليه سيجرّ عليهم الويل في الدنيا والآخرة. وشاء تعالى أن يأتي بعلامةٍ فارقةٍ تفرّق هذه الأقوام المسيحية عن غيرها وقال : ﴿**يوم يُنفخ في الصّور ونحشر المجرمين يومئذٍ زرقاً.**﴾ إشارة منه تعالى إلى الأمم الغربية المعاصرة زُرق العيون. ومن ثم راح جلّ شأنه يزيد القارىء ايضاحاً لما قال وليربطه بالموضوع الذي بحثته سورة الكهف، من خلال قوله : ﴿ **ليتساءلوا بينهم** ﴾، قال بحقّهم :﴿ **يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً نحن أعلم بما يقولون، إذ يقول أمثلهم طريقةً، إن لبثتم إلا يوماً** ﴾. فهو جلّ شأنه فسّر ﴿**وليتساءلوا بينهم**﴾ بقوله : ﴿**يتخافتون بينهم**﴾ أي يتهامسون ويخطّطون للقيام بخطوات إجرامية. ولاينطبق فعل (يتخافتون) على فتية الكهف الذين ماكانوا يخشون شيئاً على اعتبار أن كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد وهم في فجوة من الكهف لايسمع محاورتهم إنسان خارجه ثم إنّ التسلسل الموضوعي للآية يفرض أن نفهم من ﴿ **إن لبثم إلاّ عشراً**﴾ دلالة على عشرة قرون بعد ظهور الاسلام. إشارة إلى قرون العصور الوسطى المُظلمة. وأكّد تعالى هذه الحقيقة حين أضاف قوله تعالى : ﴿**نحن أعلم بما يقولون، إذ يقول أمثلهم طريقة : إن لبثتم إلا يوماً.**﴾ أي ألف سنة ممّا تعدون.

والآن لاحظوا أن ولادة رسول الله ﷺ على حسب ماأوردها المستشرق(وليم ميور) في كتابه (حياة محمد) حدثت عام (٥٧٠) ميلادية. فإذا أضيف إليها أربعين عاماً وهو العام الذي ابتدأ رسول الله ﷺ يتلّقى فيه الوحي القرآني ، نصل إلى العام (٦١٠) ميلادية. فإذا أضفنا لهذا التاريخ مدّة الألف عام التي أشارت إليها جملة: ﴿ **إن لبثتم إلاّ يوماً**﴾ يصبح التاريخ

(١٦١١) م.وهو نفس تاريخ ﴿**وليتساءلوا بينهم**﴾ أو ﴿**يتخافتون بينهم**﴾ الذي هو زمن فجر النهضة الغربية، وهو التاريخ الذي أسس فيه الانكليز أول مصنع لهم في مدينة (سورت) من مدن خليج البنغال في الهند. وهو التاريخ الذي ذكرته دائرة المعارف البريطانية حول ذلك أيضاً.

فهذه سورة طه تفسّر ماورد في سورة الكهف. تفسّر ﴿**وليتساءلوا بينهم**﴾ بـ﴿**يتخافتون بينهم** ﴾ بمعنى أن التّساؤل المقصود، قُصد به ماسيدّبر المسيحيّون ضدّ الشعوب غيرهم من خطط ومؤامرات يدبرونها سّراً في الخفاء. وعليه فأنا لا أُحمّل الآيات الكريمة أكثر من دلالتها، بل وإنّ الذي يراجع (فنّ الاختزال في القرآن الكريم) سيجد فيه مزيداً من الأدلّة على ماذكرته.

أعود الآن إلى الجُملة التي توقّفت عند تفسيرها وهي قوله تعالى وبلسان حال هؤلاء المسيحيين عند فجر نهضتهم ولأشرح الخطوة التي خطوها تنفيذاً منهم لما تآمروا به وخطّطوا له سّراً، قال: ﴿ **فابعثوا أحدكم بوِرِقكم هـذه إلى المدينة** ﴾. ولفظ المدينة ورد مُعرّفاً بالألف واللاّم العهدية اشارة إلى مدينة (سورت) الواقعة على ساحل خليج البنغال هذه المدينة التي أوردت ذكرها يوم استعرضت تاريخ ماحدث في بدء عصر نهضة أوربة الحديث بإيجاز. أي أرسلوا مندوباً عنكم يحمل كثيراً من هذه العُملة التي هي بين أيديكم إلى حاكم مدينة (سورت) هذا (لتعريف لفظ المدينة بالألف واللاّم) لترشونه وتُغْرونه بها ليسمح لكم باستملاك أرضٍ هناك تكون لكم موطىء قدم لتنفيذ مخطّطاتكم. وهكذا و نتيجة لخطوة اولئك المتآمرين نجحوا في تأسيس أول مصنع هناك عام (١٦١٢) م.

وأضاف تعالى يقول ﴿ **فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزقٍ منه** ﴾.إنّ قوله تعالى ﴿ **فلينظر** ﴾ اشتقّ من نظر إليه تأمله بعينيه . ونظر في الشيء تدبّره وفكّر فيه يقدّره ويقيس ومنه في سورة (يس~) : ﴿ **ماينظرون إلاّ صيحةً واحدة..**﴾ أي ماينتظرون. وإن دلالات فلينظر تختلف عن دلالة فليذُق، هذا الفعل الأصلح استعمالاً في هذا المقام لو كان المقصود بألفاظ الآية الكريمة البحث عن الطعام الأجود..ثم إنه تعالى قال: ﴿**أيُّها أزكى طعاماً**﴾ وأزكى تعني أيّها أصلح وتُناسب الحال.وطعاماً من الطّعام وهو اسمٌ لما يؤكل، إنّما غلب إطلاقه

على القمح أي على البرّ من الحبوب ثم إنّ الرزق من قوله ﴿ **برزقٍ منه** ﴾ لايشـير إلى الطعـام خاصّة، بل إلى كلّ ماينتفع به (١). وبذلك يصبح معنى ﴿ **فلينظر أيّها أزكى طعامـاً**﴾ أي ليتدبّـر أحوال تلك البلاد ويفكّر في أمرها ويقدّر ويقيس مانريد أن يحصل عليه بـالنظر إلى واقعنـا وهـو أننا نستورد الحبوب من دول البحر الأبيض المتوسّط في ذاك الزّمان . ﴿ **فلينظـر** ﴾ أي ليوافينـا بدراسة موضوعيـة مضمونهـا هـل أن استيرادنا الحبـوب مـن الهنـد أصلـح وأنسـب لأحوالنـا الاقتصادية وأنفع جدوىً و مردوداً علينا.

ثم أضاف : ﴿**وليتلطّف**﴾ من تلّطف بفلان : احتال لـه متـى اطّلـع علـى أسـراره (٢) والمقصود من وليتلطّف إذن أن يخفي مقاصده ويحتال على أهل الهند وحكوماتها، ليجري هـذه الدراسة التي كلفتّه شركته بها والتي أرسـلته إلى الهنـد بـأموال كثـيرةٍ لتنفيـذ مخططـاتهم السـرّية باحتيال وخفاء. فلـو كـان المقصـود بقولـه (وليتلطّـف) جلـب الطعـام، فمـا كـان يصلـح هـذا الفعل(ليتلطف) ليُعبّر به عن هذه المهمة.

ثم إن قوله : ﴿**ولايُشعرنّ بكم أحداً**﴾ من شعر به أي علم به وفطن له وعَقَلَهُ وأحسّ به (٣) . و هذا الفعل (ولايشعرنّ)، لايصلح للتعبير به عن جلب الطعام أيضاً. فالذي يذهب لجلب طعام يستحيل عليـه أن يتخفّـى إلى هـذا الحـدّ فـلا يفطـن البـائع لوجـوده.

وعليه فإن ألفاظ : ﴿**ولايُشعرنّ بكم أحداً..**﴾ تؤكّد المعنى الذي ذهبت إليه. وهو أنّ مسيحي أوربة أسّسوا مصنعهم في مدينة (سورت) من خليج البنغـال، ليتّخذونـه سـتاراً يخفـون وراءه مخططاتهم السّرية التي خططّوا لها فيما بينهـم سـرّاً في بلادهـم، بقصـد التوسـع واسـتعمار الهند لتؤمّن لهم المواد الأولية اللازمة لمصانعهم من جهة ولتصبح الهند بعد اسـتعمارها والسـيطرة عليها سوقاً واسعةً لتصريف منتجات مصـانعهم. فهـذا هـو ماأنبـأ الله تعـالى عنـه هنـا في هـذه الآيات الكريمة من خلال وقبل أربعة عشر قرناً من الزمان.

---

(١)- أقرب الموارد.

(٢)- نفس المصدر.

(٣)- نفس المصدر.

وراح تعالى يؤكد المعاني التي ذكرناها ويقول : **﴿إنّهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملّتهم، ولن تُفلحوا إذاً أبداً.﴾**. ففعل (يظهروا) من ظهر عليه غلبه. وظهر فلانٌ على سرّه : اطّلع عليه (١). وفعل (يرجموكم) من رَجَمه : رماه بالحجارة، قتله، قذفه، لعنه، شتمه. رجم القبر : علّمه. رجم الرجل تكلّم بالظن. جاء يرجم : إذا مرّ وهو يضطرم في عدوه (٢).

ويكون المعنى أنّ المسيحيّن خطّطوا وتآمروا بهذه السّرية التامة لإدراكهم أنّهم لن يحققّوا مقاصدهم البعيدة إلا بهذا الأسلوب وهو القيام بخطوات لتنفيذ ماخطّطوا للقيام به في هذا المجال. مع الملاحظة أن جملة [يعيدوكم في ملّتهم] الملّة من أمليت الكتاب. ثم نُقلت الكلمة إلى أصول الشرائع باعتبار أنها يُمليها النبيّ. لذلك تعني الشريعة والدّين (٣). والمعلوم أنّ المسيحيّن يشكّلون فرعاً من اليهودية ومن وثنيّ الرومان الذين آمنوا وليس من مجوس الهند فكيف نفهم [يعيدوكم في ملّتهم] ولايكون أصلهم من المجوس؟ فالمقصود هو إن افتضح أمركم يرفعون عنكم حصانتكم التي حصلتم عليها، من جرّاء شرائكم الأرض في مدينة (سورت) وتأسيسكم مصنعاً لكم هناك على تلك الأرض، ويطبّقون عليكم بالتالي حينذاك ماتنصّ عليه شرائعهم ضد المتآمرين المعتدين. وبذلك تفشل مُخططاتنا التي خططنا لها جميعنا ونفشل ولايعود أمامنا إلا العودة عن تنفيذ تلك المخططات لذلك أضاف تعالى قوله **﴿ ولن تفلحوا إذاً أبداً.﴾**.

ألا إنّ قوله تعالى : **﴿ولن تفلحوا إذاً أبداً﴾** لايُعقل أن يشير إلى أخطارٍ تتهدّد طعام هؤلاء، بل يشير إلى موضوع أخطر وهو خطر افتضاح مخططات المستعمرين الغربية السرّية خصوصاً وأن دلالة قوله **﴿يظهروا عليكم﴾** يعني لغةً يغلبونكم، وليس معناه لا يعلموا بوجودكم المعنى هذا الذي ذهب إليه ذهن المفسرين القدماء خطأ. وأضاف الله جل شأنه يقول:

---

(١)- أقرب الموارد.

(٢)- نفس المصدر.

(٣)- نفس المصدر.

الآية ﴿٢١﴾

﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أنّ وعد اللّه حقّ، وأنّ السّاعة لاريب فيها، إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بُنياناً ، ربّهم أعلم بهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذنّ عليهم مسجداً ﴾

أي أنّه جلّ شأنه بعدما انتهى من فضح مُخطّطات هؤلاء الأوربيين المسيحيين. عاد فأتى بكلمة (كذلك) لتفعل نفس مفعول كذلك التي أتى بها من قبل في مستهل الآية **﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم﴾** والتي أشار من خلالها إلى مشيئة الله وارادته وهو أن يشرع بالظّهور دورٌ مسيحيّ ثالث. فهو تعالى أشار من جديد هنا إلى أنّ مشيئته اقتضت أن يفضح مخططّات هؤلاء المسيحيّين ، ويُطلع شعوب الأرض على ماخفي منها. وإجابةً على سؤال يطرح نفسه هنا وهو : لماذا قدّر ذلك؟ أجاب جل شأنه على هذا السؤال يقول : إن الله تعالى قدّره في عالم غيبه **﴿ليعلموا أنّ وعد الله حقّ وأنّ الساعة لاريب فيها..﴾**.أي لتعلم هذه الأمم الغربية المستعمرة أنّ ماتوعّدهم الله تعالى به في أوّل سورة الكهف من خلال قوله : **﴿وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً جُرُزاً.﴾** هو وعيد حقٌّ صادقٌ. علماً بأنّ الوعد هنا ورد بمعنى الوعيد بدليل سياق الكلام الموضوعي. ذلك أنّ صاحب محيط المحيط وضّح لنا أنّ الوعد إن كان للخير، فمصدره وعداً وعدة. أما إذا كان للشرّ فمصدره وعيداً.

وأضاف تعالى يقول : **﴿وأنّ السّاعة لاريب فيها﴾** فالساعة هي الوقت القليل من الليل أو النهار (١) والمعنى أن الوقت الذي حددّناه لإهلاك هؤلاء الغربيّين لاشكّ فيه ولاريب. فهو أمرٌ مقدّرٌ ومحتوم وواقع لامحالة فساعة هلاكهم آتيةٌ لاشكّ فيها ولاريب في نهاية المطاف .

ثم راح تعالى ينبئنا عمّا حدث خلال سنوات بدء عصر نهضة أوربة المسيحيّة الحديثة بدليل إشارة الوقف هنا والتي تعني بدء أمرٍ جديد، قال :

---

(١)- أقرب الموارد.

﴿إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بُنياناً ربُّهم اعلم بهم، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخّذنّ عليهم مسجداً﴾.

وبما أنّ الأمر الجديد يعود إلى ماضي هؤلاء وزمن بدء عصر نهضتهم فقد أتى جل شأنه بحرف (إذ) الدّال على الماضي، وشرع ببيان علامةٍ امتاز بها هؤلاء المستعمرون وتفرّقُهم عن سواهم من الأمم وهذه العلامة هي أنّهم راحوا فقرّروا إقامة كنائس على قبور قدّيسيهم المشهورين تخليداً لذكراهم. فكلمة مسجداً في **﴿لنتخذن عليهم مسجداً﴾** على حسب ماأورد صاحب أقرب الموارد، هو الموضع الذي يُتعبّد فيه ويُسجد فيه لله تعالى. وقيل إن المسجد بالكسر اسم لموضع العبادة يُسجد فيه أو لم يُسجد.وهو جل شأنه صوّر لنا في كلماته هذه أنّ المسيحيين انقسموا على أنفسهم في بدء نهضتهم، فيما هو واجب عليهم عمله تجاه قدّيسهم. وانتهى قرارهم إلى ماذكرناه.

فلّما انتهى جل شأنه ممّا شاء بيانه من تاريخ المسيحيّين. عرّج صوب المسلمين الذين خوطبوا أصلاً في هذه الآيات الكريمة، فأنبأ بشأنهم أنّهم بالرغم من تحذيره اياهم من خلال قوله : **﴿أم حسبت أنّ أصحاب الكهف والرّقيم كانوا من آياتنا عجباً.﴾** ألاّ تحسبوا أصحاب الكهف والرقيم أعجوبة من الأعاجيب .

فقد ذهب ذهن مفسريّهم إلى أن فتية الكهف كانوا إحدى الأعاجيب. و لم يقفوا عند هذا الحدّ من الزّيغ عن حقائق هذه القصّة بل سيغوصون في مستنقع جدالٍ لاطائل تحته، وعبّر عن ذلك بقوله:

الآية ﴿٢٢﴾

﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم، رجماً بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم، قل ربيّ أعلم بعدّتهم، مايعلمهم إلا قليل، فلا تُمار فيهم إلاّ مراءً ظاهراً، ولاتستفتِ فيهم منهم أحداً.﴾.

مُبتدئاً الآية بالسّين التي تختص بالفعل المضارع وتحوّل معناه إلى الزمن المستقبل. على اعتبار أنّ السّين حرف توسيع على حسب مايقوله اللغويّون، فهي تنقل الزمن المضارع المحدود

الضيّق، إلى الزمن المستقبل الواسع. ونتساءل بالبداهة: ماحكمة ذلك؟ وحكمته على حسب فهمي هو الإشارة إلى ماسبق أن ذكرت. من أنّ المسلمين لن يكتفوا أن عدّو قصّة أهل الكهف أعجوبة، بل ليشير بذلك إلى أنّهم سيخوضون في بحث كم هو عدد الفتية ورجماً بالغيب. والرّجم بالغيب معناه أن يتكلّم المرء بالظنّ، ولايسعى لمعرفة حقيقة الأشياء.فهؤلاء المسلمون سيخوضون في أمور لايملكون عليها دليل، بالظنّ واستناداً إلى روايات وأقاويل لاطائل تحتها. فمنهم من سيزعم أنّ فتية الكهف كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. ومنهم من سيزعم أنّهم كانوا خمسة وسادسهم كلبهم، ومنهم من سيزعم أنهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم. ﴿**قل ربيّ أعلم بعدّتهم، مايعلمهم إلاّ قليل.**﴾. فهذه نبوءة متعلّقة بحال المسلمين ومفسريّهم خاصة، وقد تحققّت هذه النبوءة بكل جلاء. وكي لا أكون مُتجنيّاً عليهم، أنقل للقارىء ماكتبه ابن كثير حول تفسير هذه الآية بالذات حيث قال : (يقول الله مُخبراً عن اختلاف النّاس في عدّة أصحاب الكهف. فحكى ثلاثة أقوال، فدلّ على أنّه لاقائل برابع. ولّما ضعّف القولين الأولّين بقوله ﴿**رجماً بالغيب**﴾ أي قولاً بلا علم كمن يرمي إلى مكانٍ لايعرفه، فإنّه لايكاد يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد. ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرّره بقوله : ﴿ **وثامنهم كلبهم** ﴾ فدلّ على صحّته. وإنه في الواقع في نفس الأمر. وقوله : [قل ربيّ أعلم بعدّتهم] إرشادٌ إلى الأحسن في مثل هذا المقام ردُّ العلم إلى الله تعالى. إذا لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم. لكن إذا اطّلعنا على أمرٍ قُلنا به، وإلاّ وقفنا. وقوله : [مايعلمهم إلاّ قليل] أي من النّاس. قال قتادة، قال ابن عبّاس : أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجلّ، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جرير عن عطاء الخراساني عن ابن عبّاس أنّه كان يقول : أنا ممّن استثنى الله عز وجل، ويقول : عدّتهم سبعة. وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشّار عبد الرحمن، حدّثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس [مايعلمهم إلاّ قليل] قال أنا من القليل، كانوا سبعة. فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدّمناه.)(١).

(١)- تفسير ابن كثير- الجزء الثالث - الصفحة ٧٨ .

ولم يقف ابن كثير عند حدّ تأييد أنّ فتية الكهف كانوا سبعة، بل ونقل أسماءهم واسم كلبهم أنّه كان يسمى (حمران)، وأضاف : (وفي تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلبهم نظر في صحّته والله أعلم. فإنّ غالب ذلك مُتلقّى من أهل الكتاب.).

لابدّ أن لاحظ القارىء أن ما خدع ابن كثير هو جملة ﴿**رجماً بالغيب**﴾قبل قوله تعالى: ﴿**ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم.**﴾فلم ينتبه إلى الواو العاطفة في [ويقولون] فهي عطفت هذا الجزء على ذاك الكلّ، لذلك لاعبرة إن قُدّمَت عليها جُملة [رجماً بالغيب] أو أُخّرت عنها. فابن كثير وقد خدعه هذا التّقديم لجملة [رجماً بالغيب] اندفع يلتقط الرّوايات التي أوردها عن ابن عبّاس. تلك الروايات المخالفة لمضمون الآية الكريمة نفسها والتي لايُستبعد أن اختلقها الرّواة أنفسهم ونسبوها إلى ابن عباسٍ بلا مبرّر.ألا إنّ كلام الله واضحٌ لالبس فيه. فهو جلّ شأنه حسم الموضوع بقوله تعالى : ﴿**قل ربيّ أعلم بعدّتهم**﴾ وهو تعالى حين أضاف قوله : ﴿**مايعلمهم إلا قليل** ﴾. فقد أعقب إضافته تلك إشارة وقف الحكمة منها أن ينهى جل شأنه عن الخوض في عدد فتية الكهف، وإشارة في الوقت نفسه إلى أنّ القبائل التي هاجمت روما ونهبت آثار الكهف، أضاعت تاريخ فتية الكهف الذين كانوا يرقُمون تاريخهم على جدرانه ، لذلك فلا يطلّع على حقيقتهم إلاّ نفرٌ قليل من الباحثين والمحققين. فهذه هي دلالة إشارة الوقف الواردة بعد ﴿ **مايعلمهم إلاّ قليل** ﴾.

لهذا السّبب بعينه راح تعالى يأمر بعد ذلك ويقول : ﴿**فلا تُمارِ فيهم إلاّ مراءً ظاهراً، ولاتستفت فيهم منهم أحداً**﴾. وفعل تُمارِ من ماراه أي جادله ونازعه ولاجَّهُ وطعن في قوله تزييفاً للقول وتصغيراً له (١). ثم إنّ معنى [ولاتستفت] من استفتى فلان عالماً في مسألةٍ استفتاءً أي : سأله أن يفته فيها (٢). ومعنى ﴿**إلا مراءً ظاهراً**﴾فالظاهر اسم لكلام ظهر المراد منه للسّامع بنفس الصّيغة، ويكون محتملاً للتأويل والتخصيص (٣)

---

(١)- أقرب الموارد.

(٢)- نفس المصدر.

(٣)- محيط المحيط.

ويصبح معنى الآية الكريمة إيّاك أيّها المسلم أن تُجادل في عـدد هـؤلاء إلاّ مـراءً ظـاهراً أي إلاّ أن تحفظ هذه الآيات عن ظهر قلب مُعتقداً أنّها تحتمل التأويل والتخصيـص. وحـذار أن تستفت أحداً في أمر هؤلاء. على اعتبار أنّ الطريق الصحيـح إلى معرفـة حقيقـة هـؤلاء لايتـأتّى بالطريّقيين المذكورين. بل يتحقّق عن طريق البحث التاريخي وبأسلوبٍ علمي.

وانتقل جلّ شأنه من ذلك وبعد أن حذّر ممّا حذّره، فقال :

الآية ﴿٢٣﴾

﴿ولاتقولّن لشيءٍ إنيّ فاعل ذلك غداً﴾

والملاحظ أنّه لايُفهم مضمـون مـاتدلّ عليه هـذه الآيـة الكريمـة، إلاّ إذا ربطنـا معناهـا بسياقها وبالتسلسل الموضوعي للآيات. لكنّ المفسرين تجاهلوا هذا الرّبط بالتسلسـل الموضوعـي وحمّلوا الآية معنى لم تنزل لتؤديه . فابن كثير كتب في تفسيراً لهذه الآية وقال: (هذا إرشاد مـن الله لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يَرُدّ ذلك إلى مشيئة الله عز وجل علاّم الغيوب الذي يعلم ماكان ومايكون ومالم يكن لو كان كيف يكـون، كمـا يثبت في الصّحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنّه قال : "قال سليمان بن داوود عليهما السّلام : لأطوفنّ اللّيلة على سبعين امرأة - وفي رواية تسعين امرأة، وفي رواية مائة امـرأة ـ تلـد كلّ امرأة منهُنّ غلاماً يُقاتل في سبيل الله. فقيل له - وفي رواية قال له المَلَكْ - قـل إن شـاء الله. فلم يَقُل، فطاف بهنّ، فلم يلد منهُنّ إلا امرأة واحدة نِصْـفَ إنسـان ـ فقـال رسـول الله ﷺ : والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله، يحنـث وكـان دركـاً لحاجتـه. وفي روايـة : ولقـاتلوا في سبيل الله فرساناً اجمعون.)(١).فهل يستسيغ عقل القارىء قبول هذه الروايـات والأقـوال، إلاّ أن يكون خُرافيّاً؟

ألا إنّ من أصول تفسير القرآن الكريم مراعاة سـياق الكـلام وتسـلسـله الموضوعـي. وقد انبأ سياق هذه الآية الكريمة عن أنّ نهضة المسـيحيين خلال دورهم الثالث سيكون مُرعباً

(١)- تفسير ابن كثير- الجزء الثالث - الصفحة ٧٨ .

لتفوّقهم في القوة المادية التي تملأ نفس الناظر رُعباً وتسُخُّها فزعاً إلى حدّ الفرار. وهذا السيّاق اقتضى منه جل شأنه أنْ يهدي المسلمين إلى طريق الخلاص من سلطان وهيمنة هؤلاء المسيحيين.لذلك قال : ﴿ولاتقُولنّ لشيءٍ إنـي فاعلٌ ذلك غداً﴾ فقد أورد صاحب أقرب الموارد : أنّ الغد هو اليوم الذي يأتي بعد يومك على أثر، ثم توسّعوا في معنى الغد حتى أُطلق على البعيد المُترقّب. وكلمة (لشيءٍ)، الشيء مايصحّ أن يُعلم ويُخبر عنه، فيشمل الموجود المعدوم، ممكناً أو مُحالاً، قديماً أو حديثاً (1) واللام في لشيء للتبيين.

وتبعاً لمعاني الألفاظ، فالآية تحذّر المسلمين وتنهاهم عن أن يتصّدوا بالقوة إذا تهدّدهم هذا الخط من قبل المسيحيين الأوربيين في المستقبل، فلاينبغي في الزمن البعيد المُترقّب أن يقوم أحد المسلمين مُهدّداً ومتوعّداً أنّي فاعل غداً كذا وكذا. بل إنّ طريق خلاص المسلمين من فرعنة هؤلاء المذكورين، الذين اتخذوا لله ولداً، عبّر تعالى عنه بقوله :

الآية ﴿٢٤﴾

﴿ إلاّ أن يشاء الله، واذكر ربّك إذا نسيت، وقل عسى أن يهدين ربّي لأقرب من هذا رشداً ﴾.

فهو جلّ شأنه أتى بحرف إلاّ الذي يفيد الإستثناء. مُستثنياً مشيئة تعالى أي أن يترك المسلمون أمرهم يومئذٍ لمشيئة الله ربّهم أي أنّ من واجبهم يومئذٍ الاعتماد على الدعاء من الله تعالى لينزل عذابه الذي توعّد به هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً في الآيات الاوائل من سورة الكهف . منوّها بذلك إلى أنه لن يكون للمسلمين يومئذٍ حولاً ولاقوّة للتصدّي لهؤلاء الغربيين المستعمرين.

وأضاف تعالى يقول : ﴿**واذكر ربّك إذا نسيت**﴾ أي واذكر أيّها المسلم الصادق في إسلامه أنّك مشمول برعاية ربك، وهو الذي حذّرك في الآيات العشر الأوائل من هذه السورة من خطر فتنة هذا المسيح الدّجال. فإن أنت نسيت ذلك، وتوجهت تتهدّد هؤلاء وتتوعدهم دون النظر إلى ربك ومشيئته ، تحرم نفسك يومئذٍ من رعاية هذه الربوبيّة. لذلك فمن واجبك

(1)- محيط المحيط.

تذكّر ربك ومشيئته وتقديمها على مشيئتك في تلك الأيام.

وأضاف : ﴿**وقل عسى أن يهدين ربّي لأقرب من هذا رشداً**﴾ أي وليكن حُسن ظنك بربك عظيماً فهو القادر على أن يهديك طريق الاستقامة على طريق الحقّ ويثبّتك عليه ويمكنك أخيراً ويرشدك إلى طريق الانتصار على هذا المسيح الدّجال.

وهكذا يكون الله جل شأنه قد قدّم للمسلمين الذين يعاصرون هذا المسيح الدّجال أقول قدّم وصفة الدّواء النّاجع للنّجاة من خطره. فلّما أكمل الله عز وجل وصفة الخلاص هذه التي تقي من شرور يومئذٍ، عاود الكلام عن أصحاب الكهف من أجل تحديد المدّة التي مكثها المسيحيون الأولون المضطهدون في الكهف، الذي لجؤوا إليه وقال :

الآية ﴿٢٥﴾

﴿**ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً.**﴾

ونتوقّف قليلاً عند هذه المُدّة. ذلك أن كُتُب المسيّحيين التاريخية تحدّد زمن تنصر القيصر قسطنطين عام (٣٣٧)م، فهذا ماأوردته دائرة المعارف البريطانية(١).وهذا التاريخ يُخالف في ظاهره هذا التاريخ الذي حدّدته هذه الآية الكريمة. فبين التاريخين فارق ثمان وعشرون عاماً. ولايكفي أن نقول وفقاً لمعتقدنا أنّنا نقدّم الطّرح القرآني على سواه هكذا بلادليل ولأبُدّ أن يكون لهذا الفارق من مبرّر.

والحقيقة أنّه ورد في كتاب علم التاريخ لمؤلفه (آرج يشب إسكرز) وكتاب ديلي مائيل الستريشنز لمؤلّفه (كيتّو **Kitto**) هذا الكاتب الذي عرّج في كتابة على حادثة صلب المسيح الناصري. فهذان الكاتبان نبّها إلى خطأ، وقع فيه المؤرّخون المسيحيون أنفسهم، معلنين خطأ تاريخ (٣٣٧) م وأنّ الصحيح في نظرهما هو أنّ قسطنطين تنصّر عام (٣٠٩)م. و إنّ هذا الخطأ المذكور حدث عام (٥٢٧)م. وبفارق خمس سنوات. ذلك على اعتبار أن المسيح الناصري كان عمره يتراوح مابين أربع إلى ست سنوات نسبة لبدء التاريخ المسيحي. الأمر الذي يستدعي حذف متوسّط هذه المدّة وهي خمس سنوات فإذا علمنا أنّ عمر المسيح الناصري

(١)- ورد ذلك في الجزء الخامس على الصفحة ٦٧٦ .

حين عرضت له حادثة صلبه كان في الثالثة والثلاثين من عمره. توجّب بالتالي حذف مدة السنوات الخمس الخطأ من هذه السنوات ويعود الرقم يساوي ثمان وعشرون فهذا الرقم (٢٨) ينبغي حذفه من تاريخ (٣٣٧) م المقرّر عام تنصرّ قسطنطين، ويعود التاريخ بالتّالي (٣٠٩)م وهو عام تنصّر هذا الإمبراطور. وهكذا فقد ظهر من الكُتّاب والمؤرخين المسيحيين محققون بحثوا هذا الأمر وتوصلوا إلى نفس الرّقم الذي حدّده القرآن العظيم وهو ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً.

ولابدّ للقارىء أن يتساءل هنا : لماذا لم يأت الله عز وجلّ على ذكر مدّة مكوثِ هؤلاء في كهفهم أثر انتهائه من الكلام عن الدور الأوّل للمسيحيّين؟ ولماذا أخّر تحديد هذه المدة إلى هذا المقام بالذّات؟

وفي الجواب أقول وعلى حسب فهمي وادراكي : قد أجّل جّل شأنه تحديد ذلك إلى هذا المقام و بعد أن حذّر المسلمين من محاولة التّصدي بالقوة لهؤلاء، وبعد أن أوصاهم بضرورة الرّجوع إلى ربّهم ومشيئة يسألونه العون والتأييد في هذا المجال. أجّل الله تعالى ذلك ليُذكّر المسلمين بواجبهم وهو أنّ عليهم أن يصبروا هم أيضاً مدّة طويلة معتقدين أنّ الفرج قريب، وأنّ ربّهم لابدّ أن يعمد لإنقاذهم من شرور هؤلاء. وبعد أن حدّد جلّ شأنه هذه المدّة، وبهذه الحكمة وهذه الدلالة، أضاف يقول:

الآية ﴿٢٦﴾

﴿قل الله أعلم بما لبثوا، له غيب السموات والأرض، أبصر به وأسمع، مالهم من دونه وليٍّ ولايُشرك في حُكمه أحداً﴾

ومراده من **﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾** هو الإشارة إلىأنّ هؤلاء المسيحيين سيخطئون في تحديد مدّة دورهم الأول .فتحدّاهم الله بعلمه الغيبي الآنف الذكر وليحث على البحث عن نواحي خطئهم الذي وقعوا فيه ليثبت من خلال ذلك أنّ الله هو الذي يعلم غيب السموات والأرض لأنّه خالقها. هذا المعنى ذهبت إليه بدلالة اللاّم الذي أدخلها جلّ شأنه على **﴿ له غيب السموات والأرض ﴾** والمعنى أن مايغيب عن أبصار وسمع هؤلاء لايغيب عن أبصار وسمع الله الذي خلقهم. لذلك أبصر به وأسمع أي مجدّ بصر ربّك وسمعه . وأعجب بهذا الرّب السّميع

البصير، الذي يستحيل أن يجد أحدٌ له وليّاً ونصيراً من دونه وعلى مستواه، فهو الإله الذي لايحتاج إلى نُوّاب يساعدونه ولا إلى وزراء يُعينونه . على شاكلة مايحتاجه الحُكّام الدنيويّون فهو الله كذلك ﴿ولايشرك في حكمه أحداً.﴾على اعتبار أنه الحاكم الحقيقي لهذا العالم القدير العليم السّميع البصير. وعلى هذا الأساس أضاف قائلاً :

الآية ﴿٢٧﴾
﴿واتل مأأوحي إليك من كتابِ ربّك، لامُبدّل لكلماته، ولن تجد من دونه مُلتحَداً.﴾

أي ثابر أيها الرسول على تلاوة بمعنى قراءة مأأوحي إليك من ربّك من جزء هذا الكتاب. علماً بأنّ التّلاوة مختصّة بالقرآن الكريم. ومعتقداً أنّه [لامبدّل لكلماته] .و(لكلماته) جمع كلمة بلغة أهل الحجاز وهي تُعلن للمخاطب مراد المتكلّم. أي أنّ كلماتنا التي قررناها بحقّ هؤلاء المسيحيين هي قدر محتوم لاتبديل فيه ولذلك أتى تعالىبإشارة وقف عند (لكلماته) أيضاً ولهذا الوقف دلالته وهو أنّه لاحاجة لمراجعة ماقررناه وذكرناه، على اعتبار أن جميع ذلك صدر عن السّميع البصير علام الغيوب الذي لايشرك في حكمه أحداً.

وقد أضاف جلّ شأنه على ذلك قوله : ﴿ **ولن تجد من دونه مُلتحداً** ﴾. والملتحد معناه الملجأ (١) .أي وانّنا حين ننزل بهؤلاء المسيحيين الجبابرة الظالمين عذابنا الذي توعدناهم به، فلن يجدوا لأنفسهم يومذاك من دون الله ملجأً يأويهم ويصونهم من ويلاته.

وهنا توجه الله جل شأنه إلى كل مؤمن يُصدّق بكلمات الله وبوعيده ويعمل على وصاياه المتعلّقة بزمن ظهور هؤلاء المسيحيين، من أجل أن يوضّح له طريق سلامته من شرور يومئذٍ قال :

الآية ﴿ ٢٨ ﴾
﴿ واصبر نفسك مع الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ، يريدون وجهه ولاتَعْدُ عيناك عنهم، تريد زينة الحياة الّدنيا، ولاتُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا، واتّبع هواه، وكان أمره فُرُطاً﴾.

(١)- أقرب الموارد.

مُستهلاً جلّ شأنه توجيهه وإرشاده بكلمة [واصبر] من صبر فلاناً أكرهه وألزمه حِلْفَه الذي ينتمي إليه أو قتله صبراً (١) أي أكره نفسك أن تلتزم جانب طائفة المؤمنين بهذه الكلمات، الّذين لايتهدّدون ولايتوعّدون عدوّهم، بل يلتزمون جانب الدّعاء .والتضرّع بين يدي ربّهم ليخلّصهم من شرور يومئذٍ. الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي أي مابين صلاة الفجر أثر طلوع الشمس وآخر النهار. فهذه الطائفة من المؤمنين بكلمات الله التي ذكرناها إنّما يدعون ربّهم صباح مساء ليدفع الله تعالى عنهم شرور يومئذٍ.ولماذا يفعلون ذلك؟ لأنهم [يريدون وجهه]. والإرادة مصدر يريدون ومعناها نزوع النّفس وميلها إلى العقل بدافع اعتقادٍ وأملٍ بنفع. وقد ورد في الكلّيات : الإرادة في الأصل قوةٌ مركبّةٌ من شهوةٍ وحاجةٍ وأمل. ثم جُعلت اسماً لنزوع النّفس إلى الشيء مع الحكُم فيه أنّه ينبغي أن يُفعل أو أن لايُفعل. وتستعمل الإرادة بمعنى القول (٢).

ثم إن كلمة (وجهه) من الوجه وهو مُستقبل كل شيء، وهو أوّل مايبدو للنّاظر من البدن. والوجه يُقصد به أيضاً نفس الشيء، ومن الدّهر أوّله، ومن النجم مابدا لك منه، ومن الكلام السّبيل المقصود. ثم إنّ الوجه يُطلق على سيّد القوم ويجمع على وجوه يقال هؤلاء وجوه القوم. أي سادتهم وأعيانهم (٣) . وورد في أقرب الموارد الوجه : هو الجهة ومايتوجه إليه الإنسان من عملٍ وغيره، كما يطلق على القصد والنيّة والمرضاة. ويصبح معنى ﴿**يريدون وجهه**﴾ أن طائفة المؤمنين هذه يضعون ربّهم على مكانته في أمر حلّ مثل هذه المُعضلات فلا يتصرّفون تبعاً لاجتهاداتهم الشخصية وعنعناتهم النفسيّة ، بل ينزعون إلى ربّهم يدعونه صباح مساء لعلّه يتعطّف عليهم من عليائه، وهو سيّد الكون كله وحاكمه الذي لايشرك في حكمه أحداً، ليسارع لنجدتهم ودرء هذا الخطر عنهم.

وأضاف جلّ شأنه موصياً المؤمن : ﴿**ولاتعدُ عيناك عنهم تريدون زينة الحياة الدّنيا**﴾

---

(١)- محيط المحيط.

(٢)- نفس المصدر.

وكلمة (لاتعدُ) من عدا يعدو عدواً. تقول : عَدا فلاناً عن الأمر إذا صرفه وشغله عنه. وغدا الأمر وعن الأمر : جاوزه وتركه (١) .ويصبح معنى هذه الوصيّة أي التزم جانب هذه الطّائفة من المؤمنين، ولاتنصرف ولاتُشغل نفسك بما يُبعدك عنهم. فإن لم تفعل ذلك وتأخذ بهذا النّصح الإلهي، فأنت أيها المسلم تكون حينئذ ممّن تغرّه زينة الحياة الدنيا وزخرفها. وهؤلاء الذّين تغرُّهم زينة الحياة الدنيا، هم الغافلون عن طلب رضا ربّهم لذا **﴿ولاتُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه﴾**. والهوى هو إرادة النّفس والعشق ويكون في الخير وفي الشرّ، ثم غلب على غير المحمود (٢). أي أنّ الذي يميل إلى زينة الحياة الدنيا وزخرفها، يكون عاشقاً للمادّة ومندفعاً وراء تحصيلها اندفاع العاشق وراء معشوقته وإن مثل هذا الإنسان نطبع على قلبه فيغفل عن ذكرنا أي يغفل عن نشر دعوتنا بالوسائل والوصايا التي وصّيناه بها آنفاً، ويعمد إلى نشر دعوة الإسلام بالقوّة والعنف على حسب مايدفعه إليه هواه. وإنّ هذا النّوع من المسلمين [وكان أمره فُرُطاً] وفُرُطاً معناه اسرافاً وتضييعاً (٣) أي مُسرفاً في انتهاج العنف وحبّ زينة الحياة الدنيا ويُضيع بذلك حياته وجهوده بلا طائل ولا جدوى.

ولْيُلاحظ القارىء أن الله عز وجل، ومن خلال مضمون هذه الآية الكريمة يكون قد قيّم لنا حال مسلمي عصرنا هؤلاء الذين يمثّلون عصر تخلّف الأمة وانحطاطها ولايفهمون مضمون سورة الكهف إلاّ من منظار مافسّره لهم ابن كثير وسواه لذلك نلاحظ أنّ الله تعالى ابتلاهم وفقاً لمضمون هذه الآية الكريمة بثلاث أمراض رئيسية : الأول منها غفلتهم عن العبادات وخواصها وفلسفتها وعن جني ثمارها. والمرض الثاني هو ميلهم إلى زينة الحياة الدنيا وحطامها من الأموال المادية . والثالث انغماسهم في تحصيل لذّات ومسرّات أنفسهم ، وغفلتهم عن الدعوة إلى سبيل الله بوجهها الذي نبهّت إليه هذه الآيات الآنفة الذكر.

---

(١)- أقرب الموارد.

(٢)- نفس المصدر.

(٣)- أقرب الموارد.

فلمّا انتهى جل شأنه من توضيح سبيل خـلاص المؤمن الـذي يقيـه شرّ وطغيـان هـذا الدّور المسيحي الذي أنبـأ عنـه ، أضـاف الله تعـالى ينصـح وروح الشـفقة والتّسـامح يعتصـران كلامه وقال :

الآية ﴿٢٩﴾

﴿وقل الحقّ من ربّكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، إنّا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادقها، وإن يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمُهل يشوي الوجوه، بئس الشّراب وساءت مُرتفقاً.﴾

قال : **﴿وقل الحقّ من ربّكم﴾**وأتبعه بإشارة وقف أي بلّغ هذا الوحي وهذه الوصايـا الـتي فيهـا خلاص المسلمين من محنتهم وليعلموا أنّه الحـقّ أي أنـه الصـدق والكـلام الثـابت والعـدل. هـذه خلاصة ماينبغي لهم أن يعلموه.

وأصاف : **﴿فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر﴾** بمعنى أن الأمر عاد يَخُصُّ الواحدَ منكم إن شاء اعتبر بماذكرناه وأوصيناه به حقّاً، وإن شاء كفر بما قلناه، وبالتـالي يتحمـّل هـذا المسلم المنكر لوحيتنا هذه تَبِعَةَ إنكاره. إنّما عليه أن يعلم أنّ تبعة انكاره سـتجرّ عليـه الويـلات، ونشمله بالعذاب الذي سنُنزله بهؤلاء المُنذرين المذكورين : وأضـاف جـل شـأنه يصـف ماهيّاً لهؤلاء الذين قالوا اتخذ الله ولداً من عذاب وقال:**﴿إنّا أعتدنا للظّالمين ناراً أحاط بهم سُـرادقها ، وإن يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمُهل يشـوي الوجوه بئس الشّراب وساءت مُرتفقاً.﴾** أعتدنا : هيّأنا. السُّرادق : الفسـطاط الذي يُمدّ فـوق صِحـن البيـت، والغبـار السـّاطع، والدّخـان المرتفع المحيط بالشيء (١). والمُهل إسم يجمع معدنيات الجواهر كالفضة والحديد ونحوها والقطران والجمر والسمّ والقيح، وماذاب من نحاس أو حديد (٢) أمـا المُرتفـق : مـن ارتفـق الرجـل طلـب رفيقاً، استعان، اتّكأ على مرفق وقيل على مخّده ـ ارتفق الإناء: امتلأ. ارتفـق القـوم : ترافقـوا في سفر والمرتفق اسم مفعول بمعنى المُتكّأ (٣) .والمعنى أنّ المسلم الذي يكفر بهذا الحقّ الذي بيّناه،

(١)- أقرب الموارد.

(٢)- أقرب الموارد ومحيط المحيط.

(٣)- أقرب الموارد.

ليعلم أننا هيّأنا لهؤلاء الظالمين من المسيحيين الذين سيسعون إلى بسط نفوذهم على شعوب الأرض ظلماً وتجاوزاً وهم على ماهم عليه من اتخاذ المسيح إبناًلله مُهملين العمل على وصايا المسيح الناصري نفسها، أي أننا هيّأنا لهؤلاء الذين سمّاهم رسولنا الكريم المسيح الدّجال وحذّر أمته من فتنتهم، هيأنا لهم ﴿**ناراً أحاط بهم سُرادقها**﴾ وهذا الوصف يشير إلى حربٍ ذريّة قادمة تحيطهم بنارها وغبارها السّاطع ودخانها المرتفع من كل جانب. وهذه النّار التي سيحيط بهم سُرادقها سيدفعهم يطلبون العون ويستغيثون. يقول الله تعالى : ﴿**وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، بئس الشراب وساءت مرتفقاً.**﴾ أي أنهم لن يجدوا لهم أحداً ينصرهم ويغيثهم ويعينهم على الخروج من مُصابهم. والله عز وجلّ، وهو الذي قدّر لهم هذه النهاية سيغيثهم بماءٍ كالمُهل أي بمطرٍ ساخنٍ مشتملٍ على رماد جمر هذه المعدنيَّات التي سيتلظّون بها بحيث ﴿ **يشوي الوجوه**﴾ والوجوه ورد مُعرّفاً بلالف واللاّم والمقصودبالوجوه زعماءهم السيّاسيين خاصة الذين تسببّوا لأمتّهم بهذا البلاء. ﴿ **بئس الشراب وساءت مرتفقاً**﴾ أي سينقلب هذا المطر عليهم يزيدهم بلاءً وويلاً، فلا يفيدهم في تخفيف مُصابهم، بل سيزيدهم مُصاباً على مُصاب، ويكون ﴿**بئس الشراب وساءت مرتفقاً**﴾.

فلّما يصل القارىء إلى هذا الحدّ من الإحاطة بما كان وبما سيكون، يتساءل بداهةً : وماذا أعدّ الله تعالى لطائفة المؤمنين التي أشار إليها من إنعامٍ وجزاء؟وقد أجاب الله عزّ وجلّ على هذا السؤال العفوي ، وقال :

الآية ﴿٣٠﴾

﴿ **إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، إنّا لانُضيع أجر من أحسن عملاً.**﴾

أجاب الله ذو الجلال المطّلع على السّرائر، أجاب على هذا الصّوت الذي ستلهج به أفئدة الذين آمنوا بكلمات الله المذكورة آنفاً والمتضّمنة نصائح ربّهم ووصاياه التي أوصاهم أن يتمسكّوا بها ليعصمهم من فتنة المسيح الدّجال المُنبأ عن ظهوره. أجابهم بقوله تعالى : إن الذين آمنوا بكلماتي هذه و لم يقفوا عند هذا الحدّ. بل وعملوا الصالحات وكانت أعمالهم تتسّم بصلاحيّتها هذه المرحلة من تاريخ دعوة الإسلام : ﴿**إنّا لانُضيع أجر من أحسن عملاً.**﴾ مستعملاً ضمير

جمع المتكلّم (إنّا) إشعاراً منه عزّ وجل لهؤلاء المؤمنين أنه هو الحاكم الحقيقي لهذا الكون. فلم يقل أنا لاأضيع، بل قال ﴿ **إنّا لانُضيع أجر من أحسن عملاً.**﴾ أي أنّ النعماء التي سننعمها على الفريق المؤمن ستشكلّ هذه إحدى ظواهر عظمة حكومتنا السّماوية.

وتطمئن أفئدة المؤمنين لهذه الإجابة وهذا الوعد. وتروح تتساءل أيضاً أن ياربّنا : وهل تتواضع وتزيدنا علماً عن هذا الأجر الذي وعدتنا به ولتطمئن به قلوبنا. فلا يبخل عليهم ربّهم بالإجابة على سؤالهم، ويتوسّع في شرحه ويقول :

الآية ﴿٣١﴾

﴿ **أولئك لهم جنّاتُ عدنٍ تجري من تحتهم الأنهار، يُحلُّون فيها من أساور من ذهبٍ، ويَلْبَسون ثياباً خُضراً من سُندسٍ واستبرق، مُتكّئين فيها على الأرائك، نِعْم الثّواب وحَسُنتْ مرتفقاً.**﴾

ولنُلاحظ بادىء ذي بدْء أنّه جل شأنه أنهى هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿**وحسنت مُرتفقاً**﴾ هذا في مقابل ماأنْهى به آية العذاب، من قبل بقوله : ﴿**وساءت مُرتفقاً**﴾ وهذه التّذييلات للآيات أوردها ليشير من خلالها إلى أن العذاب الذي أنذر به الأمم المسيحية الغربية سيقع في هذه الدّنيا لامحالة، وإلى أنّ النَعماء التي يَعِدُ بها المؤمنين ستتحقّق في هذه الدّنيا أيضاً لامحالة. وليس هذا وذاك من قبيل العذاب والنّعماء الأخرويين. ذلك أنّ ماأعدّ الله لعباده المؤمنين في الآخرة تختلف ماهيّته عن ذلك ووُصفت بما لاعين رأت ولاأُذُن سَمِعت، ولاخطر على قلب بشر.

نعود للكلام عمّا أعدّ الرحمن للمؤمنين فقد قال : ﴿**أولئك لهم جناتُ عَدْنٍ تجري من تحتهم الأنهار**﴾. ولفظ جنّات جمع جنّة. والجنّة لُغةً كل بستانٍ ذي شجرٍ يستر باشجاره الأرض. وقد تُسمى الأشجار السّاترة جنّة. وسُميّت الجنّة الاخروية جنّةً إما تشبيها لها بالجنّة في الأرض وإن كان بينهُما بونٌ، وإمّا لستره تعالى نعمتها عند المُشار إليه في قوله : ﴿**فلا تعلم نفسٌ ماأُخفي لهم من قُرّة أعين.**﴾ (١).

---

(١)- مفردات الراغب.

وهو تعالى قال ﴿**لهم جنات**﴾. فلو كان الأمر مُتعلقاً بالعالم الآخر لكان قال ﴿**جنة عرضها كعرض السّموات والأرض**﴾ وليس جنّات. وهو جلّ شأنه يقصد بلفظ (جنّات عدن) هنا الإشارة إلى ممالك وأقطار هؤلاء المسيحيّين التي هي جنّات تجري من تحتها الأنهار، فهو جلّ شأنه يعد المؤمنين أنّه يورّثهم ممالك هؤلاء بعد أن يُنزل بأولئك العذاب الذي توعدهم وكأنّه تعالى قال إنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون ليعيدوا إعمارها بعد أن تعود من جرّاء العذاب صعيداً جُرُزاً. فالله عز وجلّ سيورث الذين يؤمنون بكلماته جنّات هؤلاء ويُعينهم على إعادة إعمارها، ويحقّق لهم فيها عيشة الطمأنينة والأمن والسّلام، وتصبح أرض هؤلاء (جنّات عدن لهم) وعدنٌ من عَدَنَ بالمكان : أقام به، وعَدَنَ بالبلد استوطنه (١) وهذه بشارة بأنّ بلاد هؤلاء ستصبح تابعة لسلطان المسلمين إلى أبد الآبدين إن شاء الله العزيز.

وأضاف جل شأنه يزيد المؤمنين أخباراً مُفرحة مبشّرة ويقول : ﴿**يحلّون فيها من أساورَ من ذهب**﴾ ويُحلّون أي يُلبسون. وأساور جمع سوار، وهو حليةٌ كالطوق تلبسه المرأة في زندها (١).

ونتساءل : وهل قُصد بهذه الألفاظ معانيها المُتبادرة للأذهان؟ الجواب هو أن الاسلام لم يسمح للرّجال بالتحلّي بُحلّي الذهب لأسباب اقتصادية لامجال للكلام عنها في هذا المقام. وإنّ عدم السّماح هذا يشكّل هنا قرينةً تمنع من أخذ هذه الألفاظ على معانيها المتبادرة للأذهان. فإذا تذكّرنا تاريخ فتح المسلمين لفارس وأنّ من الغنائم التي وقعت في أيدي المسلمين "سِوار كسرى". هذا السّوار الذي أهداه عمر بن الخطاب (رضي) لسُراقة وألبسه إياه تصديقاً لنبوءة رسول الله ﷺ التي قال فيها : مابالُك ياسُراقة لو أُلبست سِوار كسرى؟. إذا تذكّرنا هذه الحادثة، فهي تشير إلى أنّه كان من عادة الملوك التحلّي بسوارٍ ذهبّي يمتاز به عن رعيّته. فالسّوار قديماً كان يدلّ على المُلك. وعليه ففي قوله تعالى :﴿ **يُحلّون فيها من أساور من ذهب.**﴾ بشارة منه عز وجلّ لهؤلاء المؤمنين أنهم سيصبحون هم الحكّام في سلطنات وأقطار هؤلاء المُنذرين بالعذاب . فالألفاظ وردت مجازا واستعارة، أي تعود تحت امرتهم حكومات هؤلاء

(١)- محيط المحيط.

وبذلك يتجلّى للقارىء التسلسل الموضوعي للكلام الإلهي.

وأضاف جل شأنه يزيد المؤمنين تبشيراً ويقول : ﴿**ويُلبسون ثياباً خُضراً من سُندُسٍ واستبرق.**﴾ وخُضراً: من خُضّر لفلانٍ في الشيء : بورك له فيه. والسندس نسيج رقيق الديباج. وفي الكليّات : نمارق من حرير. واستبرق : الديباج الغليظ (١).

فما دام الله تعالى قد كنّى بالذهب عن الحكم والسُّلطان، فلابدّ أنّه أورد كلامه هذا بأسلوب الكناية أيضاً.فما معنى : ﴿ **ويُلبَسون ثياباً خضراً** ﴾؟ المعلوم أنّ الثياب تُلبس لستر العورات. ويكون تعالى كنّى بهذه الألفاظ وأشار إلى النّظام الإجتماعي الذي يستر عورات ونقائص الأفراد . فعلى قدر كماله، على قَدَرِ ماتكون الأمّة في حالة استقرار وأمان وعروج. فالنظام الاجتماعي وقوانينه إنّما سُنّتْ أصلاً لتحقيق هذه الغاية السّاميّة. فإذا أضفنا إلى ذلك دلالة (خُضراً) من خُضّر لفلانٍ في الشيء معناه : بورك له فيه، يصبح معنى ﴿**ويُلبسون ثياباً خُضراً**﴾ أي ويعين ويوفّق الله هؤلاء المؤمنين إلىإقامة نظام اجتماعي قائم على أسس قانونية مثاليّة ﴿**من سندسٍ واستبرق**﴾ أي بقوانين وسطاً مابين القوانين الرأسمالية التي سنّها الذين قبلهم ومابين القوانين الاشتراكية التي كانت تنافسهم.أي أنّ هذه القوانين تتصف من جانب بمنتهى اللّين (سندس) كما تتصّف من جانبٍ آخر بمنتهى الشّدة استبرق وحسب الضرورات. فإلى هذه المزايا أشار قوله تعالى ﴿**من سندس واستبرق**﴾. فالحرير يلذُّ ملمسه للألبسة. والإستبرق غليظ الملمس.وقد كُنّي بالسندس والاستبرق عمّا ذكرناه. وبألفاظٍ أُخرى فإن هذه الآية الكريمة تُبشّر المؤمنين بنظام عالمي جديد يؤسسونه على أسسٍ تقيم العدالة والمساواة وتحقق الطّمأنينة والسلام في العالم إثر هلاك هؤلاء الظالمين . وعلينا أن نعلم أنّ الله تعالى أتى بهذه البشارات بأسلوب الكنايات على اعتبار أنها نُبوءات غيبية سماوية. والنّبوءات لاتأتي صريحة الألفاظ بل بكنايات وإشارات.

فهو جلّ شأنه لم يكتف بما أنبأ عنه، بل وأضاف : ﴿ **مُتكئين فيها على الأرائك** ﴾

(١)- أقرب الموارد ومحيط المحيط.

والأرائك هي الأسرّة المُنجّدة المُزّينه (١) ولايتكىء الإنسان على الأسرة إلاّ إذا عمد إلى الراحة.وفي هذه الألفاظ كناية عن أن المؤمنين سيتخلّصون ممّا أثاره المسيح الدجّال من فتنٍ وحروب في العالم، ويعمدون من خلال نظامهم الجديد إلى الرّاحة ممّا عانوه من قبل على عهده.

وقد أضاف جل شأنه قوله : ﴿**نعم الثّواب، وحسُنَت مُرتَفَقاً.**﴾ فأتى بفعل (نعم) وهو من أفعال المدح وللمبالغة في المدح. فلو قلت : نعم الرجل زيد، معناه أنّه لو فُضّل الرّجال رجلاً رجلاً، فَضَلَ عليهم زيد. أمّا الثواب في اللغة معناه مُطلق الجزاء على الأعمال خيراً أو شرّاً. قيل وإنّما سُمّي الجزاء ثواباً لأنّ المُحسن يثوب إليه. والثّواب أيضاً العسل والنّحل (٢). ومعنى ﴿**نعم الثّواب**﴾ أنّك أيها المؤمن بكلماتنا إذا بحثت عن أجرٍ تتقاضاه في دنياك على إيمانك وحُسن عملك، فلا تجد من دون هذا العطاء الثّواب الذي ينتظرك وينتظر أجيالك القادمة أعظم من هذا العطاء وهذا الثّواب. فالله عز وجل إذ أتى بفعل (نِعْمَ) هنا أورده ليؤكّد أنّ ألفاظ أساور من ذهب ولباس سندس واستبرق إنّما أريد بها مايكُنّى بها عنه و لم ترد بمعانيها الحقيقية. وإلاّ فلا قيمة لتحلّي الإنسان بالذهب وسواه. فهذه الأشياء بمتناول الإنسان نفسه.

أما قوله تعالى ﴿**وحسُنت مُرتفقاً**﴾ فللإشارة إلى أنّ هذا العطاء سيُرافق المؤمنين بكلمات الله ويدوم إلى يوم الدّين. فلا يعود يُنزع عنهم ذلك العطاء.

على هذه الصورة يكون الله جلّ شأنه قد أعطانا صورة زاهرةً عن مُستقبل البعثة الإسلامية الثانية والتي ستقوم حكومتها على أنقاض أملاك ودول الذين اتخذوا لله ولداً. هؤلاء الذّين لم يتعظوا بالانذار الموجّه إليهم من خلال قوله تعالى : ﴿**ويُنذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً.**﴾ وبعد أن فرغ الله عزّ وجلّ من ذلك راح يضرب لهؤلاء الأمثال لعلّهم يفهمون منها مالم يفهموه ممّا سبق من كلام، وقال :

(١)- أقرب الموارد.

(٢)- نفس المصدر.

الآية ﴿٣٢﴾

﴿ واضرب لهم مثلاً رجُلين جعلنا لأحدهما جنتّين من أعناب، وحفَفْناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً﴾.

فما دلالة : واضرب لهم مثلاً؟ علماً بأن الخطاب هُنا مُوجّه إلى محمّد رسول الله ﷺ الذي كلّفه ربّه بإنذار الذين اتخذوا لله ولداً. وهم من سمّاهم هذا الرّسول الكريم بالمسيح الدجّال في حديثه الشريف.

المَثَلُ : يعني الشّبه والنّظير والحُجّة. يُقال : ضرب له مثلاً أي قدّم له شبَهَاً ونظيراً وحُجّة(١). فمعنى **﴿واضرب لهم مثلاً﴾** أي قدّم أيها الرّسول لهؤلاء المسيحيّن تشبيهاً يكون حُجّة عليهم.

وماهذا المثل؟ **﴿رَجُلين جعلنا لأحدهما جنّتين﴾** إشارة إلى نهضة المسيحيين من بعد قسطنطين وهي جنتهم الأولى ونهضتهم المعاصرة، وهي جنتهم الثانية المُنذر أهلها في هذه الآيات الكريمة. والمقصود من (الرَّجُلين) اشارتهما إلى الطرف المسيحي والطرف الاسلامي.

وأضاف تعالى أن هاتين الجنتيّن مزروعة من اعناب. فما دلالة من أعناب في هذا المقام؟ وإنّ من واجبنا قبل أن نجيب على هذا السؤال أن نتذكّرأنّ الموضوع موضوع تشبيه وليست الأعناب هي المقصود.فلو رأى النائم عنباً يؤوّل العنب الذي رآه بدلالته على كثرة المال والولد. ثم إنّ العنب يُصنع منه الخمر الذي يُسكر ويُلهي صاحبه عن ذكر الله.

والذي يطالع الأناجيل يلاحظ أنّ المسيح الناصري ضرب لتلاميذه وأمّته مثال الكرم وأنبأ من خلاله عن مصير أمّته. فقد ورد في إنجيل مرقس(٢): (وأخذ ـ المسيح ـ يكلّمهم بالأمثال، قال : غَرَسَ رجلٌ كرماً فسيّجه، وحَفَر فيه معصرة، وبنى بُرجاً، وآجره بعض الكرّامين ثم سافر. فلّما حان وقت الثمر، أرسل خادماً إلى الكرّامين ليأخذ منهم نصيبه من ثمر الكرم. فأمسكوه وضربوه وأرجعوه فارغ اليدين. فأرسل إليهم خادماً آخر، وهذا أيضاً شجُّوا رأسه وأهانوه. فأرسل آخر، وهذا أيضاً قتلوه. ثم أرسل كثيرين غيرهم، فضربوا بعضهم

---

(١)- محيط المحيط .

(٢)- إنجيل مرقس ١٢/١-١٠.

وقتلوا بعضهم.فبقيَ عنده واحدٌ وهو ابنُه الحبيب. فأرسله إليهم آخر الأمر وقال : سيهابون إبني. فقال أولئك الكرّامون بعضهم لبعض : هو ذا الوارث هلّم نقتُلْه، فيكونَ الميراث لنا. فأمسكوه وقتلوه وألقوه في خارج الكرم. فما يفعلُ ربُّ الكرم ؟ يأتي ويُهلك الكرّامين، ويُعطي الكرم لآخرين. أوَمَا قرأتم : الحجر الذي رذّله البنّاؤون هو الذي صار رأسَ الزاوية من عند الربّ. كان ذلك وهو عجيبٌ في أعيُننا.). وهذا النصّ والمثل المقتبس من إنجيل مرقس يشير إلى ماذكره القرآن الكريم عن اليهود من أنهم يقتلون النبيين بغير حقّ. وفيه نبوءة أن المسلمين وهم المقصودين في هذا المثال بلفظ (الآخرين) سيرثوا هذه السلسلة الموسوية التي ابتدأت بموسى وانتهت بعيسى عليهما السلام.

يقول الله تعالى : ﴿**جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب**﴾ أي سمحنا لأحد الرّجلين أي لهؤلاء أن ينهضوا نهضتين ﴿**من أعناب**﴾ أي ويتكاثروا في الأموال والأولاد، وبدلاً من أن يشكروا ربّهم سكروا وغفلوا عن ذكره ووحدانيتّه. ﴿**وحففناهما بنخْل**﴾. وهنا يشبّه الله تعالى مالأتى هؤلاء من قوة وسلطان.

بالنّخيل فالمزارعون يحيطون مزارعهم بأشجار النّخيل لتحمي مزروعاتهم وتصدّ عنها الرّياح. وقد آتى الله تعالى المسيحيين في زمني نهضتهم جيوشاً جرارة تحمي ممالكهم وأقطارهم. ﴿**وجعلنا بينهما زرعاً**﴾ والزرع يشير إلى التوسّع في رقعة الأرض. والكلّ يعلم أن الاوربين هاجر كثير منهم واستوطنوا أمريكا واوستراليا وامتدت رقعة أرضهم إلى هناك. وهكذا يكون الله عز وجل قد ذكّر هؤلاء المسيحيين بما مدَّ لهم من عطاء لعلهم يرجعوا عن عقيدتهم ويوحّدوا الله ولايشركون به أحداً بعد أن أنذرهم القرآن المجيد لكنهم لم يفعلوا وصَدَقَ عليهم مَثَلُ الكرم الذي ضربه لهم المسيح الناصري والذي أوردناه آنفاً.وأضاف جل شأنه يقول :

الآية ﴿٣٣﴾

﴿كلتا الجنّتين آتت أكلُهَا، ولم تظلم منه شيئاً، وفجّرنا خلالهما نهراً.﴾

أي أن كلتا النهضتين أتت أكلُها، وماقتّر عليهم ربّهم خلالهما بشيء. تقول ظلمه حقّه أي

نقصه إيّاه (١) .يقول تعالى : وكل مافعلناه في فترة مابين زمني النّهضتين هو أننا فجّرنا خلالهما نهراً إشارة إلى نهر المعرفة الربّانية المتدفقة كنهرٍ جارٍ والذي تحقّق ببعثة محمد رسول الله ﷺ وإنزال القرآن المجيد، الذي أفادت تعاليمه في توضيح علم التوحيد الكامل ليتّعظ هؤلاء به ويعودوا عن اتّخاذهم لله ولداً فهذا هو المقصود من قوله تعالى : ﴿**وفجّرنا خلالهما نهراً**﴾ .

وليلاحظ القارىء أنّه جلّ شأنه لم يقل ﴿**ولم تظلما منه شيئاً**﴾ بصيغة التثنية مقابل الجنّتين. بل قال ﴿**ولم تظلم..**﴾ بصيغة الفرد. على شاكله ماقال (آتت) ولم يقل آتتا. وحكمة ذلك أن يُشعر الله تعالى القارىء بأن الجنّتين لرجل واحد وطرف واحد وهم المسيحيون أوّلاً وأخيراً. وأغضّ هنا الطّرف عن الجَدَل الذي دخله تفسير البيضاويّ الذي لم يفهم من الآيات الكريمة مافهمناه، ويكفي أن أقول إنني ذهبت في تعليل ذلك على مذهب الإمام البغدادي.

وبعدما نبّه جلّ شأنه إلى ظهور الإسلام الحنيف وكتابه القرآن الكريم مابين زمني النهضتين. والذي عبّر عنه بقوله تعالى : ﴿**وفجّرنا خلالهما نهراً**﴾ مُستعملاً لفظ (خلالهما) الذي يفيد أيضاً حوالي حدودهما ومابين بيوتهما (٢) ومنه في سورة بني اسرائيل : فجاسوا خلال الدّيار أي بينهم. فبعد أن نبّه القارىء إلى هذه البعثة الاسلامية أضاف مُنوها عنها بقوله تعالى:

الآية ﴿٣٤﴾

﴿ **وكان له ثمرٌ، فقال لصاحبه وهو يحاوره : أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً.** ﴾

وهو جل شأنه بهذا الأسلوب البلاغي المُعجز نبّه ذهن القارىء إلى الرّجل الآخر المقصود آنفاً من قوله تعالى ﴿**واضرب لهم مثلاً رَجُلين......**﴾ فالمقصود من صاحب الجنتيّن صاحب النهضتين المسيحيّتين خاصة وأما الرّجل الآخر فهو صاحب هذا النّهر الإسلاميّ.

وقال جل شأنه بعد هذا التوضيح وبهذا الأسلوب البياني المعجز، ﴿**وكان له ثمرٌ**﴾ والضمير يعود إلى نهر الإسلام بمعنى أن الإسلام آتى أُكله وأسّس حضارةً ونهضةً لاتُنكر.ثم

(١)- أقرب الموارد.
(٢)- محيط المحيط.

عمد تعالى إلى فاء الاستئناف ليستأنف بها كلام صاحب الجنتيّن، وقال : ﴿ **فقال لصاحبه وهو يحاوره: أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً.**﴾ أي أن هؤلاء المسيحيين لم يتّعظوا بما أتى به هذا النّهر عليهم من خيرٍ ومعرفة توحيديّة. بل ركب الكبرياء والغرور رؤوسهم فاعتّزوا بكثرة أموالهم وكثرة عَدَدهم نسبة إلى المُسلمين. في الوقت الذي يقتضي مبدأ الحوار من جانبهم أن ينقضوا ماجاء به الاسلام من علم وتوحيد، وليس أن يُعرضوا عن الخوض في ذلك الحوار ويغُرهم كثرة أموالهم وكثرة أعدادهم.

وبعد أن أعطى الله جل شأنه القارىء فكرة شاملةً غيبيةً عمّا سيحدث، راح يُصوّرله حقيقة استكبار صاحب الجنتيّن وبأسلوب التشبيه أيضاً وقال :

الآية ﴿٣٥﴾ ﴿ **ودخل جنته وهو ظالمٌ لنفسه، قال ماأظنّ أن تبيد هذه أبداً.** ﴾

وفي هذه الآية الكريمة قال : ﴿**ودخل جنتّه**﴾ ولم يقُل "ودخل جنتيه". إشعاراً منه تعالى للقارىء أنّ الكلام ينحصر الآن في الدّور المستقبلّي المنبأ عنه في الآيات السّابقة والذي سُميّ فيه المسيحيّون بالمسيح الدّجال ولايُقصد به عصر القرون الوسطى المظلمة .

قال : ﴿**ودخل جنته وهو ظالمٌ لنفسه..**﴾. وسبق أن بيّنت أنّ ظلمه حقّه معناه انتقصه إياه. واللاّم في (لنفسه) للتخصيص. أي أنّ هؤلاء المسيحيين ابتدؤا نهضتهم الجديدة وهم ظالموا أنفسهم ومنتقصوا مما لأنفسهم عليهم من حقّ. وهو ضرورة تخليّهم عن العقيدة الموروثة زعمهم أنّ الله اتّخذ المسيح ولداً له. بل كان من واجب أنفسهم عليهم أن يُعيدوا النّظر فيما توارثوه من عقائد فاسده وعلى ضوء تعليم الإسلام التوحيدي.

﴿**قال ماأظُنّ أن تبيد هذه أبداً.**﴾ أي واستمرّ هؤلاء على عقيدتهم الفاسدة يترقّون شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحت لهم السّيادة على العالم كلّه. فترسّخ في نفوسهم الكبر والغرور، إلى حدّ ظنّوا معه أن حضارتهم ونهضتهم لن تبيد أبداً. فهذه هي دلالة هذا التشبيه ﴿**قال ماأظنّ أن تبيد هذه أبداً.**﴾ وكأنّ الله تعالى يصف بهذه الألفاظ حال الأمم الغربية المعاصرة وصفاً واقعياً فهم يظنّون في آيامنا هذه أنّ حضارتهم لن تزول بعد اليوم .

والذي يتملّكه مثل هذا الكبرياء والغرور لايعـود يأبـه لصـوت السّـماء ولا لإنذاراتـه. لذلك صوّر جلّ شأنه للقارىء هذه الحقيقة، من خلال قولـه علـى لسـان هـذا القـوم المسـيحيّ المستكبر :

الآية ﴿٣٦﴾

﴿وماأظنُّ السّاعة قائمةً، ولَئِن رُدِدْت إلى ربّي لأجدنَّ خيراً منها مُنقلباً.﴾

وقوله **﴿وماأظن السّاعة قائمة﴾** جاء يصوّر خلاله حال هـؤلاء الذّيـن ماعـادوا يقيمـون وزنـاً للإنذار القرآني الموجّه إلى هؤلاء المسيحيّين : **﴿وإنّـا لجـاعلون ماعليهـا صعيـداً جُـرُزاً.﴾**. أي أنّهم اعتدّوا بأنفسهم إلى درجة ماعادوا يُصدّقون معها مضمون هذا الإنـذار الإلهـي ولايخشـون ساعة وقوعه. ذلك فهمناه من خلال تعريف لفظ السّاعة بالألف واللاّم العهديه في هـذا المقـام. أي أنّهم وقعوا في خداعٍ نفسيٍّ . فقد عاد لسان حالهم يقول : **﴿ولئن رُدِدْتُ إلى ربّي لأجدّنّ خيراً منها مُنقلباً.﴾** ويقصد بكلمة (ربّي)أن المسيحيّ عاد يعتبر المسيح الناصري ربّاً وإلهاً وعـبّر بذلك عن واقع مسيحيّي عصرنا تعبيراً صادقاً. فالذي يُطالع العهد الجديد المحتوي على الأنـاجيل الأربعة وأعمال الرُّسل، يُلاحظ أنهم كتبوا على غلافـه (كتـاب العهـد الجديـد لربّنـا ومُخلّصنـا يسوع المسيح.) طبع (جميعة التوراة الاميركانية).

فهؤلاء المسيحيّون عادوا بعد غرورهم يظنّون أن ماأوتوه من عطاء، فمن عطاء يسـوع المسيح، وليس من عطاء الله الذي خلقهم ويأملون أيضاً بإعزازٍ في الآخرة خيراً وأعظم ممّا أوتوه في الدنيا من عطاءٍ وإعزازٍ.

وهنا توجّه الله جلّ شأنه يشبّه المسلم، الذي يأخذ علومه من فيوض هذا النهر الاسـلامي الـذي فجرّه الله تعالى بين زمني النهضتين المسيحيتين . يشبّهه ويقول بلسان حال هذا المسلم :

الآية ﴿ ٣٧ ﴾

﴿ قال له صاحبه وهو يُحاوره أكفرت بالذي خلقك من تُرابٍ ثمّ من نُطفةٍ، ثم سوّاك رجلاً ﴾.

﴿قال : أكفرت﴾ الهمزة في (أكفرت) حرف نداء للقريب، وحرف استفهام وهي أصل أدوات الاستفهام. وتردُ لطلب التصوّر ولطلب التصديق، وتُقدّم على الحرف العاطف نحو أوَلَم ينظروا. وقد تخرج الهمزة عن الاستفهام الحقيقي فتأتي للتسوية، وللإنكار التوبيخيّ وللتقرير وللتهكّم وللأمر وللتعجُّب، وللإستبطاء. (١).

يقول المسلم بلسان حاله مخاطباً صاحب الجنتيّن لأن ألفاظ الآيات بأسلوب التشابيه أي يخاطب المسلم هذا المسيحي ويحاوره بلسان حاله ويقول : أكفرت آيّها المستكبر المُتعجرف بالله الذي خلقك من تُرابٍ ثمَّ من نُطفةٍ ثمّ سوّاك رجلاً. واتخذت لله ولداً، وظننت أنّ ساعتك المُنذر بها من قِبَل الله الذي خلقك لن تقوم؟ وكأنّه يقول له بألفاظٍ أخرى إنّك خرجت عن خط الحوار العقلاني والعلمي والمنطقيّ، ورُحت تخدع نفسك أكثر ممّا خدعتها من قبل .

وأضاف تعالى يعبّر عن عقيدة التوحيد المسلم التي يعتقدها هذا المسلم فيقول:

الآية ﴿ ٣٨ ﴾

﴿ لكنّا هو اللّه ربّي ولاأشرك بربّي أحداً.﴾

بمعنى أننا نحن المسلمين بالرّغم من أننا أقل من المسيحيّن مالاً وعَدَداً، فلا يسمح لنا توحيدنا الذي علمنا إياه هذا الكتاب الفرقان أن نشرك بربّنا أحداً. إشارة إلى ماقاله جلّ شأنه من قبل :

﴿ أبصر به وأسمع، مالهم من دونه من ولّيٍ، ولايُشرك في حُكمه أحداً.﴾.

أي أنني لاأخرج بالرّغم من قلّة مالي وعددي عن منطق الحوار العقلاني العلمي والمنطقي على شاكلة مافعلت أنت.

وراح هذا المسلم ينصح المسيحي صاحب الجنّة أي صاحب النّهضة المشابهة للجنّة، يقول له بلسان حاله أيضاً:

---

(١)- محيط المحيط.

الآية ﴿ ٣٩ ﴾

﴿ ولولا إذ دخلت جنتّك، قلت ماشاء الله لاقُوّة إلاّ بالله، إنْ تَرَنِ أنا أقلّ منك مالاً وولداً﴾

وأتى بحرف (لولا) و هي أربعة أقسام، وهي إذا دخلت على الفعل الماضي تكون للتوبيخ والتنديم. كما هو الحال في هذا الكلام. ومعنى **﴿ولولا إذ دخلت جنتّك قلت ماشاء الله﴾** أي ياصاحب الجنتّين، لو أنك دخلت وابتدأت دور هذه النهضة الجديدة التي نهضتها ـ وهذه هي دلالة إذ دخلت جنتك ـ أي لولا ابتدأت هذا الدور الجديد وقد صححّت عقيدة الشرك بالله تعالى التي تعتقدها واستبدلتها بعقيدة أنّ كلّ مايجري في هذا الكون إنما هو تابع لمشيئة الله. واعتقدت أن **﴿لاقوة إلا بالله﴾** أي أنّ الذي يعتزّ بغير الله يذلّ فالقوّة له جميعاً.

ومن ثمّ أتى جل شأنه بحرف (إن) الذي يرد على أربعة أوجه أيضاً، ومنها مايكون للاستقبال سواء دخلت إن على الفعل الماضي أو المضارع، كما هو الحال في هذا المقام. وذلك ليقول : لو أنّك ياصاحب الجنتّين، نظرت إلى المستقبل الذي ستبلغ فيه ذروة قوتّك وهيمنتك، فتحتقرني يومئذٍ علي اعتبار أنّي سأكون يومها أقلّ منك مالا وعدَدَاً وولداً.

الآية ﴿ ٤٠ ﴾

﴿فعسى ربّي أنْ يؤتين خيراً من جنتّك ويُرسل عليها حُسباناً من السّماء فتُصبح صعيداً زَلَقاً﴾

فأتى تعالى كما يلاحظ القارىء بعسى وهي من أخوات كاد، فهي فعلٌ مُطلقٌ، وتكون للترّجي في المحبوب (محيط المحيط). والمعنى أنني أنا الذي أمثّل جانب المسلمين المؤمنين بكلمات الله أرجو من إلهي ومحبوبي والمُتيقّن بمشيئته وقُدرته أن يبّدل أحوالنا جميعاً، ويؤتيني جنّةً أي نهضةً ودوراً **﴿خيراً من جنتّك﴾** أي أفضل من نهضتك ومالك وأولادك، وليس على مستواها مالاً وولداً.

ثم إني لاآمل من محبوبي مثل هذا العطاء وحسب ، بل وآمل أن يفيَ الله عزّ وجلّ بوعيده الذي توعّدك به في أوّل سورة الكهف ﴿**ويُرسل عليها** ـ أي على جنتك ـ **حُسباناً من السّماء.**﴾ والحُسبان كما في (محيط المحيط) هو العذاب والبلاء والعجاج والغبار والنّار. فإذا مانزل بجنّتك أي بأرضك هذا العذاب من السّماء ﴿**فتصبح صعيداً زلقاً**﴾ أي تعود جنتك ملساء لاتثبت عليها الأقدام، أي يدمّر الله يومئذٍ ماستعتزّ وتفاخر به عليّ.

وليلاحظ القارىء أن الله عز وجل أتى في آخر هذه الآية الكريمة بنفس لفظي ﴿**صعيداً جُرزاً**﴾ الواردين من قبل في وعيده ﴿**وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً جُرزاً.**﴾ علماً بأن كلمتي جُرزاً وزلقاً تحملان نفس المعنى على وجه التّقريب. وأضاف هذا المسلم يقول بلسان حاله :

الآية ﴿ ٤١ ﴾

﴿ **أو يُصبِحَ ماؤها غَوراً، فلن تستطيعَ له طلباً.** ﴾

وغوراً من غار الماء غوراً : ذهب في الأرض وسفُل فيها. والغور مصدر غار معناه الماء الغائر(١) .وليتذكّر القارىء هنا أن ماء النهر لايغور. بل يظّل دفاقاً مستمرّ الجريان. لذلك فلا بُد لقوله تعالى ﴿**أو يُصبحَ ماؤها غوراً**﴾ من معنى غير المعنى المتبادر للأذهان.

والحقيقة هي أن النّهر كُنّي به عن الإسلام ومعارفه المُستمرة العطاء. وكُنّي بالماء في هذه الآية الكريمة عن الجذور العلمية التي استندت إليها أوربا في نهضتها الأخيرة. فهو تعالى يُنبّه هؤلاء المسيحيّين إلى أنّ عقائدهم الدّينية كانت سبب انحطاطهم وتخلّفهم في القرون الوسطى المظلمة. ولولا انسلاخهم عن كنائسهم واتجاههم اتّجاها علمياً محضاً وعلمانيّاً في بداية نهضتهم هذه، لظلّوا كذلك على تلك الحال من الانحطاط والتّخلف.

ويذكّر الله جل شأنه هؤلاء أن المُخترعين والمُكتشفين من علمائكم ، قد تحقّق على أيديهم ما تحقّق ليس بسبب لياقتهم الذاتيّة إنما تحقّق ذلك بإلهامٍ خفّيٍ من الله الذي شاء أن يفسح لكم آخر فرصةٍ للنّهوض على شاكلة مافعله مع اليهود من قبلكم قبل أن عَمَد إلى

(١)- أقرب الموارد.

استبدالهم بقوم آخرين . وأنتم تعترفون في منشوراتكم أنّ مخترعيكم قد كان الواحد منهم يخترع مايخترعه ويكتشف مايكتشفه بطريق الصُّدفه، والحقيقة هي أنها لاتوجد صُدْفةٌ على الصّعيد العلمي. فأرخميدس وسواه على سبيل المثال اعترفوا أنّ مااخترعوه كان من باب الصُّدفة، وليس نتيجة لسعيٍ شخصي. وهذه التي يُسمّيها هؤلاء صُدفة ماكانت في حقيقتها إلاّ إلهاماً خفيّاً من طرف الله الذي حرّك عالمكم المسيحي هذا التحريك. وهذا أمرٌ سبق أن نبّه جلّ شأنه الذهن إليه من قبل من خلال قوله (كذلك بعثناهم) ضمن الآية : ﴿.. **لو اطّلعت عليهم لولّيت منهم فراراً، ولُملئت منهم رُعْباً. كذلك بعثناهم..**﴾. وأنا سبق لي أن شرحت ذلك في حينه.

وكأنه جل شأنه يذكّر هؤلاء المسيحيين بما حدث سنوات فجر نهضتهم ويقول إنّه لولا انسلاخكم أيُّها المسيحيّون عن سُلطان كنائسكم في بداية نهضتكم، واتجاهكم اتّجاهاً علمانيّاً في حياتكم، ولولا تلقّي مخترعوكم وعلماؤكم للإلهام الخفي الذي أشرنا إليه والذي رُحتم تسمونه (صُدفه)، فما كان لكم أن تصلوا إلى ماوصلتم إليه من قوة وجبروت.

وليلاحظ القارىء أيضاً أنّه تعالى أتى بحرف العطف (أو) في مُستهلّ هذه الآية الكريمة، لماذا؟ وقد ذكر المتأخرّون للحرف (أوْ) أحد عشر معنى. وقد استعمل هنا بمعنى الإباحه الواقعة بعد الطّلب في قوله : ﴿**ولولا إذ دخلت جنتّك، قلت ماشاء الله، لاقوّة إلاّ بالله..**﴾ (١) .فقد أتى تعالى بحرف العطف (أو) تخييراً وإباحة لهؤلاء المسيحيّين إما أن يعودوا عن شركهم أو يسلب منهم جذور ماقامت عليه نهضتهم ويصبح بذلك ماؤهم غوراً.

هذا وإن المفكّر الذي يُتابع الأحداث الجارية في العالم المسيحي في آيّامنا هذه، يُلاحظ بروز بوادِر سلب جذور النهضة الأوربية المعاصرة . فشباب المسيحيّين الأوربيين والأمريكيين عادوا في آيّامنا هذه خليعيّ الرُّسُن وانتشرت بينهم الرّذيلة والمسكرات والمُجون واتّباع الشّهوات، والصّدود عن طلب العلم أيضاً. لذلك يُحاول قادة تلك الشعوب شراء أصحاب العبقريات بأغلى الأثمان و من أيّ شعب ودين كان . ثم إنّ اليابان التي أذلّتها أمريكا بقنبُلتيها

---

(١)- محيط المحيط.

الذريتين اللتين ألقت بهما على هيروشيما وناكازاكي، إن اليابـان هـذه أخـذت تُنـافس أمريكـا نفسها بعطاءاتها العلمية وتقنياتّها.

فالماء الذي ذُكر في هذه الآية الكريمة هو ماءٌ معنـويٌّ والمقصـود بـه هـو هـذه الجـذور العلمية التي قامت على أساسٍ منها نهضة هؤلاء المسيحيّين. وقد أتى جلّ شـأنه بعـد أن قـال : ﴿أو يُصبحَ ماؤها غوراً﴾ أتى بفاء الإستئناف وقال : ﴿فلن تسـتطيع لـه طلباً.﴾. والخطـاب هنـا لصـاحب الجنتيّـن. و (لـن) حـرف نصـبٍ ونفـيٍ واستقبال. وفعـل (تسـتطيع) مصـدره الاستطاعة. وإن الاستطاعة الحقيقيّة هي القُـدرة التّامـة الـتي يجب عندهـا صـدور الفعـل. فهـي لاتكون إلاّ مقارنة للفعل(١) و (طلباً) من طلبه يطلُبه طلباً : إذا حاول إيجاده وأخذه (٢).

ويُصبح معنى ﴿فلن تستطيع له طلباً.﴾ أي لاتعودون ياأصحاب عقيدة اتّخـاذ الابـن لله بقادرين على القيام بنهضةٍ رابعة جديدة بعد أن نسلب ماشئناه منكـم واستعدناه وتفقـدون بذلك القدرة الحقيقية على القيام بنهضةٍ جديدةٍ بعدها مهما حاولتم ذلك. وسيعود مـن يتبقّـى من نسلكم وعلى عقيدتكم من بعد نزول عذابنا بأرضكم سيظلّ أولادكم يتغنّون بأمجادكم مـن بعد، فلا يستطيعون بعد ذلك استعادة تلك الأمجاد.

ويضيف جل شأنه ينبىء عمّا سيؤول إليه حال أُمم المسيح الدّجـال، وبصيغـة المـاضي على عادته ويقول :

الآية ﴿ ٤٢ ﴾

﴿ وأحيط بثمرِهِ، فأصبح يُقلّب كفيّه على ماأنفق فيها، وهي خاويةٌ على عروشها، ويقول : ياليتني لم أُشرك بربّي أحداً.﴾

وهذا القول فيه هنا تشبيه وإنباء عن حال الشعوب الأوربية والاميركيـة لفـترة مـابعد نـزول العـذاب السـماوي ووعيـده بتلـك الشـعوب ، وعـبّر عـن ذلـك بصيغـة الواحـد إشـارة إلى صاحب الجنّتين وقال : ﴿واحيط بثمره﴾ تقول : أحاط بالقوم أهلكهم ، وأحاط بالشيء

(١)- نفس المصدر.

(٢)- نفس المصدر.

أحدق به. وجاء تعالى بفعل (أُحيط) مبنيّاً للمجهول فلم يُوضّح من الذي أهلك ثمر جنّته ليركّز ذهن القارىء على النقطة الأساسية وهي أنّ كل مافي جنّة هؤلاء من ثمار وأموال وأولاد وجيوش جبّارة سيهلك ويزول.

وأضاف ﴿**فأصبح يُقلّب كفيّه على ماأنفق فيها**﴾ مستعيناً بفاء الاستئناف ليستأنف الكلام على الذين يقصدهم من هذا التشبيه. تقول : قلّب كفيّه تأسّف وحزن، أي أخذ هؤلاء يأسفون ويحزنون على ماآل إليه حالهم هذا الذي خوفّهم به هذا المؤمن من إرسال الله الحُسبان أي العذاب على جنّته التي اغترّ بها وألهته عن إلهه الحقيقي. وراح يصف حالة جنّة هؤلاء بعد نزول العذاب ويقول :

﴿**وهي خاوية على عروشها**﴾ تقول أرض خاوية أي خالية من سُكّانها وأثمارها. وخوَت الديّار : سقطت وتهدّمت. والعروش جمع عرش وعريشة كناية عن الأعناب التي هلكت والمماليك التي دُمرّت. والمعنى أنّ صاحب الجنّتين أخذ يأسف ويحزن على ماأنفق على جنته التي هلك كلّ شيء زرعه فيها وأسّسه.

وأضاف ﴿**ويقول : ياليتني لم أشرك بربي أحداً**﴾ وياليت حرف تمنّ متعلّق بالمستحيل عموما والقليل نادراً. أي أنّ هؤلاء المسيحيين سيصابون باليأس ممّا أصابهم ويتمنّون المستحيل وهو لو أنّهم لم يتخّذوا لله ولداً ولم يشركوا به أحداً.

وهكذا، ومن خلال هذه الجملة الأخيرة من هذه الآية الكريمة، وضّح الله جلّ شأنه للقارىء أنّ المقصد من التشبيه بصاحب الجنّتين هو الإشارة إلى الذين كان يتكلم عنهم في سياق الآية وهم هؤلاء المسيحيّون الذي اتخذوا لله ولداً وتناسوا ربّهم الذي خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم جعلهم رجلاً يحسب الناس له حسابه.

فلّما انتهى جلّ شأنه من هذا الوصف وذاك التشبيه، راح تعالى يُصوّر ماكان يأمل هؤلاء ويحلمون أن يعتمدوا عليه في المُلمّات والمواقف الحرجة من أعوان وعملاء وقال :

الآية ﴿ ٤٣ ﴾

﴿ **ولم تكن له فئةٌ ينصرونه من دون الله، وماكان مُنتصراً.** ﴾

فأتى بكلمة (فئة) التي تعني الطائفة والجماعة والتي قال عنها في الكليّات : الفئة هي الجماعة المُتظاهرة التي ترجع بعضها إلى بعضٍ في التّعاضد. وفي التعريفات : الفئة هي الطائفة المُقيمة وراء الجيش للإلتجاء إليهم عند الهزيمة. وهو تعالى إذ يقول : ﴿**ولم تكن له فئةٌ ينصرونه من دون الله**﴾. يكون قد أشار بذلك من خلال كلمة (فئة) إلى أن مسيحي أوربة وأمريكة قد جنّدوا لأنفسهم عُملاء في مختلف الأقطار ليعضدونهم في المُلمّات. و هؤلاء العُملاء يرجع بعضهم إلى بعض ويتظاهرون بتأييد الغرب ، بل ويَحتَمُون بالغرب وسلطانه من بطش شعوبهم التي يحكمونها ويحتمون وراء الجيوش الجرّارة التي يمتلكها أسيادهم المذكورون . فإن شئنا التوسع في معرفة هذه الفئة العميلة للغرب نعود إلى سورة (تبّت) وإلى ماتضّمنته من أبناء، ذلك أنّ القرآن يُفسّر بعضه بعضاً فالغرب هم مُخترعوا الصواريخ ذات اللهب سُمّوا في سورة تبّت بأبي لهب واستعمل لعملائهم وامرأته حمّاله الحطب ممّا لايتسع المقام لشرحه الآن.

المهم في الأمرهو أنّ الله عز وجلّ أنبأ في هذه الآية عن هؤلاء العملاء المُجنّدين من أنّهم لن يفيدوا الذين اتخذوا لله ولداً في شيء يوم ينزل بهم عذاب الله ويدمّر جميع مابنوه وجمعوه. وهذا ماعبّر الله تعالى عنه بقوله : ﴿**ولم تكن له فئةٌ ينصرونه من دون الله.**﴾.

وأضاف الله تعالى قائلاً : ﴿**وماكان مُنتصراً**﴾ وكشف تعالى بألفاظه هذه وبكلّ جلاء ووضوح عن أنّه ينبيء عن نهضة أوربه وأمريكة المستقبلي وعن هيمنتها، وعن سعيها الدائب للقضاء على الإسلام بمختلف الوسائل المتوفرة لديها، فالإسلام هو النّهر الذي فجّره الله تعالى بين جنّتي هؤلاء وهو الدّين الذي أغاظهم، بدل أن يحاولوا الاستفادة من التوحيد الإلهي الذي أتي به لتصحيح عقائدهم. وهو جلّ شأنه أتى بصيغة الجزم وقال : ﴿**وماكان مُنتصراً**﴾ أي أنّ الأيام ستثبت فشل الأمم الغربية في جميع مخططاتها التي تُحيكها ضد الإسلام. وأضاف الله عزّ وجل يقول وبلسان المنتصر :

الآية ﴿ ٤٤ ﴾ ﴿ **هُنالك الوَلاَية للّه الحقّ، هو خيرٌ ثواباً وخيرٌ عُقْباً.** ﴾

فأتى باسم الإشارة للبعيد (هُنالك) المركب من هنا مضافاً إليها لام البعد وكاف الخطاب وقال: **﴿هنالك الوَلاَيَة لله الحقّ﴾** أي عندما ينزل العذاب بهؤلاء وينتصر الإسلام ويُخذلون، في المستقبل البعيد الذي نتكلم عنه ونشير إليه، هنالك يثبت لكلّ عين بصيرة أنّ الحاكم الحقيقي لهذا الكون والذي لايُشـــرك في حكمه أحداً هو الله ذو الجلال والإكرام السميع البصير (الحقّ) صادق الوعد وصاحب القول الثابت.

وأضاف يقول مذكّراً عقول هؤلاء أنّ ولاية الله وتأييده : **﴿هو خير ثواباً وخيرٌ عُقْباً.﴾** أي أنّ العاقل يتعّظ ويفكّر في عاقبته، وفيما يجمعه من ثواب كل عملٍ صالحٍ يعمله، والعاقل لايجمع الأموال والأولاد ويتمتّع بمعزلٍ عن ربط نفسه بالله الذي هو مصدر خيره والذي يصير إليه أمره.

إلى هنا يُنهي الله عز وجلّ مَثَلَ الرّجلين. وعلى عادته تعالى يصرّف الأمثال ويضرب مثلاً آخر لعلّه يوضّح لهؤلاء مشيئة الله تعالى ويقول :

الآية ﴿ ٤٥ ﴾
﴿ واضرب لهم مَثَلَ الحياة الدنيا، كماءٍ أنزلناه من السّماء، فاختلط به نبات الأرض، فأصبح هشيماً تذروه الرّياح، وكان الله على كلّ شيءٍ مقتدراً.﴾

فراح جلّ شأنه يوضّح لهؤلاء بمثلٍ وتشبيهٍ جديد حقيقة هذه الحياة الدنيا وفلسفتها. علماً بأنّ الدّنيا نقيض الآخرة، وسُميّت كذلك لقربها من الإنسان من جهة ولانحطاط قيمتها في مقابل مافي الآخرة من الأشـياء، وقال : **﴿ واضرب لهم مثَلَ الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السّماء.﴾**.فأتى بكاف التشبيه ليشبّه الحياة الدنيا ومتاعها بالحياة وارتباط قوانينها بماء السّماء. وعلى حسب ماذكر في مقام آخر : **﴿وجعلنا من الماء كل شيء حيّ﴾**. فنبّه ذهن القارىء إلى هذه الحقيقة الطبيعية من أنّه يستحيل على الأرض أن تستغني عن السّماء. فالماء الذي يُحي النبات يأتي أصلاً من السّماء. فإذا نزل مطر السّماء واختلط به نبات الأرض ينمو هذا النبات ويزهر. فإذا استغنى هذا النبات عن ماء السّماء ييبس ويصبح كما قال **﴿ فأصبح هشيماً تذروه الرّياح﴾** والهشيم كُلُّ كلإٍ وشجرٍ يابسٍ متكّسر يعود خفيفاً تذروه الرّياح.

وبهذا المثل الجديد الذي ضربه الله عز وجلّ لهؤلاء المسيحيّين شبّه به حالهم لعلهم يرجعوا إلى عقولهم ويفكّروا من هذا المنطلق تفكيراً علمياً، وعرض عليهم موضوع التوحيد الالهي الذي أتى به نهر الإسلام، عرضاً يُدركه كلّ عالمٍ تبيّنت له معالم وحدة القوانين الطّبيعيّة التي تسيّر هذا الكون والدّالة على مالك واحدٍ للسموات والأرض والذي لايُشرك في حكمه أحداً.

لذا، أضاف جل شأنه يقول : ﴿**وكان الله على كلّ شيءٍ مقتدراً**﴾ فأشار إلى أنّه عز وجلّ يملك القدرة اللازمة للقضاء على هؤلاء الكافرين الذين اتخذوا لله ولداً. وراح تعالى بعدها يشرح المقصود من (الحياة الدنيا) ويقول:

الآية ﴿ ٤٦ ﴾

﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدّنيا، والباقيات الصّالحات خيرٌ عند ربّك ثواباً وخيرٌ أملاً.**﴾

بمعنى أنّ هذه الحياة الدنيا، يتزيّن أهلها بالمال الذي يجمعونه فيها، وبالأولاد الذين يُنجبونهم فيها .فهذا هو أقصى متاعُها. ونبّه هنا ذهن القارىء من خلال ذلك إلى أن الدنيا لم تكن هي المقصود من الله لهؤلاء الناس ، فهي سُمّيت (الحياة الدنيا) إشعاراً منه سبحانه للقارىء إلى أنّ هناك حياة آخرة أسمى من هذه الحياة الدنيا. فلو أنّ الإنسان فكّر قليلاً لأدرك أنّ كلّ عمل يعمله يترك أثراً خيراً كان أو شرّاً. لذلك أضاف يقول: ﴿**والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربّك**﴾ أي أنّ الذي يتمتع بهذه الحياة الدنيا، ولايأخذ هذه (الباقيات الصالحات) في عين اعتباره، لايكون في ذلك خيرٌ له في آخرته، ولابدّ له أن يُبتلى من جديد في عالم البرزخ ويصلى ناراً تطهّره ممّا آل إليه حاله، ليستّحق الحياة الآخرة. والعاقل يفكّر في تحصيل هذه (الباقيات الصالحات) فهي خيرٌ له وهذه وصيّة ربّك الذي ربّاك وجعلك تدرك فضيلة التفكير بهذه (الباقيات الصالحات.) التي تشكل أساس الحياة الاخروية والتي هي خيرٌ من عطاء المال والبنين الذي هو زينة هذه الحياة الدنيا فالباقيات الصالحات (خيرٌ عند ربك ثواباً) أي عطاءً. إنّما لايسعى إلى هذه الباقيات الصّالحات من يفكّر تفكيراً مادّياً محضاً، بل يسعى إليها من كان يفكّر

تفكيراً روحياً و حياته كلّها أمل للحصول على هذه الباقيات الصالحات. وإلى هذه الناحية أشار قوله هنا : ﴿**وخيرٌ أملاً.**﴾.

فما أعظم هذا البيان المعجز لهذه الفلسفة العلمية لهذه الحياة التي يحياها جميع الناس. ذلك أنّ الذي ينتهج نهجاً علميّاً روحيّاً في حياته، يستحيل عليه أنْ يتجاوز مضمون هذه الفلسفة دون أن يتبنّاها ويسلك مسلكها. وبهذا الدّرس الفلسفي الحاسم، أنهى جل شأنه كلامه عن مصير هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً، الذين شبههم بصاحب الجنتيّن وأضاف يقول :

الآية ﴿ ٤٧ ﴾ ﴿ **ويوم نُسيّر الجبال، وترى الأرض بارزةً، وحشرناهم، فلم نغادر منهم أحداً.** ﴾

وقلت إن الله تعالى يتكلّم في هذه الآية عن المصير الذي ينتظر هؤلاء الغربيين في الحياة الدّنيا. ولايتكلّم عن الآخرة كما ظنّ المفسرون القدماء . فابن كثير قال هنا : (يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة ومايكون فيه من الأمور العظام.). قال هذا وكأنّ هذه الأرض التي نعيش على أديمها لن تفنى قبل يوم القيامة. وينسى ابن كثير قوله تعالى : ﴿**يوم تُبدّل الأرض غير الأرض، والسموات، وبرزوا لله الواحد القهّار.**﴾.

وسبق أن بيّنت أنّ من معاني الجبل : سيّد القوم. وهذا المعنى يؤخذ به في هذا المقام. يقول تعالى إنه يوم أُنزل عذابي بهؤلاء، لاأعود أسمح لزعيمٍ من زعمائهم بالعمل السيّاسي في تلك الأقطار التي يقطنونها ، بل (نُسيّر الجبال) من سيّره أخرجه من بلده. أي نحاسبهم وننفيهم من بلادهم التي سنورثها للذين يؤمنون بكلماتنا ويعملون على وصايانا.

وراح تعالى فكنّى عمّن تبقّى من أتباع هذه الجبال بلفظ الأرض وقال : ﴿ **وترى الأرض بارزة** ً﴾ أي يعود أتباع هؤلاء وعوامهم هم الظاهرون للعيان فلايجدون لهم زعيماً يجتمعون تحت أجنحته.وإنّه لأسلوبٌ بياني معجز أيضاً يعبّر به عن هذا المصير الذي ينتظر هؤلاء الزعماء الغربيّين المضلّلين وأضاف تعالى يقول : ﴿**وحشرناهم فلم نُغادر منهم أحداً.**﴾ أي أننا

لانكتفي لهم بهذا الإذلال في الدنيا، بل وحشرناهم أيضاً جميعهم في جهنّم الآخرة فلم نغادر منهم أحداً. وأضاف تعالى يقول

الآية ﴿ ٤٨ ﴾

﴿ وعُرضوا على ربّك صفّاً، لقد جئتمونا كما خلقناكم أوّل مرّة، بل زعمتم ألّن نجعلْ لكم موعداً ﴾

وبهذه الألفاظ ﴿**وعُرضوا على ربّك صفّاً**﴾ راح تعالى يُصوّر حالة الذّل التي سيؤولون إليها في الآخرة ذُلاً وخُسراناً. فالمعلوم أنه في نهاية كلّ حرب يُعرَضُ زعماء الطرف المهزوم أمام زعيم الطرف المنتصر مُكبّلين بالسّلاسل وصّفاً ليُبدو منه الاحترام والخنوع. فليس المقصود من قوله ﴿**وعُرضوا على ربّك صفّاً**﴾ إلاّ تصوير حالة الذل والخسران التي سيؤول إليها هؤلاء. وإلاّ فليس المقصود هنا أنّ هؤلاء سيُعرضون ظاهرياً بين يديه تعالى صفّاً.فالصيغة صيغة كنايه. لقول الله عز وجلّ في سورة البقرة(١) عن هؤلاء : ﴿**إنّ الذين يكتمون ماأنزل الله من الكتاب، ويشترون به ثمناً قليلاً، أولئك مايأكلون في بطونهم إلاّ النّار، ولايكلّمهم الله يوم القيامة، ولايزكيّهم، ولهم عذاب أليم.**﴾

ويزيدنا الله جل شأنه تصويراً لحال ومآل هؤلاء ويقول : ﴿**لقد جئتمونا كما خلقناكم أوّل مرّة.**﴾ أي هاأنكم جئتم أذلاء خاسئين وخانعين بعد أن دمرنا كل شيء جمعتموه وأسستموه، فماذا أفادتكم أموالكم وأولادكم وسلطانكم وعملاؤكم؟.

ومن ثم أتى جل شأنه بحرف (بل) الذي يفيد الإضراب وقال : ﴿**بل زعمتم ألّن نجعَلَ لكم موعداً.**﴾ أي ظللتم على شرككم بالله وتملككّم الغرور والكبرياء إلى درجة زعمتم معها ألّن نجعل لكم موعداً. على حين أنّكم اليوم أذلاء بين أيدينا وجئتمونا كما خلقناكم أوّل مرة، لامال ولا ولد. وأضاف يقول :

---

(١) - سورة البقرة - الآية (١٧٤).

الآية ﴿ ٤٩ ﴾

﴿ ووُضع الكتاب، فترى المجرمين مُشفقين ممّا فيه، ويقولون ياويلتنا مالِ هذا الكتاب لايُغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها، ووجدوا ماعملوا حاضراً ولايظلم ربّك أحداً. ﴾

والله تعالى قال هنا بلسان الكناية (ووضع الكتاب) فهو أتى بفعل وُضع مبنيّاً للمجهول. وتقول وضع الشيء : أثبته وحطّه وخلاف رفعه. وبذلك استعمل (وضع الكتاب) كناية عن أنّ ماأنبأ عنه وماأوصى به قد وضعه موضع التنفيذ ليخرج به النتائج المترتبة على الأعمال. وأتى بفاء الاستئناف ليستأنف كلامه عن هؤلاء المجرمين الذين عُرضوا على ربّك صفّاً، وقال : ﴿**فترى المجرمين مُشفقين ممّا فيه**﴾ ومعنى مشفقين خائفين وحذرين ممّا يتعلّق بأعمالهم من قرارات.

وأضاف تعالى : ﴿**ويقولون ياوَيلتنا مالِ هذا الكتاب لايُغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها.**﴾. فليخبرنا جلّ شأنه عن لسان حالهم أنّهم انقلبوا نفسيّاً من حال إلى حال. ففي حين كانوا يقولون قبل أن يوضع وعيدكتاب الله موضع التنفيذ ﴿**وماأظنّ أن تبيد هذه أبداً. وماأظنّ السّاعة قائمة.**﴾ فانقلبوا يقولون : ياويلتنا أي أخذوا يتفجعّون، ويدعون على أنفسهم بالويل بسبب ماحلّ بهم من شرور ودمار. ﴿**يقولون ياويْلتَنا مالِ هذا الكتاب لايغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها**﴾ أي مال كتاب الأعمال هذا عدّ وحفظ وعقل جميع ماقمنا به من مؤامراتٍ على الإسلام ومن أعمالٍ عُدوانية ضدّ أهله مهما كانت صغيرة أو كبيرة؟

وأضاف جل شأنه يقول : ﴿**ووجدوا ماعملوا حاضراً**﴾ أي حاضرةً نتائجه. ﴿**ولايظلم ربّك أحداً**﴾ أي أنّ إلهك يامحمّد مُبرّأ عن أن يحقد على أحدٍ من عباده أو أن يظلمه أو أن ينتقص من حقّه شيئاً. فها أنّ ربّك يامحمّد قد صبر عليهم صبراً مابعده من صبر.وحَلِم عليهم حِلْمٌ مابعده من حِلم ووعظهم بشتّى الطّرق والأساليب، وفجّر لهم هذا النّهر التوحيدي الذي حمّلك رسالته، ومع ذلك أداروا ظهورهم للذي خلقهم وجاؤونا يحملون على أكتافهم أوزار ماعملوه.

و لم يكتف الله جل شأنه بكل ماأنبأ به وحذّر منه. بل راح يُحاجج هؤلاء المسيحيّين فيما يعتقدونه من عقائدَ ماأنزل الله بها من سلطان، ويقول :

الآية ﴿ ٥٠ ﴾

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلاّ إبليس، كان منَ الجنّ، ففسق عن أمر ربّه، أفتتّخذونه وذريّتهُ أولياء من دوني، وهم لكم عدوٌّ، بئس للظّالمين بدلاً.﴾

أي أنّ عقيدة كفّارة المسيح التي تعتقدونها، إنّما تستند أصلاً إلى قصّة خطيئة آدم وحوّاء و بدل أن تتطّهروا بهذه الكفّارة، تفعلون فعل إبليس الذي فَسَقَ عن أمر ربّه. فأنتم لاتتولّون هذا المسيح الناصري وتعملون على تعاليمه ووصاياه وهوالذي فداكم على حسب ماتزعمون . بل تتخّذون إبليس قدوةً لكم ووليّاً لأمركم وهو لكم عدوٌّ وعبّر تعالى عن ذلك بقوله : **﴿أفتخّذونه وذُريّته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ؟﴾**

ولنلاحظ أنّ الله عز وجلّ لم يدخل هنا في تفاصيل قصّة آدم، ولم يركّز إلاّ على مافعله إبليس الذي فسق وتمرّد عن أمر ربّه. ليشبّه أعمال هؤلاء بأعمال إبليس وذريّته.

وهو تعالى إذ استعمل لفظ إبليس في هذه الآية الكريمة، فقد استعمله من أبلسَ أي قَنِطَ من رحمه الله تعالى، تذكيراً لهؤلاء بوجه الشّبه بينهم وبين إبليس، فهم قنطوا ويئسوا من رحمته تعالى التي أتت لهم بنهر التوحيد الخالد الذي تمثّله تعاليم هذا الدّين الإسلاميّ الحنيف الذي يتآمرون عليه.

وكلّ مايأتي به هنا في هذه الآية الكريمة من كلامٍ عن إبليس، هو قوله عنه **﴿كان من الجنّ﴾**. إشارةً منه تعالى إلى أنّه حينما بعث أوّل نبيّ في هذه المنطقة وهو آدم عليه السّلام، بعثه، في زمنٍ كان البشر لايزالون أشبه شيءٍ بالحيوانات من حيث معاشهم.

فقد كانوا يقطنون الكهوف عموماً، ويتغذّون بما يصطادونه خارج كهوفهم، وكالحيوانات يحيون على شريعة الغاب فقد كان يتزعمهم من كان أقواهم جسماً وبطشاً وهذا هو مايفعله هؤلاء حيث يفرضون على الشعوب شريعة الغاب . وهذه الحقيقة التاريخية عبّر جل شأنه عنها بلفظ (الجنّ) من جُنّ أي استتر واختبأ. فالبشر زمن بعثة آدم كانوا يختبئون في الكهوف والمغاور طلباً للنّجاة من بطش الحيوانات الكاسرة من حولهم. وهذا الموضوع لااستطيع التوسّع فيه في هذا المقام.

المهمّ هو أنّ الله عزّ وجل بكّت هؤلاء المسيحيين مّما يعتقدونه. وكأنه تعالى قال لهم بألفاظٍ أخرى : أين أنتم وأعمالكم، وأين ماتزعمون وتعتقدون؟ إن أنتم إلاّ أتباع إبليس والمسيح الناصري منكم بُراء. وماأنتم إلاّ المسيح الدّجال بعينه. ومادمتم تتبّعون إبليس وذريته، ولاتعملون على وصايا المسيح عيسى ابن مريم : ﴿بئس للظّالمين بدلاً.﴾ فأنتم مذمومون في نظر الله عز وجلّ ونظر المؤمنين بالإسلام وبهذا القرآن الفرقان، وأنتم ظالمون في جميع الأحوال.

فلّما انتهى الله جلّ شأنه من إلقاء هذه الحُجّة الأخيرة على هؤلاء المسيحيين الذين اتخذوا لله ولداً. راح ينبئهم بالمصير المحتوم الذي ينتظرهم قبل أن يُفلحوا في اكتشاف أسرار الفضاء وأسرار الأرض وأسرار الحياة، ويقول :

الآية ﴿ ٥١ ﴾

﴿ ماأشهدتهم خلق السموات والأرض ولاخلق أنفسهم، وماكنت مُتّخِذِ المُضلّين عَضُداً.﴾

وقد أطلق جلّ شأنه على هؤلاء اسم (المُضلّين) والضّال في اللّغة هو الشخص الذي يعمل عملاً لايعود عليه بنفع. والمُضلّ هو الشخص الذي يُحاول أن يحول بين الناس وبين معرفة طريق الهُدى والرّشاد ليُبطل لهم أيّ نفع لأعمالهم ويحرمهم من الخيرات.

وهو جلّ شأنه إذ سّماهم مُضلّين وقال ﴿وماكنت مُتخّذِ المُضلّين عضُداً.﴾ راح يشير بذلك إلى ماسيبلغونه من رقيّ علميٍ يظنّون من جرّائه أنهم قادرون على تأسيس نظامٍ عالَمي. يذكّرهم بمنطق التاريخ. من أنّه لم يحدث أن تمكّن أيّ عالمٍ أو فيلسوف في تاريخ البشر كلّهم من إصلاح مجتمعٍ بعينه. بل الذي حدث في تاريخ البشر، ومنذ عهد آدم الذي أسّس أوّل تعاونيةٍ في منطقتنا، فما حدث هو أنّه لايتحققّ إصلاح البشر إلا عن طريق أنبياء الله ومرسليه الذين يبعثهم الله للقيام بهذه المهمّة ويؤيّدهم بنصره وبالمؤمنين. وهو تعالى وكأنّه يخاطب هؤلاء الذين يسعون لاكتشاف حقيقة خلق السموات والأرض وخلق أنفسهم، ويقول لهم بقوة منطق التاريخ الذي أشار إليه : من مَنَحكُم حقّ إقامة نظامٍ عالميٍّ وهل يتمكّن المضلّون من إقامة مثل هذا النظام؟ فلا يقوم بهذه المهمة إلاّ الذّين تعرفوا إلى خالقهم و لم يشركوا به أحداً.

ثم يردّ جل شأنه على ماسبق أن قاله صاحب الجنتين من هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً وهو (لئن رُددت إلى ربيّ لأجدن خيراً منها منقلباً، ويقول :

الآية ﴿ ٥٢ ﴾

﴿ ويوم يقول نادوا شُركائي الذين زعمتم، فدَعَوهم، فلم يستجيبوا لهم، وجعلنا بينهم موبقاً.﴾

والموبق في اللّغة مصدر وَبَقَ بمعنى هلك، وكلّ شيءٍ حال بين شيئين. فهو تعالى يتكلم بلسان هؤلاء ويُنبّه إلى أنّ العذاب المهلك سينزل بهم وبأقطارهم ويحول دونهم ودون طلب المعونة من أية جهة كانت. ولايستطيع عملاؤهم أن يفيدوهم بشيء.

وراح جلّ شأنه يصوّر هذا الشيء الذي سيحول بينهم وبين أعوانهم ويقول :

الآية ﴿ ٥٣ ﴾

﴿ رأى المُجرمون النّار، فظنّوا أنهم مواقعوها، ولم يجدوا عنها مصرفاً. ﴾

فاستعمل صيغة (مواقعوها) وهي جمع اسم فاعل من واقع ووقع بمعنى سقط (١) وقال : **﴿ورأى المُجرمون النّار﴾** إشارة إلى نار الحرب الذرّية التي سيخوضون غمارها، والتي سيشعلونها بأنفسهم. ذلك أن معنى (رأى الزّند) أوقده. وأضاف : **﴿فظنّوا انهم مُواقعوها﴾** فأتى جل شأنه بفعل ظنّ بمعنى اليقين في هذا المقام، فهو من ألفاظ التّضاد. أي أنّ الحرب الذريّة التي سيوقدونها ويخوضون غمارها، ستوقظهم من سُباتهم فيعتقدون حينذاك أنّهم سيسقطون في نارها ويحترقون لامحالة. وهم إذ يوقنون بهذا المصير، ويبحثون عن مخرجٍ وحلٍ فلا يجدون لأنفسهم حلاً ولامخرجاً لذلك أنبأ جل شأنه وأضاف ينبىء ويقول : **﴿ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾**.

والله جل شأنه وقد حذّر هؤلاء من مغبّة شركهم، وضرب لهم الأمثال، وأقام عليهم الحجّة وبيّن لهم مصيرهم المحتوم، راح يصوّر للقارىء ماأنزل الله لصالح الناس وقال :

---

(١)- أقرب الموارد.

الآية ﴿ ٥٤ ﴾

﴿ ولقد صرّفنا في هذا القرآن للنّاس من كلّ مَثَلٍ، وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً. ﴾

فاستعمل فعل (صرّفنا). تقول : صَرفْتُ الكلام إذا اشتققت بعضه من بعض. فإذا شـدّدت وقلت (صرّفت) فللمبالغة في هذا التّصريف. كما استعمل لفظ (مثل) الذي يعني الشّبه والنظير. وكلمة (جدلاً) أيضاً. والجدل يعني الخصومة والمُنازعة. وقال في الكلّيـات = الجـدل عبـارة عـن دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحُجّةٍ أو شُبهه، وهو لايكون إلاّ لمنازعة غيره.

قال تعالى : ﴿**ولقد صرّفنا في هذا القرآن للنّاس من كلّ مثـل**﴾ أي أنّ هـذا القـرآن الذي أنزلناه وفجرّنا به النّهر مابين الجنّتين، ميّزناه على كل تعليمٍ أو كتابٍ أنزلناه من قبله. فلم نترك حُجّة ولا دليلاً ولا مثلاً إلا صرّفناه فيه لصالح النـاس جميعهـم. ولايُنكِـر هـذه الحقيقـة إلا أعمى أو مجرم مضلّ، وهذا هوحال هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً. فإلى واقـع هـؤلاء أشـار تعـالى بقوله: ﴿**وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً**﴾ معرّفاً لفظ الإنسان إشارةً إلى أنّهم يتظاهرون بأنّهم هم الإنسان، والذين يمثلون الإنسانية وحقوق الإنسان. وهذا المعنى بدليل تعريف لفظ الإنسان بالألف واللاّم كماذكرت تنبيهاً لذهن القارىء مـن أنّـه تعـالى يقصـد هـذا الإنسـان المعهـود في أذهانهم، والذي مافتىء يتكلّم عنه في سياق هذا الكلام.

وهو جلّ شأنه أراد التّنبيه إلى أنّ هـؤلاء لايسـعون إلى الحقيقـة ولا إلى بلـوغ مسـتوى الانسانيّة ، وإنّما يبغون الخصـام والنّزاع مـن وراء جميـع مايزعمونـه وينسـبونه لأنفسـهم. وإلاّ فالحقيقة هي أنهم يمثلّون دور المسيح الدّجال. وهـم في حقيقتهـم مُجرمـون ومُضلّـون. وأضـاف قائلاً :

الآية ﴿ ٥٥ ﴾

﴿وما مَنَع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهُدى، ويستغفروا ربَّهم، إلاّ أن تأتيهم سُنّة الأولّين، أو يأتيهم العذاب قُبُلاً.﴾

فاستعمل فعل (مَنَعَ) من منعه الأمر، ومن الأمر، وعن الأمر : حرمه إيّاه وكفّه عنه. بمعنى أنّ الذي منع هؤلاء النّاس أن يؤمنوا، إذ جاءهم هُدى الإسلام (ويستغفروا ربّهم) من غفر أي يؤمنوا ويسألونه ستر نقائص عقائدهم وعيوبهم ﴿**إلاّ أن تأتيهُم سُنّة الأوّلين**﴾ أي إلاّ أن يشابه هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً الكفّار الأولين الذين جادلوا رُسُل الله بالباطل وقاوموهم، إلى أن نزل بهم عذاب الله ﴿**أو يأتيهم العذاب قبلاً**﴾ أو ينزل بهم عذاب مرحلّي قبل العذاب الذي ينتظرونه.

وهنا انبرى الله عز وجل يشرح للنّاس المهمّة التي يكلّف رسله الكرام بها في شتّى فترات التاريخ هذه المهمة التي يبعثهم بها لإصلاح أحوال الناس ، وقال :

الآية ﴿ ٥٦ ﴾

﴿ **ومانرسل المرسلين إلاّ مبشّرين ومنذرين،ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدُحضوا به الحقّ، واتّخذوا آياتي وماأُنذِروا هُزواً.** ﴾

وهذه المهمّة لرسل الله تعالى يُحدّدها في أمرين اثنين لاثالث لهما، وهما ﴿**مُبشرين ومنذرين**﴾ وقوله مبشرين من البشارة وهي مايُؤتاه المُبشَّر من بشارةٍ وخبرٍ صادق. والبشارة لاتكون أصلاً إلا بتبشير بخيرٍ إلاّ أن تُقيّد كقوله تعالى ﴿**فبشّرهم بعذاب أليم**﴾ أي أنّ الذي يكفر بما آتاه الله ربه، فبشارته بعذاب أليم يحلّ به.

على ضوء هذه المعاني يكون جلّ شأنه قد حدّد المهمة الأولى لرسله بالقيام بتعليم القوم المرسل إليهم هذا الرسول ، المبادىء والتعاليم التي إن هم عملوا عليها، ينهضوا من كبوتهم وتخلّفهم ويستبشرون بمستقبلٍ أفضل لهم، ويتلّقون إلى جانب ذلك خبراً صادقاً عن مآلهم الذي سيؤولون إليه بعد موتهم أيضاً.

أمّا المهمّة الثانية لرسل الله فهي التي تضمّنها قوله : ﴿**ومُنذرين**﴾ من أنذره بالأمر، أعلمه وحذّره من عواقبه قبل حلوله وخوّفه في إبلاغه (١).

(١)- اقرب الموارد.

وتكون المهمة الثانية لرسل الله هو القيام بإعلام الذين يرفضون ماجاءهم به نذيرهم ويكفرون بمهمته إعلامهم بمصيرهم الذي ينتظرهم إن هم ثبتوا على تكفيرهم رسول الله ومن ثم تحذير هؤلاء الكافرين من عواقب ذلك قبل حلول موعده، ويكون أسلوب الرّسول في هذا التحذير من العواقب، أسلوب ترهيب لعلّه يوقظ فيهم إدراك عواقب عملهم ويعودوا بذلك عن هذا الرفض وذاك التكّذيب. أمّا الذّين يصرون على كفرهم وتكذيبهم رسل الله، إن حاولوا محاورة هذا الرسول فبماذا يحاورونه؟ يقول تعالى مضيفاً ﴿**ويجادل الذين كفروا بالباطل ليُدحِضُوا به الحقّ.**﴾ أي أنّهم لايحاورونه بمنطق الحُجّة والبرهان، وإنما يجادلونه أي يُخاصمونه وينازعونه مهمّته ويحاولون التّعتيم عليها وإبطال مصداقيّتها ليدحضوا الحق بالباطل. ولايكتفون بإجرامهم هذا ، بل ﴿**واتّخذوا آياتي ومأأُنذروا هزُواً.**﴾ أي بالرغم من جميع مانري الناس من آيات صدق رسالة رسولنا، يعرضون عن رؤية هذه الآيات السّماوية ويستهزئون بها وبما أنذرهم به رسولهم الذي بعثناه لهدايتهم.

فلما يصل الله جل شأنه إلى هذا المستوى من البيان، يناشد ضمير القارىء ويحركه ليتساءل :

الآية ﴿ ٥٧ ﴾

﴿ **ومن أظلم ممّن ذُكّر بآيات ربّه، فأعرض عنها ونسيَ ماقدّمت يداه، إنا جعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه، وفي آذانهم وقراً، وإن تدعُهُم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً.**﴾

أي عجيبٌ حال هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً، وكيف لايكونون أظلم الناس وهم الذّين مهما ذكّرهم الدّاعي، ومهما أراهم ربهم من عجائب معجزاته وآياته الدّالة على صدق الإسلام، فلا يتجاوبون معه ويصدّون عنه، ولايتذكّرون ماحاكه كل واحدٍ منهم من مؤامرات واعتداءات على الاسلام وأهله.

وهنا يتوجّه الله عز وجلّ إلى هذا القارىء الذي تحرك ضميره وأحاط بحال هؤلاء علماً

يوضّح له أنّ الله تعالى ونتيجة لهذا الظّلم العظيم الذي يرتكبه هـؤلاء، ماعـاد ينظـر إليهـم علـى أنّهم يستحقّون الهداية بل : ﴿**إنّا جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه**﴾ وأكنّـة جمع كِنّ وهـو البيت وسـتار كل شيء ومايقيه، بمعنى أنّنا حجّرنا على عقول هؤلاء وقوقعناها ضمن نطـاق معين، فما عاد باستطاعتهم، ولظلمهم العظيم أن يحيطوا بتعاليم هـذا الدين الإسلامي ويهتـدوا بهديه. وليس هذا وحسب بل ﴿**وفي آذانهم وقراً**﴾ من وَقَر الله أذنـه إذا ذهـب بسـمعها. أي وأفقدناهم القدرة على الإصغاء والمحاورة وسماع الوعظ، فما عادوا يتمكّنون من الاسـتفادة من سماع تعاليم الإسلام ولا الإصغاء إلى وصاياه.

والله جل شأنه يتوجّـه هنـا إلى كـلّ مسـلم ويقـول : ﴿**وإن تدعُهُـم إلى الهـدى فلـن يهتدوا إذاً أبـداً.**﴾. فـأتى بحرف (إن) الـتي تفيـد الاستقبال سـواء دخلـت علـى المضـارع أو الماضي.أي أنّ هؤلاء الغربيين إذا بلغوا هذه الدرجة من الرقي مستقبلاً . فلن يعود هناك من أملٍ أن يتقبّل هؤلاء الإسلام، الذي يمثّل هذا النهر العظيم الذي فجّرناه بين الجنّتين، بصورة جماعيـة، وعبّر تعالى عن ذلك بقوله ﴿**فلن يهتدوا إذاً أبداً.**﴾. وهذا هو السرّ الذي دعاه جلّ شـأنه مـن قبل وفي سباق هذا الكـلام أن ينصـح المسـلمين ألاّ يفكّـروا في التصـدّي لهـؤلاء بـالقوة، ولا أن يعمدوا إلى تهديدهم. فسيبلغ هؤلاء حدّاً من الظلّم والفظاعه ضد الإسلام، بحيث لايعود يُجدي معهم إلا تنفيذ الله تعالى لوعيده الذي تَوَعَّدَهُم به في آيات التمهيـد مـن هـذه السّـورة بقولـه: ﴿**وإنّا لجاعلون ماعليها صعيداً جرزاً**﴾.

وراح جلّ شأنه فأكّد على هذا المصير الذي قدّره لهؤلاء وقال :

الآية ﴿ ٥٨ ﴾

﴿ **وربُّك الغفور ذو الرحمة، لو يؤاخذهم بما كسبوا، لعجّل لهم العذاب، بل لهم موعدٌ لن يجدوا من دونه موئلاً.** ﴾

فوجّه ذهن رسوله والمؤمنين إلى مااتّصفت به ذات الله تعالى من صفات سـاميه وقـال ﴿**وربّـك الغفور ذو الرحمة**﴾ وربّك صفة تعني الإله الذي يُطوّر عباده وجميع ماخلق طوراً بعد طور حتى

يصل به مرتبة التمام (١). والغفور من غفر الشيء ستره وغطى عيوبه أي أنّ من صفة الله تعالى أن يغفر ذنوب عباده ويستر عليهم ويعفو عن كثيرٍ من سيّئاتهم. وهو ذو الرحمة، وذو بمعنى صاحب ولاتكون إلا مضافة إلى نكره نحو ذو مال. فإن وُصف بها معرفة أُضيفت إلى إسم مُعرّفٍ باللاّم الجنسية لتبقى على شرطها نحو جاءني ذو المال.

والملاحظ أنّ ذو اضيفت إلى صفة الرحمة مُعرّفة بالألف واللاّم الجنسيّة لتعني الإله صاحب جنس الرّحمة الذي مافوقه من رحيم. والرحمة من رَحِمَ له أو رحمه بمعنى رقّ له وغفر وتعطّف.

ويصبح معنى قوله تعالى : ﴿**وربّك الغفور ذو الرّحمة**﴾ أنّ من مقتضيات ربوبية الله أن يصبر على هؤلاء وأن يستر ويغفر، على اعتباره ينبوع الرّقة واللطافة والغفران والتعطّف على هذه المخلوقات، خصوصاً وأنّ ربّك عاملك بهذا السلوك وهذه المعاملة.

وأضاف قائلاً : ﴿**لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب**﴾، لكنّ صفات الله هذه ومقتضيات ربوبيّته هي التي تؤجّل موعد إنزال العذاب بهؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً. فهو تعالى يستر على ضعفهم ويتعطّف عليهم ويمهلهم لعلّهم يرجعوا عن غيّهم ويثوبوا إلى رشدهم. ومن ثم يأتي الله جل شأنه بحرف (بل) ليقول : ﴿**بل لهم موعدٌ لن يجدوا من دونه موئلاً**﴾والموئل هو الملجأ والمرجع ومستقرّ السّيل (٢) .يقول إنّ من المُحزن أنّ سيل إجرامهم وتآمرهم لن يجد له حدّ ومستقرّ، وللصّبر والعفو والرأفة حدود، خصوصاً وأنني أنذرتهم على لسان هذا الرّسول وفي هذا الكتاب وتوعّدتهم وقلت : ﴿**وإنّا لجاعلون ماعليها صعيداً جرزاً.**﴾. فلا بدّ أن أنزل بهم هذا الوعيد وهذا العذاب.

وأضاف جلّ شأنه ينبّه ذهن قارىء كتابه العظيم إلى قانونٍ قدريّ سنّه منذ الأزل لأمثال هؤلاء المكذبين المجرمين المضلّين المجادلين بالباطل وقال :

---

(١)- اقرب الموارد.

(٢)- محيط المحيط.

الآية ﴿ ٥٩ ﴾

﴿ وتلك القرى أهلكناهم لّما ظلموا، وجعلنا لمهلكهم موعداً.﴾

وأتى بكلمة القُرى جمع قرية وتعني كلّ مكانٍ اتّصلت أبنيته وشكّلت تجمُّعاً سكانياً. لقولك : قريت الماء في الحوض إذا جمعته فيه.

يقول تعالى أننّا قدّرنا منذ الأزل للذّين يكذّبون رسُلَنا ويجرمون بحقّهم ويضلّون عبادنا أن نأخذهم بعفونا ورحمتنا إلى أن يبلغوا ذروة ظلمهم وإضلالهم وإجرامهم، فلا يعود أمرهم يستحقّ منّا الإمهال فننزل بهم أخيراً العذاب الذي نتوعدهم به أوّل زمن بعثة كلّ رسول من رسلنا الكرام.

وبعد أن وصل الله جل شأنه هذا الحدّ من البيان بما يتعلّق بأهل الكهف الذين هم حواريوا المسيح الناصري على حسب ماتضح لنا حتى الآن . وانتهى جل شأنه من الكلام عن تطوّر النّصارى بعد دخول قسطنطين في المسيحية وترقّيهم ومن ثمّ تخلّفهم لتبنّيهم عقيدة الشّرك وظهور الاسلام في فترة العصور الوسطى المظلمة التي مرّت عليهم، هذا الدّين الذي حمل إلى الناس قاطبة علوم توحيد الله عز وجلّ ليهزّ به عقول المسيحيّين لعلّهم يرجعوا عن شركهم ويهتدوا بهدي الإسلام. وهو الذي أنذرهم وتوّعدهم، وأنبأ عن دور نهضتهم العلميّة المعاصرة.

فبعد أن شبّه حال نهضتي المسيحيين هاتين وظهور الإسلام بينهما بجنتيّن فجّر بينهما نهراً. وبعد أن أنبأ عن هلاك صاحب الجنتين وفوز صاحب الجنّة المتواضع الموحّد الذي يمثّل البعثة الإسلامية وتوحيدها. وبعد أن ضرب لهؤلاء مثل الحياة الدنيا وماء السّماء منبّهاً إلى ضرورة عودة هؤلاء إلى الذي خلقهم وجعلهم رجلاً. وبعد أن أقام عليهم الحجّة فذكّرهم بآدم وتمرّد إبليس عليه وأنّهم يتّخذونه وذريّته أولياء من دون الله تعالى. وبعد أن أنبأ عن هلاكهم المحتوم. ووضّح مهمة رسله عبر تاريخ البشر، وأنّه سنّ قانوناً قدرياً يُهلك الله بموجبه كل أمّةٍ تكذّب رسله وتصرّ على تكذيبهم وتخاصمهم وتجادلهم بالباطل لتدحض به الحقّ. وبعد أن لفت أذهان هؤلاء إلى ماحلّ بالأمم قبلهم. أتى بحرف (إذ) الدّال على الماضي البعيد

ليقصّ علينا قصّة موسى وفتـاه، بسـبب علاقـة تـاريخ الشـعوب الغربيـة بموسـى وبـالتوراة الـتي تضمنها كتابهم المقدس وقال :

الآية ﴿ ٦٠ ﴾

﴿ وإذ قال موسى لفتاه لاأبرحُ حتى أبلُغَ مَجْمع البحرين أو أمضِيَ حُقُباً.﴾

وتواجهنا ونحن نتلو قصّة موسى وفتاه، أسئلة، أحدها : ماعلاقة هذه القصّة موضوعيّـاً بما سبقها من آياتٍ كريمة؟ وهل أنّ هذه القصّة هي قصّـة حقيقيّـة وعرضـت لموسـى في حياتـه؟ وأين الدّليل التاريخي على ذلك؟ أم نفهمها بدلالة مجازيّةٍ وأين القرينة التي تنقلنا إلى معنى المجـاز؟ فإن لم تكن هذه قصّةً حقيقيةً ولامجازية فما المقصود بها بعد ذلك؟

إنّ هذه الأسئلة لابدّ لنا من الإجابـة عنهـا إجابـة مُقنعـه، حتـى لانقـع فيمـا وقـع فيـه المفسّرون الأقدمون. الذّين فهموا قصّة أهل الكهف فهماً اسطورياً، وفهمـوا قصّـة موسـى هـذه فهماً أسطورياً أيضاً. دون تحقيق ولا محاكمة وبدون دلالات الآيات لغويّاً.

وعلى سبيل المثال، فدونكم تفسـير ابـن كثـير، أورد عـدّة روايـات على ج٣ صفحـة (٩٣-٩٤)، ألخّصها لكـم بألفـاظي وبعـض ألفاظـه خشـية إدخـال الملـل علـى نفس القـارىء. فروايات ابن كثير صوّرت لنا أنّ فتى موسى هو يشوع بن نون، وأن العبد الصـالح هـو الخضـر الذي وجداه مُسجّى عند صخرة. ويعللّون هذه القصّة بأن إسرائيلياً سـأل موسى الذي وقف في قومه يذكّرهم بآلاء الله عليهم، سأله : (وهل على الأرض أحدٌ أعلم منك يانبي الله؟ أجاب موسى بلا ، فبعث الله جبرائيل إلى موسى عليه السّلام فقـال : إنّ الله يقـول: ومـايُدريك أيـن أضع علمي؟ بلى إنّ لي على شطّ البحر رجلاً هو أعلـم منـك. قـال ابـن عبـاس : هـو الخضـر. فسأل موسى ربّه أن يريُه إيّاه. فأوصى إليه : أن ائت البحر، فإنّك تجد علـى شـطّ البحـر حوتـاً فخذه فادفعه إلى فتاك، ثمّ الزم شاطىء البحر. فإذا نسيت الحوت وهلك منك، فثـمّ تجـد العبـد الصالح الذي تطلب. فلّما طال سفر موسى نبيّ الله ونصب فيه سأل فتاه عن الحوت. فقـال لـه فتاه وهو غلامه **﴿أرأيت إذ أوينا إلى الصّخرة﴾** فإنّي نسيت الحـوت، ومأأنسانيه إلاّ الشـيطان أن أذكره لك.. فرجع موسى حتى أتـى الصخرة. فوجـد الحـوت، فجعـل الحـوت يضـرب في

البحر، ويتبعه موسى.. حتّى انتهى به الحوت جزيرة من جزائر البحر، فلَقِيَ الخِضر فيها وجرى معهم ماجرى..).

ولابدّ أن شعر القارىء وهو يستمع إلى هذه القصّة التي نقلتها عن ابن كثير، أنّه يقرأ أسطورة أو قصّة خرافية وهمية، ولايجد لها أصلاً في تاريخ موسى جميعه كما أنّه لايُلاحظ آية رابطةٍ تربط هذه القصّة بالآيات قبلها، وكأنّه لايوجد بين آيات سورة الكهف أي تسلسلٍ موضوعي.

ونحن لانستطيع الرّبط بين قصّة موسى وتاريخ نهضتي المسيحيّن، إلاّ بعد أن نحيط بحقيقة مضمونها علماً. لذلك نتناول الأسئلة المطروحة ونجيب عليها واحداً فواحداً.

هذا وإنّي تدبّرت التوراة المعاصرة، وجميع سور القرآن المجيد، فلم أعثر في أيّ منهما على مايشابه هذه القصّة المذكورة هنا وبمفهومها المُتبادر لأذهاننا، ورحت فحاكمت هذه القصّة أيضاً في عقلي، فما استساغ هذا العقل أن ينسى موسى مُهمّته تجاه قومه، ويسأل ربّه أن يجمعه بعالمٍ أعلم منه ويسافر هذا السّفر البعيد عن قومه، ولايحدث بعد سفره أيّ تطوّرٍ ولاأحداث. بينما أخبرنا القرآن والتوراة معاً أنّ قوم موسى ضلّوا إثر فراق موسى لهم أربعين يوماً فقط، وعادوا إلى عبادة العجل بتضليلٍ من السّامري. ذلك أنّ بني إسرائيل الذين أخرجهم موسى من مصر، لم يكن بينهم مثقفون بل كانوا عبيداً وعشائريين، لايجوز تركهم زمناً طويلاً إلاّ إذا حدث ذلك بأمرٍ من الله نفسه عز وجلّ. وليس برغبة من هوى موسى نفسه.

ثم إنّ موسى لم يحدث أن سافر قبل أن يؤت رسالة ربّه، إلاّ سفراً واحداً باتّجاه مدين. وذلك بعد أن وَكَزَ المصري وقضى عليه. وهو قد هرب وحيداً ولم يكن قد تزّوج بعد، فما كان له فتى أيْ إبناً، ولاخادماً يخدمه. هذا ماأخبرنا به القرآن والتوراة. ويتبيّن لنا من ذلك كلّه أن لاأساس لقصّة موسى هذه مع فتاه على صعيد الواقع وبأيّ شكلٍ من الأشكال.

ثم إنّ الله جل شأنه لم يأت لنا في هذه القصّة بما يدلّ على أنّها قصّة تشبيهٍ ومجاز وهو الأمر الذي فعله عند كلامه عن أهل الكهف. وعليه فمادمنا لانجد لهذه القصّة أصلاً في التاريخ، ولا على مايدلّ أنّها قُصّت علينا بلسان التّشبيه أو المجاز. فلا يبقى أمامنا إلاّ أن نتدبّر تعابيرها

وألفاظها وماحملته من قرائن داخليّـة ترشدنا إلى فهمهـا فهمـاً صحيحـاً، يتحقّـق معـه تسلسـل الآيات الموضوعي.

وأوّل تعبير نصادفه هو تعبير مجمع البحرين فما هي دلالته اللغوية؟

المجمع يعني مكان الجمع. والبحرين مثنى بحر، خلاف البرّ والماء الكثير. قيل وسُـميّ بحـراً لعمقـه واتّساعه. والبحر يدل أيضاً على الرّجل الكريم والفرس الجواد الواسع الجري. وعلى عُمُق الرّحم والنهر العظيم. (١).

ثم إنّ معنى (أمضي حُقُباً) الحقب يدل على ثمانين سنه أو أكثر، وعلى الدهر وعلى السنة أو السنون جمعه أحقاب. أمّا (الحوت) فيعني الكبير من السّمك، وبُرجاً في السّماء سُميّ بذلك للمشابهة. أما كلمة (سَرَباً) فمن سرب البعير : توجه للرّعي. وسرب الماء جرى. وسرب فلانٌ في الأرض : ذهب على وجهه فيها ومضى. أمّا كلمة (غَدَاءَنا) فالغداء هو طعام الغدوة أي طعام الصباح، وخلاف طعام العشاء. ومادام موسى قد طلب طعام الغَـدَاء، في هـذه القصّة فيستدلّ من ذلك أنّ سفره قد وقع ليلاً وليس نهاراً. فبعد الانتهاء من سفره الليلي طلب الغَداء وهذا المعنى يذكّرنا بإسراء الله بعبده محمدٍ ﷺ ليلاً. أي أن موضوع القصة هي موضوع اسراء ليلي ويحتاج إلى التأويل . ثم إن كلمة (الصّخرة) تعني الحجر العظيم والصّلب. أمّا كلمة (عجباً) أي بشكل عجيب مع الملاحظة أنه ورد قبل هذا اللفظ إشارة وقف، ولإشارات الوقف في القرآن الكريم دلالاتها على حسب ماسبق أن ذكرت.

وبعد أن فهمنا وأحطنا بدلالات ألفاظ الآيات الأوائل من قصّة موسى هذه أتناول، أول ماأتناول صيغة (مجمع البحرين) وأقول : إذا أخذناها بمعناها المُتبادر لأذهاننا، فلا تدلّ إلاّ على أمكنة تلاقي البحار. كتلاقي البحر الأبيض المتوسّط بالبحر المحيط الأطلسي على سبيل المثال. وألفاظ القصّة لم تُحدّد لنا منطقة بعينها حتى ننطلق منها لفهم هذه القصّة. الأمر الذي يشكّل أوّل قرينة تقع بين أيدينا لتحرفنا عن معنى اللفظ المتبادر للذهن إلى المعنى الآخر له وهو

(١)- محيط المحيط.

دلالته على الرّجل الكريم والنّهر العظيم الذي تجتمع عند مصبه البحار. وفي هذه الحالة فمن يكون هذا الرّجل الكريم المعطاء، وهذا النّهر العظيم الذي تستمد البحار من مياهه، والجالس على الصخرة العظيمة الصّلبة، إلاّ أن يكون المقصود به محمد بن عبد الله الرّسول الأمّي وسيد النبيّين وخاتمهم المتربّعُ على صخرة الاسلام. هذا الاسلام الذي شبّهه الله عز وجلّ من قبل بنهرٍ فجرّه بين الجنتيّن حين قال تعالى ﴿**كلتا الجنتيّن آتت أكلَها ولم تظلم منه شيئاً، وفجرّنا خلالهُما نهراً** ﴾؟ وهل عرف تاريخ الأنبياء جميعهم نبيّاً أعلم وأكرم عطاءً من نبيّنا المصطفى ﷺ؟ اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد إنّك حميد مجيد فمجمع البحرين يُؤوّل إذن في هذه القصة إنباؤه عن شخصية محمد ﷺ ولاعلاقة للخضر بهذه الألفاظ من قريب ولامن بعيد.

ولابدّ أن لاحظ القارىء كيف أنّي لم أصل إلى هذه النتيجة التي توصّلت إليها اعتباطاً، بل بأسلوبٍ تسلسلٍ منطقي وضمن أصول تفسير القرآن العظيم. فإن ذهب ابن كثير رحمه الله إلى ماذهب إليه ففسّر قصة موسى وكأنها أسطورة لاأساس لها من الواقع التاريخي، فهذا شأنه وهذا فهمه واجتهاده، وليلتزم فهمَهُ الذي ذُكِر كلٌّ من حمل عقلاً تقليداً أيضاً. وماكان هذا القرآن حِكْراً عليّ أو على ابن كثير أو سواه. فهو للناس جميعاً ولكل زمانٍ ومكان.

ونحن إذا أخذنا بهذا المعنى لكلمة (مجمع البحرين)، وعلمنا من خلال طلب موسى لفَطُوره أنّ سفره كان ليلياً. وتذكّرنا معه إسراء الله تعالى برسوله الكريم ليلاً، نجد أنفسنا وقد وَعَينا أنّ قصّة موسى هذه إنّما تُجلي لنا إسراء موسى الذي رآه في منامه، هذا الإسراء المحتاج إلى تأويل مضامينه والذي تضّمن نبوءاتٍ مستقبلية عن مصير أمته، وبما يُشبه إسراء محمد ﷺ الذي تضمّن نبوءات مستقبلية متعلّقة بتطوّر أمته والأبناء عن أن جميع أتباع الديانات السماوية سيعتنقون الإسلام ديناً في آخر المطاف . وهذا الأمر فهمناه عندما أوّلنا اقتداء جميع الأنبياء برسول الله ﷺ في المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

وقد أورد الله جلّ شأنه ماأراه لموسى ليلاً على شكل قصّة ليدفعنا نتدبّر كلماتها وجُملها ونحاول ربطها بتسلسل الآيات الموضوعي. وهذا ما سأعمد إلى بيانه في مواضعه.

وينبغي ألاّ ننسى أن الله عز وجل قال في سورة المزمّل : **﴿إنّا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم، كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً.﴾** فاستعمل هناك كاف التشبيه تنبيها منه تعالى لعقل القارىء إلى التشابه الحاصل بين الرسولين موسى ومحمد صلوات الله عليهما. فلا بدّ بالتالي أن يكون الله تعالى قد أسرى بموسى على شاكلة ماأسرى بعبده محمد ﷺ مع اختلاف ماأراهما في الإسرائين المذكورين. فإسراء محمّد رسول الله يكشف عن أنّ أتباع جميع الأنبياء سيتّبعونه ويؤمنون برسالته في نهاية المطاف، على حين أن إسراء موسى فيه نذير شؤمٍ لأمّته كما سنرى.ولا أستبعد أن يكون موسى قد طلب من ربّه أن يُريه محمداً ﷺ حين أنبأه عن بعثته، هذا النّبأالذي يقول: (أقيم لهم نبيّاً من وسط إخوتهم مثلُك، وأجعل كلامي في فمه يكلّمهم بكلّ ماأوصيه به، ويكون أنّ الإنسان الذي لايسمع لكلامي أنا أطالبه.)(١). أقول : إنّه لايُستبعد مثل هذا الأمر. وأنّ الله تعالى استجاب دعاء موسى وأسرى به هذا الإسراء الروحي في منامه وأراه ماأراه خصوصاً ما سيؤول حال أمّته إليه من مصير .

وعلى كلّ حال فإنّ القرائن المستفادة من داخل آيات هذه القصّة، يثبت منها كونها كشفاً روحياً، وليست بقصّةٍ واقعيّة. وهذا ماسيلاحظه القارىء فيمايلي من الآيات.

وقد شرع الله تعالى يتلو علينا ماجرى لموسى في هذا الإسراء وماأراه إياه فيه وقال :**﴿ وإذ قال موسى لفتاه : لاأبرحُ حتّى أبلُغَ مجمع البحرين، أو أمضي حُقُباً.﴾** فأتى بحرف (إذ) الدّال على الزّمن البعيد، زمن موسى عليه السّلام. **﴿وإذ قال موسى لفتاه﴾** فمن هو فتى موسى المذكور؟ والفتى إمّا أن يطلق على الإبن أو على الخادم (٢)

إنّ ابن كثير ذهب من خلال رواياته التي نقلها لنا، إلى أنّ هذا الفتى هو يشوع بن نون. دون تقديم أيّ دليل يؤكد هذا الرأي ودون ربطه بسياق الكلام. وأنا أميل إلى الاعتقاد أنّ هذا الفتى هو المسيح عيسى ابن مريم الذي يدور سياق الكلام حول مايجري لأمّته. فجميع أنبياء بنو اسرائيل هم فتيان موسى وخُدّام شريعته. والمسيح الناصري نفسه قال :

---

(١)- الكتاب المقدّس - سفر التثنية - الإصحاح (١٨/١٨).

(٢)- محيط المحيط.

(ماجئت لأنقض الناموس أو الشريعة، بل لأكمل.) (١) والمسيح النّاصري هو الذي بشّر ببعثة رسول الله ﷺ من بعده ﴿ومبشّراً برسولٍ من بعدي اسمه أحمد..﴾.وعليه فما دام الله جلّ شأنه لم يذكر لنا إسم فتى موسى، فالحكمة تقتضي منّا أن نستنبطه من السياق الموضوعي. وقد رأينا كيف أنّ السّياق جميعه يتكلّم عن الذّين اشركوا بالله واتخذوا لله ولداً، وضلّوا عن سبيل عيسى ابن مريمٍ والذين ينسبون أنفسهم إليه زوراً وبهتاناً. متناسين أنّ المسيح الناصري لم يكن بدعاً من أنبياء بني إسرائيل، بل كان فتىً من فتيان موسى وأنبياء أمتّه وخادماً لشريعته. لذا يكون معنى ﴿وإذ قال موسى لفتاه﴾ أي قال موسى في إسرائه الذي أسراه ليلاً ومناماً، لعيسى ابن مريم الذي أراه الله عز وجلّ إيّاه كفتىً يرافقه. قال (لاأبرحُ حتى أبلغ مجمع البحرين.).

وقد فسّر ابن كثير رحمه الله تعالى (لاأبرحُ) (أي لاأزال سائراً) (٢)وهو قد أخطأ في تفسيره هذا. فصيغة (لا أبرح) اشتملت على نفيين : لا، وأبرح. من برح أي غادر مكانه. والمعلوم أنّه إذا اجتمع نفيان ينقلبان إلى إثبات. هذا ماوضّحه صاحب معجم المفردات الذي قال : (برح وزال اقتضيا معنى النّفي. ولا النفي أيضاً. والنّفيان يحصل من اجتماعهما إثبات. ويكون معنى (لاأبرح حتّى) أي سأبقى فلا أغادر مكاني الذي أنا فيه.)، ويؤيّد رأي صاحب معجم المفردات هذا المذكور، قول الله عز وجلّ :﴿**فلن أبرح الأرض حتّى يأذن لي أبي أو يحكم الله.**﴾(٣) بمعنى سأبقى هنا ولاأغادر.

والسؤال الآن : مادلالة وتأويل سأبقى وأين سيبقى موسى وفتاه؟ الملاحظ أنّ ألفاظ الآية الكريمة لم تجب على هذا السؤال. وهذه قرينة تنقلنا من معنى المكان المتبادر للأذهان وتأويله بمكانة موسى عند الله الذي أرسله رسولاً مشرّعاً. وكأنّ موسى قد قال : سأظلّ على منزلتي عند الله إشارة منه إلى أمته إلى أن يبعث الله محمداً خاتم النبيين فإن لم تؤمن به أمّتي يجرمها الله من هذه المنزلة والتأييد، وتُطرد بذلك من رحمته عز وجلّ.

---

(١) - إنجيل متّى - الإصحاح (٥/١٧).

(١)- تفسير ابن كثير - الجزء الثالث - الصفحة (٩٢) .

(٢)- سورة يوسف - الآية (٧٧).

والسؤال الآخر هنا : فإن أضحت أمّة موسى مغضوبةً في أعين الله تعالى، فهل ينزل بها عذاب الله مباشرة، أم يُفسح لها البقاء بعد هذه البعثة الإسلامية ؟ وقد أجاب الله جلّ شأنه على هذا السؤال بألفاظ : ﴿أو أمضيَ حُقُباً.﴾ فاستعملت أو كحرف عطف والحُقُب بمعنى الدّهر . وتأويله أن موسى يقول إنّ أمّتي ستظلّ باقية بعد بعثة محمد رسول الله ﷺ دهراً غيرمحدّد السّنوات. إنّما لاتبقى على نفس المنزلة التي كانت عليها في أعين الله تعالى، بل تبقى ميتةً لاحراك فيها ولاحياة روحانيه تنبض في أبنائها ولاتأييد لها في السّماء. ذلك على اعتبار أن صاحب (محيط المحيط) أورد قوله : مضى فلان لسبيله : مات.

وفي ثنايا الألفاظ تختبيء الإشارة إلى الدور الثالث لنهضة المسيحيين المستقبليّ الذي أنبأت عنه الآيات السابقة. ذلك أنّ الأمة المسيحيّة ليست بأمّةٍ مُستقلّةٍ عن موسى وهي جزءٌ من أمته في حقيقة أمرها، وليست هي بدين مستقلٍ عن دينه ولاتملك شريعة غير شريعته. فما بعث الله تعالى المسيح ابن مريم إلا رسولاً إلى بني اسرائيل لقول المسيح في الاناجيل (ماجئت لانقض الناموس أو الشريعة بل لأكمل)(١). والمسيح بهذه الصّورة هو فتى موسى وحادم شريعته، كبقيّة أنبياء بنو اسرائيل. وإنّ مانراه من استقلالية النصارى في الإسم والّدين في عصرنا هذا ، قد تسبّب به الذي يُسمّونه (بولس الرسول). فهو الذي أطلق اسم المسيحي على الذي يؤمن بعيسى ابن مريم ولأوّل مرّة في كنيسة أنطاكية، وذلك بعد حادثة الصّلب بسنين عديدة. كما يبدو ذلك من نصوص أعمال الرّسل حيث ورد هناك : (وفي انطاكية سُمي التّلاميذ ــ أي تلاميذ المسيح ـ أوّل مرّة مسيحيّين..)(٢).

وعلى هذه الصّورة وبهذا الفهم لهذه الآية الكريمة يكون مضمون الآية قد ارتبط موضوعيّاً بما سبقه من آيات. وننتقل منها إلى قوله تعالى :

الآية ﴿ ٦١ ﴾
﴿ فلمّا بلَغَا مَجْمَعَ بينهما، نسيا حوتهما، فاتّخذ سبيله في البحر سَرَباً.﴾

(١)- إنجيل متّى - الإصحاح (١٧/٥).

(٢)- أعمال الرسل - الإصحاح ٢٦/١١.

فقد راح تعالى ينبئنا في هذه الآية الكريمة عن مصير موسى وعيسى وأمّتهما، وبنفس لسان التمثيل المحتاج إلى التأويل لفهمه. فأتى بلفظ (حوتهما). و لم يشأ ابن كثير أن يتدبّر هذا اللفظ بتأويله. بل ذهب فروى قصّةً هي أشبه بالخرافة، وصوّر موسى وفتاه وكأنّهما لايملكان القُدرة على الفهم والإدراك وقال في تفسير (نسيا حوتهما) : (وذلك أنّه كان ـ أي موسى ـ قد أُمر بحمل حوتٍ مملوحٍ معه. وقيل له متى فقدت الحوت فهو ثمّة ـ أي ثمة مجمع البحرين فهذه علامته ـ فسارا حتى بلغا مجمع البحرين. وهناك عينٌ يُقال لها عين الحياة فناما هنالك، وأصاب الحوتُ من رشاش ذلك الماء، فاضطرب، وكان في مَكْتَل مع يوشع عليه السلام وطفَرَ من المكتل إلى البحر. فاستيقظ يوشع عليه السّلام، وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء، والماء له مثل الطّاق لايلتئم بعده. ولهذا قال تعالى ﴿**واتخذ سبيله في البحر سَرَباً.**﴾.)(١)

لاشك أنّ العاقل يستسيغ أن يكون مارواه ابن كثير قد حدث في رؤيا رآها موسى. أمّا أن يحدث هذا على صعيد الواقع، فلا يستسيغ العقل حدوث مثل هذه التقوّلات.

وإن أقل مايمكن أن نسأل ابن كثير رحمه الله عنه من أين حصلت على تفاصيل ماذكرت، وأين الدليل؟

ولنعلم أنّ صيغة (حوتهما) وردت بصيغة التّثنية. ولايقصد من (حوتهما) هنا المعنى المتبادر للأذهان. فلا بد من التأويل، بقرينة أنّه ورد في كشفٍ ومنام كما سبق أن أثبتناه. فإذا عُدنا إلى كتاب تعطير الأنام في تأويل المنام فقد ورد فيه : (الحوت تدلّ رؤيته على اليمين، وربّما دلّت رؤيته على معبد الصالحين ومسجد المتعبّدين.)(٢).

وعليه فالحوت يؤوّل بخالص التّقوى والعبادة. ويصبح معنى (نسيا حوتهما) بعد أن بلغا مجمع البحرين ـ أي بعد أن امتدّ زمان أمّتي موسى وعيسى إلى زمن بعثة محمد خاتم النبيين ونهر توحيده العظيم، فقدت هاتان الأمّتان من بعد ذلك كل تقوى وكلّ عبادة خالصة لله تعالى، لتكذيبهما هذا الدّين الذي هو مجمع بينهما وفقدتا بالتّالي كلّ تأييد سماويّ.

---

(١)- تفسير ابن كثير - الجزء الثالث - الصفحة (٩٢) .

(٢)- كتاب تعطير الأنام في تأويل المنام - الصفحة (١٧٢).

وأضاف تعالى ينبيء عن انتقال هذه التقوى وتلك العبادة الخالصة إلى أمّة محمد ﷺ وحدها وقال عن الحوت : ﴿**فاتّخذ سبيله في البحر سَرَباً.**﴾ والسّرب النفق المتغلغل في الماء. والبحر هنا هو نهر الاسلام العظيم. أي أنّ العبادة الحقيقية هجرت أمة موسى تغلغلت في الأمة الإسلامية.

فلما انتهى جل شأنه من بيان هذه الحقيقة المُنبأ عنها في إسراء موسى عليه السّلام راح ينبيء عن حال أمّة موسى وأمّة فتاه ومايؤول إليه أمرهم بعد ظهور الإسلام وقال :

الآية ﴿ ٦٢ ﴾ ﴿ **فلّما جاوزا، قال لفتاه آتنا غَدَاءَنا لقد لَقينا من سفرنا هذا نصباً.** ﴾

أتى جل شأنه بفاء الاستئناف وقال (فلّما جاوزا). وأي شيء جاوزا؟ جاوزا مجمع البحرين أي أنه راح تعالى يخبرنا عمّا آل إليه حال هاتين الأمتيّ بعد بعثة محمد ﷺ وظهور الدّين الإسلامي ونهر توحيده العظيم . وأضاف قائلاً: ﴿**قال لفتاه آتنا غَداَءَنا**﴾، وسبق أن وضّحت أنّ الغداء خلاف طعام العشاء. ونحتاج إلى تأويل هذا اللّفظ على اعتبار أنه ورد في منام موسى. فإن عُدنا إلى كتاب تعطير الأنام فقد ورد فيه : (غَدَاء : هو في المنام يدلّ على نصب، لقوله تعالى ﴿**آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً.**﴾.)(١) بمعنى أنهم أي أمتّا موسى وعيسى فقدوا التقوى والعبادة الخالصة من شوائب الشرك ، وبدلاً من أن يطلبوا مائدة من السّماء طلبوا (غَدَاءهم) المادّي، ليثبتوا بذلك نصبهم وإعياءهم على الصَّعيد الرّوحي. وأكّد الله تعالى هذه الحقيقة حين أضاف قوله : ﴿**لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً.**﴾. فاستعمل فعل (لقينا) بمعنى عَيينا(٢).

وكان من جرّاء استعمال الله عز وجلّ لهذا الفعل (لقينا) أن لَفَتَ ذهن القارىء إلى أنّ الإنهاك والنّصب الذي أصاب هاتين الأمتين أمة موسى وأمة المسيح الناصري، ليس المقصود به نصبا جَسَديّاً، بل المقصود به انحرافات وتشويهات شوّهت وجه التعاليم الـتي أتى بها موسى وفتاه عيسى عليهما السلام .

---

(١)- كتاب تعطير الأنام في تأويل المنام - الصفحة (١٧٢).

(٢)- محيط المحيط.

وقد أشار جل شأنه بذلك إلى حقيقة تاريخيةٍ معروفة، وهو أنّ هذين النبيّين لم يوثّقا تعاليمهما في حياتهما بل تُركت التعاليم لينقلها الكهنة شفهيّاً جيلاً بعد جيل. ودليلنا نستمده تدليلاً على ماذكرناه من نفس أسفار التوراة المعاصرة. فقد ورد في سفر التثنية: (فمات هناك موسى عبد الرّب في أرض مؤآب حسب قول الرّب. ودفنه في الجواء، في أرض مؤآب مُقابل بيت فَغُور، و لم يعرف إنسانٌ قبره إلى هذا اليوم.)(١) وهذا نصٌّ صريحٌ يدلّ دلالة قاطعةً على أنّ التوراة كتبت بعد موسى بقرون عديدة. وكتبت في وقتٍ ضاع كلّ أثر لقبر موسى أيضاً. وهذا الأمر نفسه واجه تعاليم المسيح الناصري، والذي يريد الأدلة فليراجع فصل (قصة الأناجيل) من كتابي (هل مات المسيح على الصليب؟).

ولاشكّ أن تعاليم موسى وعيسى التي تناقلها أتباعهما بطريق الرواية وليس عن طريق تدوينها وتوثيقها، وهذا حالها، لابُدّ أن تكون قد حُرِّفت على مرّ الأيام فهذا ماحدث للتوراة والانجيل قبل الإسلام وإشارةً إلى هذه الحقيقة ورد قوله تعالى ﴿ **لقد لقينا** ﴾ أي أصاب تعاليمنا التشويه وعادت بحاجة إلى نزول كتابٍ يصحّح مااعتراها من انحراف وتشويه. فهذا هو تأويل قول موسى وفتاه (لقد لقينا) وأضاف :

الآية ﴿ ٦٣ ﴾

﴿ **قال أرأيت إذ أوينا إلى الصّخرة، فإنّي نسيت الحوت، ومأأنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره، واتّخذ سبيله في البحر عجباً.** ﴾

فأتى تعالى بكلمة الصخرة التي تعني الحجر الكبير الصلب. لكنّ هذا اللفظ هو أيضاً بحاجةٍ هنا لتأويله لأنّه واردٌ في متام. وتأويل الصخّرة مجـرّدة على حسب ماورد في تعطيرالأنام هو: (الصّخرة تدلّ على القِحّة والفُجور.)(٢) أي أنّ الله تعالى يكشف عن سرّ عدم تقبّل اليهود والنصارى للدّين الإسلامي. يقول ﴿**إذ أوينا إلى الصخرة، فإني نسيت الحوت**﴾ فأتى بحرف إذ الدّال على الزمن الماضي وقال ﴿ **أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة** ﴾ أي ألاحظت نتائج تركنا

(١)- سفر التثنية - الإصحاح (٣٤/٥).

(٢)- كتاب تعطير الأنام في تأويل المنام - الصفحة (٤٩).

للتّقــوى والصّلاح وتفرّقنا عن حبل الله تعالى الـذي خلقنـا ومِلنـا إلى القِحّـة والفجـور يقصـد أمتيهما اللذين استسلموا لميولهم وشهواتهم قبل ظهور الإسلام، فأصبحوا بذلـك قومـاً فاسـقين. ومن ثم أتى جلّ شأنه بفاء الاستئناف وأضاف يقول على لسان فتـى موسـى : ﴿**فإني نسيت الحوت**﴾ أي أن اندفاع أمّتنا نحو القِحة والفجور واتباع الشهوات إنما تـأتي عـن نسـيانها روح التقوى والصلاح. وكيف تحقّق هذا الأمر؟ قال: (ومأأنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره) أي نسيت التقوى والصلاح الحقيقيّن عندما سلّمت أمري إلى الشيطان. والمقصود من الشيطان هنا القيـادة الفاسقة لهاتين الأمتيّن. تلك القيادة التي تناست تعاليم موسى وعيسى وأخـذت تسـتعمر غيرهـا من الشعوب وتعيثُ في الأرض فساداً إشارة إلى الإمبراطورية الرومانية التي استعمرت أكثر بقاع هذا الشرق و لم تلتزم بتعاليم الدّين الذي كانت تحكم باسمه قُبيل ظهور الإسلام.

وأضـاف تعـالى ينبىء في هـذا الإسـراء الموسـوي عـن نوعيـة التقـوى والصّـلاح الـتي سيتّصف بها أتباع محمد ﷺ والذي فجّر الله على يديه هـذا البحـر التوحيـدي العظيـم، وقـال: ﴿**واتّخذ سبيله في البحر،** ﴾ وقد أتى بإشارة وقف على كلمة البحر المُعرّف بالألف والـلاّم أي اتخذ الحوت سبيله إلى بحر الإسلام المعهود في الأذهـان. وأنهـى الآيـة الكريمـة بلفـظ ﴿**عجباً**﴾. والعجب في اللغة يعني استطراف مـايرد عليـك إلى درجـة تعـتري الإنســـان معهـا روعـةٌ عنـد استعظام الشيء . والعجب من الله الرّضا أي أنّ الذين حملـوا لـواء الإسـلام تجلـت في أعمـالهم وسلوكهم تقوى وصلاح يأخذ بمجامع القلوب، ونالوا بذلك رضاء عليهـم أيضـاً فبهـذا تـؤوّل هذه العبارة في هذا المقام .

ومن خلال ألفاظ هذه الآية الكريمة التي صـورت للقـارىء هـذا الجـانب مـن الإسـراء الموسوي، تجلّت لنا النّاحية المُنذره في هذا الإسراء الموسوي. علـى حـين جـاء الإسـراء المحمـدي خيراً كله وبشارات تشرح صدر المؤمنين. فأضاف جل شأنه يقول :

الآية ﴿ ٦٤ ﴾

﴿ **قال ذلك ماكُنّا نبغِ، فارتدا على آثارهما قَصَصاً.**﴾

والقول هنا لموسى بعد أن استمع إلى فتاه يكشف له عن سرّ غفلة أمّته وفقدانها تقواها وخالص عبادتها واندفاعها وراء شهواتها وقِحتّها وفجورها ﴿**قال ذلك الذي كُنّا نبغِ،**﴾ أي هو ماكُنّا نطلب معرفته منك. وكأنّه قال موسى لفتاه المسيح : إنّك أقررت بهذا وكشفت لنا عن السبب الذي حال بين أمّتينا، ودون اعتناقهم لإسلام ديناً، وبالتالي فإن مصيرهم هذا الذي سيؤولون إليه هو مصيرٌ طبيعيٌّ فالله لايهدي القوم الفاسقين، فكيف سيكتب الله لهم الهداية وقد أصبحوا فُجّاراً وقحين؟

وأضاف تعالى يقول : ﴿**فارتدّا على آثارهما قَصَصاً.**﴾ أي تتبّعا طريقهما الذي قدِما منه من موقع (مجمع بينهما.) وهو نهر الإسلام العظيم. ويكون موسى عليه السلام قد حسم موضوع مايتعلّق بأمّته وأمّة فتاه وينتهي بذلك النّصف الأوّل من إسرائه وماحمل له من نبوءات متعلّقة بمستقبل أمته ونُذُر الشؤم التي تضمنتّها. وبذلك ابتدأ النّصف الآخر من إسراء موسى الذي تاقت نفسه فيه لتتعرّف على هذا النبي الذي أنبأه عنه ربّه كما سبق أن ذكرت والمسطور في سفر التثنية في الإصحاح (١٨/١٨). فماذا عن هذا النّصف الثاني من اسراء موسى؟ قال تعالى :

الآية ﴿ ٦٥ ﴾

﴿ **فوجدا عبداً من عبادنا، آتيناه رحمة من عندنا، وعلّمناه من لُدنّا عِلماً.** ﴾

وأتى بفاء الاستئناف وقال : (فوجدا) ووجد من أفعال القلوب مفعوله الأول (عبداً من عبادنا، ومفعوله الثاني جملة (أتيناه من لدنّا علماً)، والمعنى أنّ موسى وفتاه عَلِما في هذا الاسراء بوجود ﴿**عبداً من عبادنا**﴾. وهذه إشارة إلى أن عيسى عليه السّلام علم أيضاً ببعثة هذا الرسول العظيم الذي سيأتي من بعده. ويؤكّد هذه الحقيقة ماورد في إنجيل يوحنا قول المسيح : (إنّ لي أموراً كثيرةً أيضاً لأقول لكم ولكن لاتستطيعون أن تحتملوا الآن. وأمّا متى جاء ذاك روح الحقِ فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنّه لايتكلّم من نفسه، بل كلُّ مايسمعُ يتكلّم به، ويخبركم بأمورٍ آتية. ذاك يمجّدني لأنه يأخذ مّما لي ويخبركم.)(١)

(١)- إنجيل يوحنا - اصحاح (١٦. ١٢).

وأيد القرآن الكريم ذلك وقال عن لسان عيسى في القرآن الكريم : ﴿**ومبشّراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد.**﴾.

قال تعالى : ﴿**فوجدا عبداً من عبادنا**﴾. وعبداً مِنْ عَبَدَ الله : طاع له وخضع وذلّ له وخدمه والتزم شرائع دينه ووحّده. فمن خلال تنوين كلمة (عبداً) الذي يحمل جميع هذه الدلالات نبّه جل شأنه ذهن القارىء إلى بلوغ محمد بن عبد الله ﷺ اسمى وأرفع درجات العبودية لله عز وجل. لذلك استعمل له وحده اسم (عبد الله) وذلك في سورة الجنّ حيث قال بحقّه : ﴿**وأنّه لّما قام عبد الله يدعوه، كادوا يكونون عليه لِبداً.**﴾.

وزادنا جل شأنه بياناً لمقام عبودية هذا الرسول ﷺ وقال : ﴿**آتيناه رحمةً من عندنا**﴾ من رحمه يرحمه رقّ له وغفر وتعطّف. أي وهبناه صفاتٍ امتاز بها عن سائر عبادنا فعاد هذا الرّسول ومن خلال سلوكه مع الناس يُجسّم رقّة الفؤاد وتخلقُّه بخُلُق الإغضاء عن عيوب سواه من النّاس، والتعطّف عليهم بشكلٍ منطقع النّظير، وأضاف : ﴿**وعلّمناه من لدّنا علماً.**﴾ أي اصطفيناه وكان أميّاً لم يتلق علومه عن بحيرا الراهب ولاعن ورقة بن نوفل كما يزعمون، بل علّمناه من لدُنّا علماً دون توسّط أحدٍ من خلقنا.

والملاحظ أنّه تعالى عبّر عن الرّحمة بقوله (من عندنا) وعبّر عن العلم بقوله (من لدّنا) فما الفرق بين دلالة التعبيرين؟ وماحكمة ذلك؟ الجواب أعطاه صاحب معجم محيط المحيط عندما نبّه إلى أنّ ظرف (لدنّ) يستعمل إذا كان المحلّ، محل ابتداء غاية. وأنّ ظرف (عند) فهو أقوى ولأداء المعاني والأعيان ، وفيما حضرك من أقصى نهايات القُرب. فأتى جل شأنه بظرف (عندنا) للرحمة ليدل على شمولية رحمة الله لقوله في مقام آخر ﴿**ورحمتي وسعت كلّ شيء**﴾، لذلك قال واصفاً مهمة رسوله الكريم في سورة الأنبياء: ﴿**وماأرسلناك إلاّ رحمة للعالمين.**﴾. وأتى بظرف (لدنّا) للعلم وتنبيهاً إلى ابتداء علم محمد من لدن الله مباشرة وأنّ ماأوتيه من علم كان لغاية مقصودةٍ أيضاً. فلما انتهى جل شأنه من إعطاء صورة واضحة المعالم عن هذا العبد الذي التقى به موسى في إسرائه راح جلّ شأنه يوضّح وينبىء عن الفروق بين تعاليم هذين النبيّين المُشرّعين، وقال :

الآية ﴿ ٦٦ ﴾

﴿ قال له موسى : هل اتّبعك على أن تُعلّمَنِ مّا عُلّمت رُشداً ﴾

وبدأ حوارٌ بين موسى ومحمد سيد المرسلين، وهو بحاجة للتأويل على اعتباره حوار منام وإسراء. وقول موسى ﴿**هل اتّبعك**﴾ لايُقال في اليقظة من جانب نبي مشرّع مرسلٍإلى قوم مخصوص. و﴿**هل أتّبعك**﴾ يُؤوّلُ بأفضلية مقام وعلم محمد ﷺ على مقام وعلم موسى عليه السّلام. وقد ورد في الحديث الشريف: (لو كان موسى وعيسى حيّين لَما وسعهما إلاّ اتّباعي.)(١) وقوله ﴿**مّا عُلّمْتَ رُشْداً**﴾ أي أن ماأوتيه محمد ﷺ يعين على الاستقامة على طريق الحقّ مع تصلُّبٍ فيه، على حسب مايدلّ عليه لفظ الرّشد (٢). وتُؤَوَّل هذه الجملة بدلالتها على كمال التعاليم التي بُعث بها خاتم النبيين ﷺ.

فبماذا أجابه رسول الله ﷺ في هذا الاسراء؟

الآية ﴿ ٦٧ ﴾

﴿ قال إنّك لن تستطيع معيَ صبراً﴾

وتُؤوّل إجابة رسول الله ﷺ هذه بإشارتها إلى العقل التقليدي المحدود النظرة للحياة وهو الحال الذي سيكون عليه اليهود والنّصارىٰ زمن بعثة ﷺ ، فهم سيستغربون ماأتى به ﷺ من عقائد تخالف عقائدهم وأفكاراً لايستسيغها فهمهم التّقليدي، لذلك سيسارعون إلى الاعتراض عليه ويتعجلّون فيستنكرونه . وإلاّ فلا يُعقل أن يكون المقصود بالألفاظ موسى نفسه في هذه الآيات. فهذه نبوءات عن قوم موسى وليس عنه نفسه. ذلك أنّ كلمة الاستطاعة الصحيحة في اللّغة لاتكون إلا بعد أن يرتفع من صاحبها موانع المرض وغيره. دلالة على أنّ اليهود والنصارى سيكونون زمن ظهور الإسلام مرضى العقائد والأفكار لكثرة ماأحدثوا في أمور دينهم من تشويهات وتحريفات. وأضاف عبد الله وأشار به إلى محمد ﷺ ، أضاف يقول:

---

(١)- ورد الحديث في تفسير ابن كثير في الجزء الثاني - الصفحة (٢٤٦).

(٢)- محيط المحيط.

الآية ﴿ ٦٨ ﴾

﴿ وكيف تصبر على مالم تُحط به خُبْراً ﴾

تقول : ورجلٌ خبرٌ أي عالم بالخبر(١). والمعنى أنّ عقائد أمتّك ياموسى لاتؤهلّهم لتقبّل التوحيد الذي جاء به نهر الاسلام العظيم. وكيف تتقبّل أمتّك مالم تُحط به خبراً أي علماً. فهذا تأويل ماعُبّر عنه هنا بهذه الألفاظ، وقد أجاب موسى على هذا الحوار الكشفي موسى عليه السلام وقال :

الآية ﴿ ٦٩ ﴾

﴿ قال ستجدني إن شاء الله صابراً، ولاأعصي لك أمراً.﴾

وتأويل هذه الآية هو أن علماء اليهود والنّصارى، وإن كانوا قد عقدوا عزمهم على انتظار بعثة هذا النّبي والإيمان به. إلاّ أنّ تصوّراتهم المُشوّهة حول علامات ظهوره وأعماله، تلك التّصورات التي حُرّفت وشُوِّهت على مرّ الأيام، ستشكّل حاجزاً يحول دونهم ودون معرفة صدق هذا الرسول المنبأ عن ظهوره في التوراة والانجيل. فإشارةً إلى هذه الحقيقة ورد قوله هنا **﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولاأعصي لك أمراً.﴾**.أي سأحاول فلا أعصيك متعمّداً وإلاّ فليس من المعقول أن يتعهّد نبي مثل موسى عليه السّلام مثل هذا التعهد في يقظته ويتعجّل ويخالفه في كل خطوة من خطواته.

الآية ﴿ ٧٠ ﴾

﴿ قال فإن اتّبعتني فلا تسألني عن شيءٍ حتى أُحدِث لك منه ذكراً.﴾

وتمثّل هذه المطالبة من جانب محمد ﷺ عهداً اقتطعه على موسى، أنّه إذا بعث الله تعالى محمداً ﷺ فمن واجب أمّته ألاّ يتعجلّوا في أمره مهما خالف مُعتقدهم، وأن ينتظروا إلى أن يُحدث لهم منه ذكراً أي إلى أن تتكشّف لهم حقائق هذا الدّين وهذه المطالبة و لم يلتزم اليهود ولاالنصارى بهذا العهد، وتعجّلوا بتكذيب محمد ﷺ وباتهامه.

---

(١)- محيط المحيط.

لاشك أنّ هذا العهد فيه الإشارة أيضاً إلى عظمة مقام محمد ﷺ، في موازاة مقام موسى. فجبريل لم يطالب محمداً (ﷺ) حين رافقه في إسرائه بأيّة مُطالبة ثمّ إنّ محمداً ﷺ لم يعصِ جبريل في أي أمرٍ تلّقاه منه خلال إسرائه معه ، وأضاف تعالى يقول :

الآية ﴿ ٧١ ﴾

﴿ فانطلقا، حتى إذا ركبا في السّفينة خرَقها، قال أخَرقتها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئاً إمراً.﴾

لنلاحظ أنّ هذا الإسراء الموسوي شرع من هنا ينبيء عن الفوارق بين الأمتين الموسوية والمحمدية وعن اختلاف أحوالهما وأنظمتهما، وليس كما ذهب إليه ابن كثير، الذي كتب يقول: (فانطلقا يمشيان على ساحل البحر. فمرّت سفينة، فكلّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نَوْل - أي دون مقابل - فلّما ركبا في السّفينة لم يفجأ إلاّ والخضر قد قَلَعَ لوحاً من ألواح السّفينة بالقدّوم. فقال له موسى : قد حملونا بغير نول، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتَهَا لتُغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمراً.. قال، وقال رسول الله ﷺ فكانت الأولى من موسى نُسياناً. قال وجاء عصفور، فوقع على حرف السّفينة، فنقر في البحر نقرةً أو نقرتين. فقال له الخضر : ماعلمي وعلمك في علم الله إلاّ مثل مانقصَ هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السّفينة. فبينما هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده، فقتله .. الخ)(١).

ولأبدّ أن يدهش القارىء لهذه التفصيلات التي أتى بها ابن كثير ممّا لايجد له أصلاً في كلام الله عز وجلّ.

والمهم أنه أخذ يتوضّح للقارىء أنّ هذه القصّة ليست بحادثة حدثت في اليقظة لموسى عليه السلام بل هي كشف روحي واسراء موسوي حدث في منامه.

ويحمل هذا الكشف من الآن فصاعداً إنذارات ونبوءات عن مجرى الأحوال بعد بعثة محمد سيد المرسلين ﷺ.ممّا سيأتي بيانه على حينه. وذلك بعد أن كان النصف الأول من هذا الإسراء قد

(١)- تفسير ابن كثير - الجزء الثالث - الصفحة (٩٣).

أنبأ عن سرّ ضلالة اليهود والنصارى وعدم قبولهم الإسلام الذي بُعث به محمد ﷺ.

قال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿فانطلقا﴾ أي سارا وذهبا سويّةً. وذلك بعد أن اقتطع محمد ﷺ عهداً على موسى عليه السلام ألاّ يعترض على فعلٍ مــن أفعالـه. وأضـاف قـائلاً : ﴿حتى إذا ركبا في السّفينة خرَقَها.﴾ أي مزّقها. تقول : خرق الثوب شقّه ومزّقه (١) ولايَعْني هـذا اللفـظ اقتلاع لوحٍ من ألواح السفينة بالقدّوم.ولاشكّ أنّ هذا الفعل الذي عمد إليه هذا العبد أي محمد رسول الله ﷺ من المعقول أن يحدث في المنام، ولايُعقل أن يصدر عن عاقلٍ في يقظتـه خصوصـاً وأنّـه هـو نفســه محمـد (ﷺ) في داخـل هـذه السـفينة. فـإن حـدث ذلـك في المنام فلـه تأويلـه ودلالاته.وسأعمد إلى بيان هذا التأويل بعد أن نصل إلى ماأوّلـه محمـد ﷺ نفسـه فيمـا بعـد مـن آيات.

واعترض موسى على ماأقدم عليه محمد (ﷺ) وقال : ﴿أخرقتها لتُغرق أهلهـا؟﴾ فلـم يقل لتغرقنا. ولاعتراضه هذا دلالته وتأويله أيضاً. وسيأتي الكلام عنه أيضاً على حينه. وأضـاف قائلاً : ﴿لقد جئت شيئاً إمراً.﴾ أي شيئاً مُنكراً في نظرنا. فالتفت إليـه العبـد الكـامل العبودية محمد المصطفى ﷺ وقال :

الآية ﴿ ٧٢ ﴾
﴿ قال ألم أقل إنّك لن تستطيع مَعِيَ صبراً﴾

أي قال هذا العبد الصّالح ألم أُخبرك أنّ تعاليم شريعتك تختلف عن تعاليم شريعتي لذلك لابدّ أن تختلف أمتك عن أمتّي، فلا تملك أمّتك مؤهّلات قبول هذا الدّين الذي بعثني الله به. وهنا انتبـه موسى إلى مابدر عنه وقال :

الآية ﴿ ٧٣ ﴾
﴿ قال لاتؤاخذني بما نسيت، ولاتُرهقني من أمري عُسراً. ﴾

(١) ـ محيط المحيط

قال ﴿لاتؤاخذني بما نسيت﴾ أي أنّ نُسياني لم يكن مُتعمّداً من جانبي، فلا تلومني عليه ولاتعاتبني ولاتعاقبني (١) وأضاف قائلاً : ﴿ولاترهقني من أمري عُسْراً.﴾ أي لاتُحملّني مالا أطيق ولاتكلفني إياه.

ونتساءل عن دلالة وتأويل هذا الاعتذار الذي سيتكرّر في الآيات المُقبلة؟

الجواب هو أنّ في ذلك إنباء وإشارات إلى المراحل التي سيمرّ منها الاسلام واليهودية والمسيحية بعد ظهور الاسلام. وليتذّكر القارىء معالم أوّل مرحلةٍ عاهد يهود المدينة المنورة فيها وهم بنو قينقاع، كيف عاهدوا محمداً ﷺ على أن يكونوا بجانبه، وكيف أنّهم نكثوا بماعاهدوه عليه، ففي هذا الاعتذار إشارة إلى حدوث هذه الخيانة الأولى من طرف اليهود. ونفس هذا الشيء حدث من قبل نصارى الرّوم. فقيصر الرّوم مدح محمداً ﷺ في بادىء الأمر، لكنّه عاد فتحوّل ضدّه بعد أن شعر باختلاف سياسته عن سياسته.وصادم المسلمين في عهد خلافتي أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وامتدّ الصّراع قروناً عديدة.

الآية ﴿ ٧٤ ﴾

﴿ فانطلقا، حتى إذا لَقِيا غلاما فقتله، قال أقتلْتَ نفساً زكيّةً بغير نفسٍ، لقد جئت شيئاً نُكراً.﴾

ونُكراً هنا لفظ يحمل نفس معنى (إمراً) الذي ورد على لسان موسى من قبل، بمعنى أمراً مُنكراً قبيحاً، ونفساً زكيّة أي غلاماً طاهراً من الذنوب ونامياً على الخير.

ويلاحظ القارىء كيف أنّ ألفاظ هذه الآية الكريمة أخذت توضّح له أنّ أحداث قصّة موسى ماهي إلا رؤيا وإسراء ليلي. وقد وضّح تعالى في هذا الإسراء وأنبأ عن فارقٍ آخر، يفرّق أمّة محمد ﷺ عن أمّة موسى.

فهو تعالى قال : (فانطلقا) أي استمرّا ذاهبان ﴿حتى إذا لقيا غلاماً فقتله﴾. ولايُعقل أن يصدر عن هذا العبد الصالح مثل هذا العمل في يقظته، بل يحدث في منامه. ولفعله هذا تأويله ودلالاته. وقد اعترض موسى على فعله وقال : ﴿أقتلت نفساً زكيّةً بغير نفس؟﴾. ولاعتراض

(١)- محيط المحيط.

موسى هذا تأويله ودلالاته أيضاً. وأضاف قائلاً : ﴿**لقد جئت شيئاً نكراً.**﴾ أي مُنكراً في نظرنا. وأنا سأحاول تأويل مضمون ماجرى بينهما في هذه الآية، وأوضّح دلالاته بعد أن يؤوّلها العبد الصّالح نفسه وأتوسّع هناك شرحاً وتفصيلاً. المهمّ أنّ محمداً ﷺ التفت إلى موسى معاتباً ولعتابه هذا دلالاته أيضاً :

الآية ﴿ ٧٥ ﴾ ﴿ **قال ألم أقل لك أنّك لن تستطيع معي صبراً.** ﴾

أي ألم أخبرك عن اختلاف أحكام شريعتي عن أحكام شريعتك، الأمر الذي سيؤدي إلى اختلافهما في المستقبل فلا يتلاقيان. ولن تملك أمتك مؤهّلات قبول هذا الدّين الذي بعثني به الله عز وجل . وهنا تأسّف موسى على مابدر منه، واعتذر ثانية :

الآية ﴿ ٧٦ ﴾ ﴿ **قال إن سألتك عن شيءٍ بعدها فلا تُصاحبني، قد بلَغْتَ من لَدُنّي عُذراً.** ﴾

أي قال موسى إذا اعترضتُ على ماتفعله أنت مرّة أخرى ﴿**فلا تصاحبني**﴾ أي دع صداقتي وملازمتي ﴿**قد بلغت من لدُنيّ عُذراً.**﴾. وعُذراً من عَذَره على ماصنع أي رفع عنه الذّنب واللّوم فيه وقَبلَ عُذْره. والملاحظ أنّ اعتذار موسى يتكرّر، ويرضى بفصم عُرى صُحبة العبد الصالح تسليماً من جانبه بما خالف به عهده وأذنب. وسبق أن قلت إنّ لاعتذارات موسى أنباؤها ودلالاتها وإشاراتها إلى المراحل التي ستقطعها أمتّه في مواجهة الاسلام. أي أنّ اليهود والنّصارى وإن تظاهروا أحياناً بصداقة المسلمين، مرّة بعد مرّة، فهم ينقضون عهودهم وصداقتهم معهم، ويثبتون بالتّالي عداوتهم الدفينة ضد الإسلام والمسلمين. قال تعالى :

الآية ﴿ ٧٧ ﴾ ﴿ **فانطلقا، حتى إذا أتَيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيّفوهُما، فوجدا جداراً يريد أن ينقضّ، فأقامه، قال لو شئت لاتّخذت عليه أجراً.** ﴾

﴿**فانطلقا**﴾ أي استمرا ذاهبين. ﴿**حتّى إذا أتَيا أهل قريةٍ استطعما أهلها**﴾ أي طلبا من القوم ضيافة. ﴿**فأبوا أن يُضيّفوهما**﴾ أي رفضوا ضيافتهما. ﴿**فوجدا جداراً يريد أن ينقضّ**﴾ أي فعلما بوجود جدار مائل مُقبلٍ على الانهيار. ﴿**فأقامه**﴾ أي أعاده العبد الصالح منتصباً.

فاعترض موسى عليه وقال : ﴿**لو شئت لاتّخذت عليه أجراً.**﴾ أي لو أنّك أردت، لقوّمت عوج الجدار لقاء أُجرةٍ تتقاضاها على ماقمت به. هذا وإني سأحاول توضيح مضمون هذه الآية الكريمة في حينه. فهناك أتوسّع شرحاً وتفصيلاً.

وهنا انبرى هذا العبد الصّالح يؤوّل لموسى ماأقدم عليه، واستهل ذلك بقوله :

الآية ﴿ ٧٨ ﴾

﴿ **قال هذا فراقُ بيني وبينك، سأنبّئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً.** ﴾

وليلاحظ القارىء هنا لفظي ﴿**سأنبئك بتأويل**﴾ فالنبأ كما أورد أصحاب المعاجم هو الخبر ذو الشأن العظيم. والتّأويل من الكلام تفسيره ومن الرؤيا تعبيرها (١).فلو كانت قصّة موسى هذه قد حدثت له في يقظته، فما كان هناك من حاجة لهذا العبد الصالح أن يقول ﴿**سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً.**﴾. الأمر الذي يؤكّد صحّة ما ذهبت إليه وهو أنّ هذه قصّة إسراء حدث في منام موسى بما يشبه ماحدث لرسول الله ﷺ في منامه أيضاً. وإنّ للإسراءين دلالاتهما وتأويلاتُهما ونبوءاتهما، والإسراءان يشكّلان نقطة تشابه بارزة مابين هذين النبيّين المُشرّعين، مصداقاً لقوله تعالى في سورة المزّمل : ﴿**إنّا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم، كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً.**﴾. لكنّ الذي يؤسف له هو أن بني إسرائيل لم يحفظوا تفاصيل إسرائيل موسى، ولاأعطوه كبير اهتمامهم، لجهلهم بما كان يحمل لهم من إنذارات مستقبليّة، ونبوءات تتعلق ببعثة محمد ﷺ سيد المرسلين. والذي يُراجع وثائق اليهود القديمة تتراءى له بعض أخبار هذا الاسراء الموسويّ مشوّهة غير واضحة. والذي يؤسف له أيضاً هو أنّ علماء المسلمين المتأخرين ذهب كثير منهم إلى أنّ إسراء رسول الله ﷺ حدث أثناء يقظته، فلم يُلاحظوا ماأوله جبريل من أمورٍ تدلّ على أن الإسراء كان مجرّد منام وكشف روحاني .

---

(١)- محيط المحيط.

والآن سنرى كيف أنّ هذا العبد الكامل العبودية لله عز وجلّ، يشرع يؤوّل ماأقدم عليه من تصرّفات داخل هذا المنام، وذلك بعد أنْ أضحى في حلٍ من صُحبة موسى له قال :

الآية ﴿ ٧٩ ﴾

﴿ أمّا السّفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر، فأردت أن أَعيبها، وكان وراءهم مَلِكٌ يأخذُ كلّ سفينةٍ غصباً.﴾

وقد ورد من قبل : **﴿فانطلقا، حتى إذا ركبا في السفينة خرقها، قال أخرقتها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئاً إمراً.﴾**. ونحن تجاه هاتين الآيتين الكريمتين المتعلّقتين بأمّتي موسى ومحمد رسول الله ﷺ وسبق الكلام في سياق هاتين الآيتين دوماً عن انحراف الذين قالوا اتخذ الله ولداً عن تعاليم موسى وعيسى خاصّة بعد اعتناق قسطنطين للمسيحية. والواجب يقتضي منّا أن نفهم هاتين الآيتين على ضوء هذا التسلسل الموضوعي. إلى جانب أنّنا أقنعنا أنفسنا أن مضمونهما محتاج إلى التأويل وها أنّ هذا العبد الصالح نفسه يؤوّل ماأقدم عليه في الرؤيا نفسها إشعاراً لنا أنّه منام.وكيف علم هذا العبد الصّالح أنّ السّفينة لمساكين، ومن يكون هؤلاء المساكين؟ فالمسكين لغويّاً يدلّ على الوداعة والوقار والطّمأنينة. وهذه الصّفات يتّصف بها المسلمون.ذلك أنّ الإسلام صاغهم على الوداعة وكرّه إلى قلوبهم الشرّ والقتال. كما صاغهم على الوقار والإتزان في تصرفاتهم. والإسلام دفعهم دفعاً ليبلغوا درجة النفس المطمئنة بربّها، وكرّه إليهم الشرك بالله والاندفاع وراء شهوات النفس وملذّاتها. وهل هناك من إسم يستحقونّه إلا أن يستعار لهم وصفهم بالمساكين ؟ فما أعظم هؤلاء المساكين الذين تمخُر بهم سفينتهم في بحر الإسلام العظيم الذي فجرّه الله ربّهم لهم مابين جنتّي الذين اتخذوا الله ولداً.

ومادام سياق الكلام يدور حول هؤلاء الذين أطلق عليهم محمد خاتم النبيّين ﷺ اسم المسيح الدّجال. وأنبأ أيضاً عن أنّهم سيترقون ماديّاً وتعود لهم الهيمنة على شعوب الأرض ويستعمرونها ويستنزفون خيراتها، فمن المؤكّد أنهم هم المقصودون من قوله ﷺ في اسراء موسى هذا ﴿ **وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كلّ سفينةٍ غصباً**. ﴾ فهذه الكلمات أضحت حقيقة

واضحة لالبس فيها، وهذا الملك المغتصب هو الذي أعلن بعد حرب الخليج عن إقامة نظامٍ عالّميٍ جديد يزن فيه كل شيء بمعيارين. وهو الذي يمثّل هذه الأمّة التي اتخذت لله ولداً، وأشارت إليهم سورة المطفّفين بقوله تعالى : ﴿**ويلٌ للمطففّين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون. الا يظنّ أولئك أنّهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم النّاس لربّ العالمين.**﴾. والله بشرّهم في هذه السّورة بالويل والثبور أي بالدّمار والهلاك.

وتأويل السفينة ماورد في سورة الاسراء : ﴿**ربكُّم الذي يُزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله، إنّه كان بكم رحيماً.**﴾ فهي سفينة الاسلام التي لايبتغي أهلها المساكين إلا فضل الله ورحمته. ولايريدون في الأرض عُلّواً ولااستكباراً ولاطغياناً. ويؤوّل الملك المغتصب إشارته إلى المسيح الدجال المنبأ عنه في أحاديث رسول الله (ﷺ). ومادام الأمر كذلك فما هو تأويل ﴿**خرقها**﴾ و ﴿**فأردت أن أعيبها،**﴾ علماً بأن المقصود من ذلك ليس هو ﴿**لتُغرق أهلها**﴾ على حسب نظرة موسى للموضوع، بل نظرة أمّته إلى تعاليم الإسلام يوم يعود لها الصّول والجول في العالم.

ولانجد هنا مناصاً إلاّ أن نؤول حركة خرق السفينة وإعابتها في نظر هؤلاء أن نؤوّله على ضوء مجريات الأحداث في زماننا الذي عاصر ظهور هذا الملك المسيح الدّجال . هذا الأمر يفرضه علينا أصول تفسير القرآن الكريم فبماذا يعيبُ هؤلاء النظام الاسـلامي وتعاليمه؟ إنّ المتخصّص يقول : يعيب أصحاب النظام الرأسمالي الغربي النظام الإسلامي ببعد تعاليمه عن تعاليم نظامهم الرأسمالي الذي قام على تجميع رؤوس الأموال من جهة وعلى التّعامل عن طريق ربا البنوك والمصارف في كلّ مكان.

فهذا هو أهم أمرٍ يعيبونه على نظام هؤلاء المسلمين المساكين الذينّ راح علماء آخر الزّمان من علمائهم يُحللّون هذا الأسلوب في التعامل وهذا الأساس الرّبويّ. لجهلهم بأنباء سورة الكهف ودلالات قصصها، ولجهلهم بالمصير المحتوم الذي ينتظر هذا الملك المغتصب الغاشم الذي يمثل الشعوب الغربية ممّن اتخذوا لله ولداً.

ويعيبون على النظام الاسـلامي **أمره** بالزكـاة والصدقـات والاعتنـاء بالمحتـاجين. وهـم ينظرون نظرةً ماديّة إلى الحياة لايُخالطها تفكير روحي. فلا يُقرّون قوله تعالى ﴿**وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم**﴾ وأفلا نقرأ في كتاب الله بحـقٍ أمـة موسـى ﴿**وقـالت اليهـود يـد الله معلوله.**﴾ (المائدة) أي أنّ الله هو المكلّـف بالمسـتحقين وليـس جيوبهـم. وأفـلا نقـرأ في سـورة يس:﴿**وإذا قيل لهم انفقوا ممّا رزقكم الله، قال الذّين كفروا للذين آمنـوا أنُطعـم مـن لوشـاء الله أطعمه، إن أنتم إلاّ في ضلالٍ مبين.**﴾؟

ويعيبون على الاسلام نظام الإرث وتقسيم التّركات على أنّـه يقضـي علـى الرأسماليـة الفردية. وهـم يورثون الإبن الاكبر من دون سائر إخوانه وأخوته ليحافظوا علـى هـذه الرأسماليـة البشعة التي تزيد المجتمعات بؤساً وشقاءً.وإنّ هذا الملك الرأسمالي المغتصب الذي ينسب نفسه إلى المسيح الناصري كذباً وزوراً، يتناسى قول المسيح ذامّاً الرأسماليـة المستغلة هـذه، في انجيـل متـى (فقال يسوع لتلاميذه : الحقَّ أقول لكم يعسُرُ أن يدخل الثريّ ملكوت السـموات . فلمـا سمع التلاميذ هذا الكلام دُهشوا دهشاً شديداً، وقالوا : من تَراهُ يقدر أن يخلُص؟ فحدّق إليهم يسوع وقال لهم : أمّا الناس فهذا شيء يُعجزهم، وأمّا الله فإنّه على كل شيء قدير.).(١)

كما يتناسون قول المسيح الـذي ينسبون إليـه أنفسـهم زوراً وبهتانـاً في انجيـل مرقـس أيضاً: (ماأعسر دخول المُتكلّين على الأموال إلى ملكوت الله، مرورُ جملٍ من ثَقـب إبـرة، أيسـر من أن يدخل غنيٌّ إلى ملكوت الله.).(٢)

وبناءً عليه، وانطلاقاً مـن التسلسـل الموضوعـي للآيـات، نكـون بتأويلنـا الـذي أولنـاه (لخرق السفينة) قد كشفنا عن أن الله تعالى، قد علّل لموسى في إسرائه هذا إنذاره الذي أنذر به أمة موسى وتوعّدها بإنزال العذاب بها في نهاية المطاف. علّل الله ذلك ووضّح له واسـع علمـه الغيبيّ، وواسع قدرته التي لاتقف دونها حدود، وأنّه الغفور ذو الرّحمة لو يؤاخذ أمّة موسى هذه بما كســبت أيدي أبنائها لعجّل لهم العذاب. ولكن صفاته وحكمته اقتضتا أن يجعل لهم موعداً

(١)- إنجيل متّى - الإصحاح (١٩/٢٤).

(٢)- إنجيل مرقس - الإصحاح (١٠/٢٥).

لهلاكهم، ويورّث هؤلاء المساكين اتباع هذا العبد الكامل العبودية، الذي اتّصفت تعاليم دينه بنبذ الرأسمالية المستغلة البشعة، والسماح لرأسماليّةٍ هي في صالح الغني والفقير في آن واحدٍ، مُنَدّدة بالذي جمع المال وعدّده وحسب أنّ ماله أخلده.

أقول : شتّان مابين مااحتوى عليه اسراء موسى من انذارات شؤم لأمتّه. ومابين إسراء محمدٍ سيّد المرسلين الذي جاء إسراؤه مُفعماً بالنبوءات العظيمة المُبشّرة لأمتّه.

والمهم أنّ هذا العبد الصالح راح يؤوّل لموسى مااعترض عليه بشأن الغلام الذي قتله. والذي سبق فيه القول : ﴿**فانطلقا، حتى إذا لقيا غلاماً فقتله، قال أقتلت نفساً زكيّةً بغير نفس لقد جئت شيئاً نكُراً.**﴾ وقد أوّل فعله هذا بقوله :

الآية ﴿٨٠﴾

﴿**وأمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً.**﴾

فبماذا نؤوّل الغلام في هذه الآية الكريمة ليرتبط مضمونها بتسلسل الآيات الموضوعي الذي دأب على الكلام عن الذّين اتّخذوا لله ولداً؟

أعود بالقارىء أولاً إلى معجم محيط المحيط الذي شرح لنا دلالة لفظ الغلام وقال : (الغلام من غَلِمَ الرّجل يغلم غلماً وغلمةً غلب شهوةً واشتدّ شبقُهُ. والغِلمة شهوة الضّراب أو شدتها من ذلك الغلام الطارّ الشارب أي الطالع الشّارب.). ونعود إلى معجم مقاييس اللّغة الذي كتب يقول : (الغين واللاّم والميم أصلٌ صحيح يدلّ على حَداثة وهَيَجُ شهوه. من ذلك الغلام الطارّ الشارّب. وهو بين الغلوميّة والغلومة. والجمع غلمة وغلمان. ومن بابه : اغتلم الفحل غُلمةً : هاج من شهوة الضّراب. والغيلم الجارية الحدثة.).

من هذه الأقوال ندرك أنّ لفظ الغُلام فيه الدلالة على بلوغ الحَدَث سنَّ الرّشد من جهة، وعلى اكتمال القوّة الجنسية عنده، وميله بل اندفاعه إلى كثرة الضرّاب والشّبق. فإن رآى أحدنا أيّا كان في منامه على شكل غُلام، يؤوله على أنّ هذا الإنسان فقد الإتزّان الخُلُقي واندفع وراء قضاء شهواته، وماعاد له من مقصدٍ في حياته إلاّ اللهو واللّعب وحياة المجون.

والآن مادمنا بصدد ماأنبأ به إسراء موسى عن أمته ومصيرها وخاصّة منها الذين ينسبون أنفسهم لفتى موسى أي للمسيح زوراً وبُهتاناً. فهذا كلّه يأخذ بأيدينا ويوّجهّنا لنؤّول الغلام الوارد ذكره في هاتين الآيتين الكريمتين على أنّ المقصود به هو هذا المسيح الدّجال، الذي بلغت شعوبه رشدها الحضاري والعلميّ، وانتهجت نهج النظام الرأسمالي المستغلّ، وأخذت تفكّر تفكيراً ماديّاً محضّاً، لاتعلم من مقصدٍ لوجودها إلاّ اللّهو واللّعب وقضاء الشّهوات دون وازعٍ من شرع وضمير. حتى تفككّت أواصر نظام الأسرة عندهم، ضاربين بتعاليم موسى وفتاه عرض الحائط. وكان مرض الإيدز أحَدُ نتائج هذه الحياة الماجنة الغلاميّة. وهؤلاء هم الذين أنذرتهم سورة الكهف بقوله تعالى﴿**وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً جرُزُاً.**﴾. وها أنّ هذا الإنذار قد جاء مصداقاً لما رآه موسى عليه السلام في إسرائه من أنّ محمداً لقي هذا الغلام فقتله. وماعتراض موسى في الآية : ﴿**أقتلت نفساً زكيّةً بغير نفس؟**﴾ إلاّ من قبيل الحدث والتّصور الشخصي. فما كان موسى يعلم الغيب والمصير الذي ستؤول إليه أمتّه وأمّة فتاه. لذلك استنكر ماأراه الله تعالى إيّاه في إسرائه بما يتعلّق بقتل هذا الغلام.

وتحمل ألفاظ هذه الآية الكريمة من سورة الكهف إشارة واضحة إلى أنّ الله تعالى كان قد قدّر منذ الأزل أن يترك هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً، لينهضوا آخر نهضة لهم ويصلوا إلى ماوصلوا إليه في عصرنا، ليُلقي عليهم آخر حجة ليثبت منها أنّهم ماعادوا يستحقّون اسم موسى ولا اسم عيسى، وأنّهم تمردّوا على المقصد من وجودهم، وأنّ بقاءهم عاد شرّاً على أبويهم المؤمنين موسى وعيسى ويُرهقانهما طُغياناً وكفراً.

وليعد القارىء معي مُجدّداً إلى معجم محيط المحيط لننظر فيما كتبه عن دلالة لفظ (يرهقهما) قال : (الإرهاق من رهق الرّجل أي سُفه، وخفّ، وركب الشرّ والظّلم، وغشي المحارم وكذب وعجّل.) وهل تنطبق هذه المعاني إلا على هؤلاء الذين اتّخذوا لله ولداً. الذين إن سافر أحدنا إلى بلادهم أوربة وأمريكة، فلا يجد في بيئتهم من إثرٍ عمليّ لتعاليم موسى وعيسى إلاّ الإسم وتربية الكلاب؟

وهل عاد أيّ باحثٍ محايدٍ باستطاعته الدفاع عن قادتهم الذين عادوا من خلال مؤامراتهم التي يحيكونها ضدّ الإسلام خاصة، عادوا عالة وإرهاقاً على المؤسّس الأول لدينهم وهو موسى عليه السلام؟

وهذا العبد الصّالح الذي فجّر الله عز وجلّ على يديه نهر الإسلام العظيم أضاف يقول في تأويله لِما فعله : ﴿**فأردنا أن يُبدّلهما ربُّهما خيراً منه زكاةً وأقرب رُحماً.**﴾ أي أنّ من فضل ربوبيّة الله تعالى على موسى ورحمته عليه أن بعث هذا الرّسول المشرّع المثيل له ليُنذر بواسطته هؤلاء بعذاب الله ويُدّمرهم ويستبدلهم بالّذين يؤمنون بهذا الدّين الإسلامي الذّين يُعظّمون موسى وعيسى، ويُنزلوهما منزلتهما الحقيقيّة ويؤمنون بهما ويدعون لهما كلّما ذكروهما، ويكون الله تعالى قد أبدى بذلك وجه ربوبيّته لهذين النبيّين الكريمين وفتح لهما باب زيادة القرب من الله وتلقّي رحمته. وبإهلاك الله تعالى هذا المسيح الدجال أخيراً يكون الله تعالى قد خلّص أبويه موسى وعيسى من هذا الإرهاق الذي يُلحقه المسيح الدجّال بهما في الحياة الدنيا والآخرة أيضاً. فهذا هو تأويل قوله :

> الآية ﴿ ٨١ ﴾
>
> ﴿ **فأردنا أن يبدّلهما ربّهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحماً.** ﴾.

وهكذا نكون قد أوّلنا "خرق السفينة" وإعابتها، بالفارق مابين النظامين الإسلامي والغربي الرأسمالي، ومايأخذه الرأسماليون على هذا النّظام من مآخذ وطعون. ونؤوّل "قتل الغلام" بالدمار الذي سينزل بالنظام الرأسمالي المستغلّ وأهله. على اعتبار أن هذا العذاب مُقدّرٌ لهم دعماً لمكانة موسى وعيسى عند الله، ولكونهما يشكلان حلقتين من حلقات سلسلة الرسالات السّماوية في منطقتنا، هذه السلسلة التي كُملت وخُتمت ببعثه محمد المصطفى سيد المرسلين، المبعوث للناس كافة وإلى يوم الدين.

وننتقل من ذلك كلّه إلى تدبّر وتأويل آخر حلقةٍ من قصّة اسراء موسى عليه السلام. خاصّة منها مايتعلّق بالجدار الذي كان يريد أن ينقضّ، فأقامه هذا العبد الصالح محمد ﷺ.وقد سبق مضمون ذلك في قوله تعالى : ﴿**فانطلقا، حتّى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن**

يضيّفوهما، فوجدا جداراً يريد أن ينقضّ فأقامه، قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً.﴾ وقد أوّل العبد الصالح ماقام به بقوله :

الآية ﴿ ٨٢ ﴾

﴿وأمّا الجدار فكان لغُلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنزٌ لهما، وكان أبوهما صالحاً، فأراد ربّك أن يبلُغا أشـدُهّما ويستخرجا كنزهما، رحمة من ربّك، ومافعلته عن أمري، ذلك تأويل مالم تسطعْ عليه صبراً.﴾

وأعقد مافي هذا القسم من إسراء موسى، هـو كيـف نتمكـن مـن الوصـول إلى تـأويل **﴿.. كـان لغلامـين يتيمـين في المدينـة..﴾**، وبتـأويلٍ يحقّـق للقـارىء إمكانيـة ربطـه بالتّسلسـل الموضوعي للآيات الكريمة.

أقول إنّني دعوت كثيراً إلى أن فتح الله عز وجلّ عليّ تأويل ذلك وسبيل الوصـول إلى هذا التأويل. وبصورةٍ أدهشتني حدّاً، خصوصاً وأنّ مافتحه الله عز وجلّ علـيّ مـن علـمٍ هنـا لم يكن حصيلة جهدي ولاتفكيري، بل بفضل من الله ذي الفضل العظيم.

فقد دُفعت دفعاً لاشعورياً لإلقاء نظرة على نبوءات قصة إسراء موسى، ولربطها بزمـن أبي الأنبياء ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام. على اعتباره الأب الرّوحي لجميع أنبياء منطقتنا العربية. خصوصاً وأنّ جميع الأنبياء مُبشَّرٌ بهم ومن نسل ابراهيم عليـه السّـلام. وعلى اعتبـارأنّ آخر حلقة من هذا الإسراء مُنسلكةٌ في دلالاتهـا في حقيقيـة أمرهـا بتـاريخ إبراهيـم أبـو الانبيـاء وبالأنبياء من نسله. وأنّ قول هذا العبد الصالح، والذي أدركنا أنّ المقصـود بـه هـو محمـد خـاتم النبيين ﷺ.فقوله : **﴿رحمةً من ربّـك، ومافعلتـه عـن أمـري..﴾** يشـير إلى ضـرورة إجـراء هـذه النّظرة الشمولية على تاريخ هؤلاء الأنبياء. ذلك أنّ حلقات هذا الإسراء، تتعلّـق بنهايـة سلسـلة الأنبياء المبعوثين من نسل إسحاق، ومن ثم يتحقّق الدّعاء الإبراهيمـي المتعلق ببعثة محمـد النبي الأمي العربيّ (ﷺ) .

وبألفاظ أخرى، فلا ينبغي للقارىء أن يتدبّر هذه الحلقة الأخيرة من اسراء موسى بمعزلٍ عن هذا الموضوع الذي وضّحَتْهُ لنا سورة البقرة من أوّل الطريق.

وألا نتلو قول الله عز وجل: **﴿وإذ جعلنا البيت مثابةً للنّاس وأمناً، واتّخِذوا من مقام إبراهيم مُصلّى، وعَهِدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والرّكع السّجود.﴾**(١). فقد أشار مضمون هذه الآية الكريمة صراحةً إلى أنّ نسل إسماعيل عليه السّلام هو المكلّف أصلاً بسَدَنَة البيت الحرام وبتطهيره وتهيئته للطّائفين والعاكفين والركّع السّجود. وهذا الأمر قد ثبت لكل من طالع تاريخ هذا البيت. ولم يحظ نسل اسحق بشرف حمل هذه المهمة، ولابتلك الخدمات في يوم من الأيّام.

وقد أكّد ماذكرته آنفاً وصيّة ابراهيم التي وصّى بها بنيه : **﴿ووصّى بها ابراهيم بنيه ويعقوب : يابنيّ إنّ الله اصطفى لكم الدّين، لا تموتُنّ إلاّ وأنتم مسلمون. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموت، إذ قال لبنيه : ماتَعبدون من بعدي؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق، إلهاً واحداً، ونحن له مسلمون.﴾**. وأفلا نلاحظ هذا الترتيب، الذي لايخلو من الحكمة **﴿.. ابراهيم واسماعيل واسحق..﴾**؟ فلا يُعقل إلا أن يكون لهذا التّرتيب ارتباط بمنزلة اسماعيل ودور نسله فيما يتعلق بخدمة البيت الحرام وتثبيت دعائم التّوحيد الإبراهيمي وملّة الحنيفيّة الإبراهيمية أيضاً.

وأفلا نتلو الدّعاء الذي دعا به ابراهيم واسماعيل عليهما السلام : **﴿وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل : ربّنا تقبّل منّا إنّك أنت السّميع العليم. ربّنا واجعلنا مُسلمين لك ومن ذريّتنا أمّةً مُسلمةً لك، وأَرِنا منا سكنا وتُب علينا، إنّك أنت التّواب الرّحيم.﴾**؟ وهذا الدّعاء أشار من طرفٍ خفّيٍ إلى أنّ حملة التوحيد الحقيقي سيكونون من ذرّية إسماعيل عليه السلام الذي اختصته رحمة ربّه بمرافقة أبيه في رفع قواعد البيت الحرام.

---

(١)- سورة البقرة - الآية (١٢٥).

والله جلّ شأنه وقد أضاف قوله : ﴿ **ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمُهُم الكتاب والحكمة ويزكيّهم، إنّك أنت العزيز الحكيم.**﴾، فكأنه قال بألفاظٍ أخرى إنني استجبت دعاء ابراهيم وسأبعث محمداً خاتم النبيين منزلاً عليه الكتاب الكامل التعاليم بدلالة تعريف الكتاب بالألف واللام، والمتضمن كامل تعاليم الحكمة وبدلالة تعريف لفظ الحكمة أيضاً بالألف واللاّم، وذلك لإكمال نشر عقيدة التوحيد في العالم وفق ملّة ابراهيم عليه السلام.

والذي نُلاحظه هو أنّ الله عز وجلّ لم يقتصر على ماذكرناه، بل أضاف ملمّحاً ومُهدّداً : ﴿**ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلاّ من سَفِه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا، وإنّه في الآخرة لمن الصّالحين.**﴾. وإنّ لفظ (سَفِه) اشتُقّ من السّفه والذي يعني الخفة والحركة والاضطراب (١). لذلك اصطلح الفقهاء والأصوليّون كلمة السّفه بمعنى : خفةٌ تعتري الإنسان فتبعثه على العمل، بخلاف موجب العقل والشرع. وبنوا على اصطلاحهم المذكور ضرورة منع السّفيه من استلام المال وانفاقه، ووجوب الحجر عليه ونحو ذلك من أمور.

والمتدبّر لكلام الله عز وجلّ لابدّ أن يتساءل هنا عن حكمة التعرّض بالكلام عن الذي برغب عن ملّة ابراهيم بعد الدّعاء الابراهيمي مباشرة. واستثناء هذا السّفيه من أن يشمله استجابه الله للدّعاء الإبراهيمي وذلك بأداة (إلاّ) حيث قال : (.. إلاّ من سَفِه نفسه..) بمعنى إلاّ من أهلك نفسه وأوبقها (٢)وبذلك يكون في هذا الإستثناء إشارة إلى ظهور هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً، ورغبوا عن ملّة ابراهيم عمليّاً وعقائديّاً، وأرهقوا موسى عليه السّلام وفتاه عيسى ابن مريم معه أيضاً. هذا في وقتٍ ينسبون أنفسهم إليه ظُلماً وزوراً. هؤلاء الذّين أنذروا في الآيات الاوائل من سورة الكهف هذه.

---

(١)- محيط المحيط.

(٢)- لسان العرب.

والآن إن نحن تصوّرنا مصير هؤلاء وحالة السّفَهَ التي وصلوا إليها ورغبتهم عن ملّة ابراهيم، وهل يعني ذلك المصير الشؤم إلاّ أن ابراهيم عليه السّلام الذي قال الله تعالى عنه: ﴿**ولقد اصطفيناه في الدُّنيا، وإنّه في الآخرة لمن الصالحين.**﴾ إلا أن يكون هو نفسه المقصود من قوله تعالى : ﴿.. **وكان أبوهما صالحاً..**﴾، أي كان ابراهيم أبو موسى وعيسى الروحيّ صالحاً وهل يعني ذلك المصير المشؤوم إلاّ أن يكون موسى وفتاه هما المقصودان من قوله تعالى : ﴿.. **لغلامين يتيمين**﴾؟ ذلك أنه بهلاك اليهود والنصارى بالعذاب الواقع بهما في المستقبل يعود موسى وعيسى يتيمين لأبٍ روحيّ صالحٍ هو ابراهيم عليه السّلام.

والغلام على حسب ماورد في تعطير الأنام: (هو في المنام بشارة، لقوله تعالى يابُشرى هذا غلام.)(١). ولاشك أن موسى وعيسى كانا نبيّين قد بُشّر ببعثتهما أبوهما الصالح ابراهيم عليه السّلام. والمقصود من يتيمين هنا إشارة إلى أمّتيهما خاصّة، على اعتبار أنّ اليهود والنّصارى يمثّلهما موسى وفتاه المسيح عيسى ابن مريم. بدلالة قوله تعالى : ﴿**لغلامين يتيمين في المدينة..**﴾ فلم يقل في القرية بل قال : في المدينة وهذا التّفريق بين اللفظين للإشارة إلى هذه المدنيّة التي توحّد بين هؤلاء اليهود والنّصارى الراغبين عن ملّة ابراهيم وتظهرهم بمظهر القاطنين في مدينة واحدة. فإلى هذه الحقيقة ورد تعريف لفظ المدينة بالألف واللاّم. فلو قال في القرية التي تعني تجمُّعاً سكانياً وحسب، لكان استحال تأدية المعنى الذي أشرت إليه.

والجدار يُؤوّل كما ورد في تعطير الأنام (الحائط رجلٌ منيعٌ صاحب دين.)(٢). وهل يمكن أن يُقصد به هنا إلاّ محمداً رسول الله ﷺ نفسه. فهو الجدار الذي نصبه الله عز وجلّ زمن بعثته ليرّد عن عقيدة التوحيد وملّة ابراهيم العوادي التي أحاطت بها من جرّاء الانحرافات التي كان قد وقع فيها يهود ونصارى زمانه.

ولايؤوّل الكنز الذي تحت الجدار إلاّ بهذا القرآن العظيم المعطاء والذي هو في هذا الكتاب المكنون الذي لايمسُّه إلاّ المُطهّرون . فلا يستفيد منه الذين أعرضوا عن ملّة ابراهيم

---

(١)- كتاب تعطير الأنام في تأويل المنام - ج٢ ص١١٣.

(٢)- نفس المرجع السابق - ج١ ص١٥١.

وسيلحق بهم العذاب والدّمار. وإنّما هو كنزٌ مُخبّأً لمن سيسلم من عذاب الله من هؤلاء اليهود والنّصارى، والذبن سيتيقّنون أخيراً أنّ سلامتهم لاتتحقّق إلا بالرجوع إلى ملة جدّهم ابراهيم الحنيفية، واعتناقهم الإسلام ديناً.

والذي يتدبّر قوله تعالى بحقّ ابراهيم عليه السّلام : **﴿وإنّه في الآخرة لَمِنَ الصّالحين﴾**، يتبادر لذهنه من خلال لفظ الآخرة، أنّ المقصود بها دار الآخرة ويوم الحساب.على حين أنّ هذا الإنسان إذا أعاد نظره وفكّر مليّاً ، واستعرض جميع الآيات الكريمة ، فلايجد أن لفظ (الصالحين) قد ورد مُقترناً باسم أيّ نبيّ من أنبياء الله تعالى ومرسليه بما يتعلق بدار الآخرة. بل ورد وصفاً لحال جميع الأنبياء أنّهم في الدّنيا من الصّالحين. ذلك أنّ هذه الصّفة تتأتى عن أعمال الإنسان في الدنيا لقوله تعالى **﴿وانفقوا مّما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموتُ فيقول ربّ لولا أخّرتني إلى أجلٍ قريبٍ، فأصدّقَ وأكنْ من الصالحين.﴾**(١). أي أعود إلى الحياة الدنيا فاصدّق وأكن بذلك من الصالحين.

فالمقصود من لفظ الآخرة في هذه الآية، آخر الزمان والنهاية التي ستؤول إليها البعثة الاسلامية الأولى التي ابتدأت ببعثة خاتم النبيّين ﷺ. وهي اصطلاح قرآني وضّحتُه في كتابي " فنّ الاختزال في القرآن الكريم ". خصوصاً وأنّ صيغة **﴿وإنّه في الآخرة لمن الصالحين﴾** اختُصّت بابراهيم عليه السّلام وحده، ولم ترد بحقّ أحدٍ من أنبياء الله الكرام.

وقد أشار الله جل شأنه بهذه الفقرة من الآية من سورة البقرة إلى زماننا بالذات. هذا الزّمن الذي رغب فيه الذين اتخذوا لله ولداً عن ملّة ابراهيم عقيدةً وعملاً، وسفِهوا بذلك أنفسهم، على اعتبار أنهم اظهروا هذا الجدّ الصالح وكأنّه أنجب هؤلاء السّفهاء غير الصالحين. لذلك قال تعالى مؤكّداً صلاح إبراهيم : **﴿وإنّه في الآخرة لمن الصالحين﴾**، مؤكّداً على أن هلاك هذا القسم المعاصر من قومه هو ضرورة حتميّةٌ ولتشكّل نهايتهم البشعة هذه دليلاً بيّناً على صدق الإسلام، فتؤكّد أن المسلمين وحدهم هم الحُنفاء وهم على ملّة ابراهيم وليس هؤلاء.

(١)- سورة المنافقين - الآية (١٠) .

ولنختصر الآن ماأوّلناه من ألفاظ وتعابير هذا القسم الأخير من قصّة إسراء موسى ونقول إنّه قد احتوى على عشر عناصر أوّلناها وأظهرنا دلالاتها وهي :

أولاً - الحائط الذي يريد أن ينقضّ، فهو في الأصل يشير إلى بعثة محمد ﷺ الرّجل الأمين صاحب الدّين والمنيع الشخصيّة، وهو الذي بعثه الله تعالى أصلاً كحائطٍ يحمي حمى ملّة إبراهيم، ويصدّ عنها تيارّات الانحرافات التي وقع فيها اليهود والنّصارى عبر تاريخهم الطويل.

ثانياً - وقد أوّلنا الكنز الذي تحت الحائط بعلوم القرآن الكريم ومعارفه، والذي سيستفيد ممّا احتوى عليه من علوم ومعارف كل من سينجو من عذاب الله المقدّر لليهود والنصارى بعد أن يبلغوا أشُدّهم كنتيجةٍ طبيعيةٍ لتطّور الأحداث التي سيعاصرونها.

ثالثاً - كما أوّلنا تصدّع الجدار، بتصدّع المجتمع الاسلامي المعاصر وتخلّف هذا المجتمع عن تعاليم القرآن الكريم. وقد بشّرنا الله ربّنا أنه سيتلطّف بالإسلام ويعيد الجدار إلى ماكان عليه من القوّة والمنعة. وتتضّمن هذه البشارة الإشارة إلى بعثة المجدّد المهدي المعهود.

رابعاً - وأمّا كيف سيُعاد بناء جدار الإسلام، فأمرٌ سيأتي بيانه ضمن الآيات المقبلة يقيناً.

خامساً - وقد أوّلنا الغلامين اليتيمين بموسى وفتاه عيسى بن مريم،ودلالتهما على أمتّيهما اللّتين قطعتا صلتهما بملّة ابراهيم الحنيفية.

سادساً - وأما الأب الصالح فقد أوّلناه بأبي الأنبياء ابراهيم عليه السّلام.

سابعاً - وأولّنا المدينة أن المقصود بها المدنيّة المعاصرة مدنيّة هؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً.

ثامناً - وعلى هذا الأساس من التأويل كلّه، فلا يكون المقصود (من أهل قريةٍ) إلا هؤلاء اليهود والمسيحيين وتجمُّعاتهم السّكانيّة. والمنتشرة هنا وهناك. فهؤلاء هم الذين استطعمهم موسى والعبد الصالح محمد ﷺ أي دعاهم إلى التّعاون واللّقاء، فأبوا أن يضيّفوهما. وقد انطلقنا في تأويل ذلك ممّا ورد في تعطير الأنام قوله : (الضيّافة اجتماعٌ على خير)(١). أي دعاهم الإسلام ليتعاونوا معه على أساس مشترك من الخير فوقفوا من دعوته موقفاً سلبياً. دعاهم بقوله تعالى:

---

(١)- كتاب تعطير الأنام في تأويل المنام - ص٥٨..

﴿قل ياأهل الكتاب تَعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألاّ نعبدَ إلاّ الله، ولانشركَ بـه شيئاً، ولايتّخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولّـوا فقولـوا اشـهدوا بأنّـا مسـلمون. يـاأهل الكتاب لِمَ تُحاجّون في إبراهيم ومأانزلت التوراة والإنجيل إلاّ من بعده، أفلا تعقلون. هـاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علمٌ، فلِمَ تُحاجّون فيما ليس لكـم بـه علـم، والله يعلـم وأنتـم لاتعلمـون. ماكـان ابراهيـم يهودياً ولانصرانياً ولكـن كـان حنيفاً مُسـلماً، ومـاكـان مـن المشركين﴾.(١).

تاسعاً ـ وعاد تأويل قوله تعالى : **﴿فـأراد ربّـك أن يبلغـا أشـدّهما ويسـتخرجا كنزهمـا..﴾**، وعلى ضوء ماأورده صاحب معجم (محيط المحيط) بما يتعلّق بلفظ (أشدّهما) أنـه اشـتق مـن بلـغ أشدّ عقله أو سنّه. والمقصود أنّ المسيحيين واليهود لم يبلُغوا أشُدّ عقلهما بعد.فبـالرغم مـن هـذا الرقي العلمي الذي بلغوه، وهذه المدنيّة التي أسّسوها، فقد نسـوا المقصـد مـن حيـاتهم، وتعـاليم النبيّ الذي ينتسـبون إليـه، وراحـوا يسـتغلّون رقيّهـم العلمـي للّهـو واللّعـب وقضـاء الشـهوات وتحصيل الملذّات الماديّة.فهم سيداهمهم عذاب الله المُنذريـن بـه، ليصحـو مـن يتبقـى منهـم مـن غفلته ويعودوا إلى رشدهم ويبلغوا بذلك أشدهم ويتقبّلوا الاسلام ديناً إنمـا بعـد فـوات الأوان. ولنلاحظ أنّ إشارة وقفٍ بدت موضوعة بعد لفظ (كنزهما)، دلالة على أن قصّة إسراء موسـى قد انتهت عند إشارة الوقف هذه.

عاشراً ـ وقال بعد ذلك جل شأنه : **﴿رحمة من ربّك، ومافعلته عـن أمـري، ذلـك تـأويل مـالم تَسطع عليه صبراً.﴾** بمعنى أنّه تعالى راح يُواسـي موسـى عليـه السّـلام بمـا يتعلّـق بمصـير أمتـه. وينبّهه إلى أنّ هلاك أمته الذين رغبوا عن ملّة جدّه ابراهيم، هـو في حـدّ ذاتـه رحمـة مـن ربّـك، ويكفي أنّه جلّ شأنه استمهلهم بعد تفجير نهر الاسـلام بـين جنتّيهـم إلى الوقـت الـذي احتـاج الإسلام نفسه إلى إعادة تعمير ماوقع فيه المسلمون من تخلّف وانحرافٍ عـن جـادّة هـذا التوحيـد الذي أتى به محمدٌ ﷺ وهذا الكتاب الذي أنزله الله على قلبه.

---

(١)- سورة آل عمران - الآية (٦٤).

إلى هنا نكون قد أحطنا علماً بما تضمّنته قصّة إسراء موسى على وجه التقريب، وعلى اعتبار أنّ المقام لايتسّع لاستنباط معلوماتٍ غيبيةٍ منها أكثر ممّا استنبطناه. ويكفي أننّا تمكّنا من ربط المعلوماتِ هذه بالتسلسل الموضوعي للسّورة. واتّضح لنا صلتها بدعوة التوحيد الذي أتى به أبو الانبياء ابراهيم عليه السّلام. وأنّ بعثة محمد ﷺ زمن انحراف أمة موسى وعيسى عن التوحيد الحقيقي كان قد بات ضرورة مُلّحة لامناص منها. وأنّ الدعاء الابراهيمي ونبوءة سفر التثنية ١٨/١٨ ونبوءة الإنجيل كانت جميعها تصبّ وتركّز على انتهاء دور السلسلة الموسوية، وبدء السلسلة المحمديّة التي قُدّر لها أن تكون من نسل اسماعيل عليه السلام. كما أفادتنا قصّة إسراء موسى بمعلومة هامة وهي الاختلاف الكبير الحاصل بين تعاليم موسى وتعاليم الاسلام لكون التعاليم الموسويّة قومية مرحلية، على حين أنّ تعاليم الاسلام تعاليم عالمية للناس كافة، ولكل زمان ومكان. وأنّ عدم تقيّد المسيحيين بتعاليم المسيح انحرف بهم إلى رأسمالية مستغلّة بشعةٍ تتنافى وتعاليم موسى وعيسى وتعاليم جميع أنبياء الله الكرام. كما أفادتنا قصّة اسراء موسى بمعلومة هامة وهي أنّ عذاب الله مقدّرٌ لإهلاك المسيحيين وأنّ من سيتبقّى منهم فلن يجد سبيلاً أمامه إلا اعتناق الاسلام ديناً. خصوصاً وأنّ الله عز وجلّ هيّأ من الأسباب الخفيّة التي ساعدت على المحافظة على نبوءات موسى وعيسى بحقّ بعثة محمد ﷺ ومقامه الرّوحاني.

ونستذكر هنا أننا فهمنا من تصدّع الجدار والذي كان يريد أن ينقضّ، فهمنا منه وأوّلناه بتخلّف مسلمي آخر الزمان، الذين يُعاصروننا. وأنّ إقامة هذا الجدار ستكون على أيدي محمد ﷺ نفسه أو ظلّه الذي ينوب عنه المجدد المهدي وهو العبد الصالح نفسه الذي تراءى لموسى في إسرائه. وهذا موضوع يظلّ مُبهماً إذا لم تتوسّع سورة الكهف في شرحه وإلقاء الضوء على تفاصيله. فهذا سؤال كان لابدّ من الإجابة عليه موضوعيّاً. ولم يبخل علينا ربّنا بالإجابة على هذا السؤال. بل ابتدأ جوابه على تساؤلنا المذكور بفعل" يسألونك "، وأتى بواو العطف قبله تأكيداً منه جل شأنه على وجود الرابطة التي تربط قوله هذا بما قبله وقال :

الآية ﴿٨٣﴾

﴿ ويسألونك عن ذي القرنين، قل سأتلوا عليكم منه ذِكراً.﴾

ومعنى ﴿**يسألونك**﴾ يتوسّلون إليك أن تخبرهم عن شخصية هذا المجدّد الـذي سيحقّق الله عـز وجل على يديه إعادة بناء الجدار الإسلامي المتصدّع. أي يستخبرون منك، على اعتبار أن فعـل سأل تعدّى إلى مفعوله الثاني بحرف الجرّ (عن). وكأنّ نفس القارىء تاقت إلى معرفة شأن هـذا الإنسان المسلم الذي سيشكّل سفينة النّجاة والخلاص للإسلام بعد أن تزعزعـت صفـوف أبنائـه وعادوا يقولون مالا يفعلون وباؤوا بمقـتٍ مـن ربّهـم، وعصفـت بهـم ريـاح الأعـداء مـن كـلّ جانب.

ولا أرى من مبرّر هنا لي للدّخول فيما هو جارٍ من جدلٍ عقيمٍ بين المسلمين حول هذا الموضوع. فقد حسم الله عز وجلّ هذا الأمر حين قـال : ﴿ **ولّمـا ضُـرب ابـن مريـم مثـلاً إذا قومك منه يصُدّون.**﴾(١). وقد شرحت ذلك في (فن الاخـتزال ص١٧٣) حيـث قلـت هنـاك : (الله عز وجلّ ينذر المسلمين إذا ماتقاعسوا في حمل رسالة الاسلام إلى العالم يُنذرهم ببعث مثيلٍ ونظيرٍ للمسيح ابن مريم الذي كان بعثه الله تعالى لإحياء شريعة موسى وإكمال رسالته. وقد تمّ بعث المسيح بن مريم بعد بعثة موسى بأربعة عشر قرناً من الزمان. أي أنّ نظير ابن مريم ومثيلـه سوف يبعثه الله تعالى بعد محمد رسول الله ﷺ بأربعة عشر قرنا من الزمان. فهـذا هـو مافهمـه هذا الباحث المتدبّر من قوله تعالى هنا، وبصورة ملفتةٍ لأنظار الباحثين : ﴿**ولّما ضُرب ابن مريـم مثلاً، إذا قومك منه يصدّون**﴾.ويصدّون عنه بمعنى لايسـتجيبون لـه بالسّـرعة المطلوبـة. فالآيـة الكريمة المذكورة تنبىء إذن عن الذي تحدّثت عنه أحاديث رسول الله ﷺ المتعلقة بنزول المسـيح في آخر الزّمان والوارد فيها (وإمامكم منكم) بمعنى أنه مثيل ابن مريم وليس شخصه).

قال﴿**ويسألونك عن ذي القرنين**﴾ لفظ القرنين مثنى قرن. من قـرن أي جمـع. تقـول قرن بين الحجّ والعمرة أي جمع بينهما. والقارن اسم فاعل. والقرن مـن القـوم سيّدهم. والقـرن مائة سنة وعليه جرى المؤرّخون في قولهم كان فـلان في القـرن السّـابع مثـلا (٢). ويصبـح معنـى ﴿**ويسألونك عن ذي القرنين**﴾ أي يستخبرون منك عن هذا المثيل للمســـيح بن مريم والذي

---

(١)- سورة الزخرف - الآية (٥٧).

(٢)- محيط المحيط.

سيبعثه الله تعالى بعد أربعة عشر قرناً مـن بعثة رسـول الله ﷺ بمهمّـة إحيـاء الاسـلام، والـذي يكون مجدّداً على رأس قرنين زمنيين من الزمان وليس مائة سنة أي وليس مجدد قرن واحد كمـا كان حال المجدّدين من قبله.

ولابدّ من التّنويه هنـا إلى أنّ سلسـلة المجدّديـن قبـل "ذي القرنـين" كـانت موضعيـة. حيث كان يُبعث مجدّد في البلد الذي أحدث أهله بعض الانحرافـات، خصوصـاً وأنهـا كـانت للمسلمين دولة وسلطان. أمّا وقد انفرط عقد هذه الدّولة بعد هزيمـة الاتـراك في الحـرب العالميـة الأولى. وانقسم المسلمون إلى دويلاتٍ، وعادوا يقولون مالا يفعلون.فقد اقتضى الأمر بعثة مجـدّدٍ بمهمةٍ عالميّةٍ وليس بمهمّة موضعية. وعلى هذا الأساس فقد وردت له أسماء وصفيّة علـى حسـب مهمّته، ومن هذه الأسماء " الإمام المهدي"ليعيد الهدايـة إلى النفـوس ومنهـا " المسـيح بـن مريـم" كمثيل للمسيح الناصري يكسر الصّليب ويقتل الخنزير، ومنها حكماً عدلاً ليفصل فيما وقع فيه المسلمون من الاختلافات، ومنها "ذو القرنين" كمجدّد على رأس قرنين زمنيّين. المهمّ أنّه شخص من داخل صفوف المسلمين، وليس من خارجها.

وأضاف: ﴿**قل سأتلوا عليكم منه ذكراً**﴾ وكلمة قـل بمعنـى بلّـغ هـؤلاء المسـتخبرين منك عن هذا المجدد "ذي القرنين" ﴿**سأتلوا عليكم منه ذكراً**﴾ فأتى تعالى بحرف السّـين، وهـو حرف توسيع ينقل المضارع من الزّمن الضيّق وهو الحال، إلى الزّمان الواسع وهو المستقبل.

تنبيهاً إلى أنّ بعثة ذي القرنين ستكون في المستقبل. ﴿**وذكراً**﴾ من الذكر وهـو الصّيـت الحسـن والثناء والشرف. والذكر من القول الصّلب المتين. والمعنى سأقرأ عليكـم في المسـتقبل وأكشـف لكم قولاً صلباً متيناً يومئذٍ عن شخصه ومهمّته. وأضاف تعالى يقول :

الآية ﴿ ٨٤ ﴾ ﴿ **إنا مكنّا له في الأرض، وآتيناه من كلّ شيءٍ سبباً.** ﴾

فاستعمل جل شأنه صيغة ضمير المتكلم (إنّا) إشـعاراً بـالقرار السّـماوي المُتّخـذ لاصـلاح حـال المسـلمين . ﴿ **إنّا مكنّا له في الأرض** ﴾ وقال ﴿ **مكنّا** ﴾ من مكنّه من الشيء جعل له سلطاناً

وقدرة عليه(١) وتمكّن من الأمر قَدِرَ عليه وظفر به. ثم أتى بلام التمليك وقال (لـه في الأرض) أي أنّ هذا التمكّين يكون بين أهل الأرض ليقبلـون مهمتـه السـماويّة ويصدّقونـه ويدعمونـه. وأضاف :﴿وآتيناه من كلّ شيءٍ سبباً﴾ فأتى بواو العطف ليضيـف أمـراً آخر غير التمكّين لذي القرنين في الأرض، وقال ﴿وآتيناه﴾ من أتى إليه الشّيء ساقه إليه. وآتى فلانا شيئاً أعطاه إياه. وجوابا على السؤال عن هذا العطاء قال :﴿آتيناه من كل شيءٍ سبباً.﴾ والسّبب في اللّغة مايُتوصل به إلى غيره (٢) والحبل. وورد في الكلّيات : يقال السّبب للطريق لأنك بسببه تصل إلى الموضع الذي تريده. ويرادف السّبب : العلّه ويُسمى بالمبدأ (٣).

أي أنّ مهمة هذا المجدّد (ذي القرنين) هي من السّعة إلى درجةٍ اقتضى الحال معها أن يسهلّ الله له أمرها، فيوجِدُ بإلهامٍ منه تعالى أسباب هذا التّيسير، ليكمل مهمّته السّماوية وبصورة ماسبق أن تهيأت هذه الأسباب لأحدٍ سواه من قبله. إشارةً منه جلّ شأنه إلى ماخلق من وسائل إتّصال ونقل تساعده على إيصال ونقل مايتلّقاه من ربّه إلى أقصى أقطار المعمورة كاختراع القطار والسيارة والطائرة وسواها من وسائل النقل. إلى جانب اختراع الطباعة ووسائل الاعلام والنّشر فهذه كل أسباب تساعده ليوصل مؤلّفانه ومنشوراته إلى أقصى الأرضين. إلى جانب اختراع الهاتف والبرق وأجهزة الإتصال المختلفة ومااليها من أسباب.

والحقُ يُقال إنّ جميع هذه الأسباب الأرضية قد توفرت لتيسير مهمّة هذا المبعوث الرّباني منذ بداية القرن الرابع عشر الهجري بشكلٍ ماسبق له مثيل في التاريخ وأضاف تعالى يحدثنا عن نشاط هذا المجدّد "ذي القرنين" وراح ينبأ ويقول :

الآية ﴿ ٨٥ ﴾ ﴿ فأتْبَعَ سبباً.﴾

و لم يقل فاتّبع سبباً. بل أتى بفاء الاستئناف وقال (فأتْبع) من تبعه أي مشى خلفه أو مرّ

---

(١)- أقرب الموارد.

(٢)- محيط المحيط.

(٣)- محيط المحيط.

فمضى معه. والإتباع مصدر أتبع. وهو عند النّحاة يكون في الكلمات، وهو جعل الكلمة الثانية منها تابعة لإعراب الأولى (١)أي أنّ ذي القرنين بدأ نشاطه لتقويم جدار الإسلام المتصدّع، فاستخدم جميع هذه الأسباب التي وفّرها الله عز وجلّ لتيسير مهمته السماوية، استخدمها وأتبعها لصالح تحقيق هذه المهمة العظيمة وهي إعادة مجد الإسلام ورفعته ونشره على العالم كلّه.واتخذ سبباً أي طريقاً لنشر ماأويته من علوم ومعارف في الدّين. وأضاف تعالى يقول :

الآية ﴿٨٦﴾

﴿ حتّى إذا بلغ مغرب الشّمس، وجدها تغرُبُ في عينٍ حمِئة، ووجد عندها قوماً قلنا ياذا القرنين إمّا أن تُعذّب، وإمّا أن تتخّذ فيهم حُسناً.﴾

وقوله ﴿.. **بلغ مغرب الشمس،**﴾ وجدها تغرب في عينٍ حمئه أي في طينٍ مُنتن، يخالف ماكشف عنه العلم ﴿**فالشمس تجري لمستقرٍ لها**﴾ والشمس والقمر كلّ في فلك يسبحون. وهذا الواقع يشكّل قرينة لغوية تمنع الأخذ بالمعنى المتبادر للذهن من الآية، وتنقله إلى دلالتها المجازية.

ويكون المقصود من (مغرب الشمس) الإشارة إلى مُهمّة المجدد ذي القرنين المتعلّقة بشعوب الدّول الغربيّة. هذه الشعوب التي اتّخذت لله ولداً، والتي مافتئت الآيات من سورة الكهف تتحدّث عنها حتى الآن. فهذه الشعوب الأوربية التي سفِهت نفسها واتّبعت شهواتها ورغبت عن ملّة ابراهيم واستغلّت تطورّها العلمي والتقنيّ لاستعمار شعوب الكرة الأرضية واستنزاف خيراتها وظُلمها وتضليلها، تعيش مجازا في (عين حمئة) أي في مستنقعٍ من الإنحطاط الخلقي والرّوحي. أي أنّ القوم هناك منهم من يستحقّ إنزال العذاب به، ومنهم من يستحقّ الحُسنى والهداية. لذلك لاحظناه جل شأنه قد قال ﴿.. **ووجد عندها قوماً قلنا ياذا القرنين إمّا أن تُعذّب، وإمّا أن تتخّذ فيهم حُسناً.**﴾. فأتى بحرف (إمّا) الذي يفيد هنا الإبهام على القارىء ليعود بذهنه إلى سياق الكلام . السيّاق الذي توعّد الله تعالى فيه الذّين اتخذوا لله ولداً

(١)- محيط المحيط.

بقوله ﴿ **وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً جُرُزاً.**﴾ وبشر الله الذّين يتوبون منهم ويتخذون الإسلام ديناً لهم بقوله في السّياق أيضاً : ﴿**إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، إنا لانُضيع أجر من أحسن عملاً.**﴾ وهؤلاءهم الذين سيستفيدون من الكنز المخبّأ تحت الجدار الذي يعيد بناؤه المجدد "ذي القرنين". وإلى هاتين الحقيقتين أضاف تعالى يقول عن لسان هذا المجدد :

الآيتين ﴿ ٨٧-٨٨ ﴾
﴿ **قال أمّا من ظَلَمَ فسوف نُعذّبه، ثم يُردّ إلى ربّه فيعذّبه عذاباً نُكراً * وأمّا من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحُسنى وسنقول له من أمرنا يُسراً.** ﴾

فأتى حلّ شأنه بحرف (أمّا) الشرطية وجوابها مبتدئاً بالفاء أي جملة فيعذّبه عذاباً نكراً، وجملة فله جزاء الحسنى. منبّهاً إلى أنّ الظالمين مستحقّين للعذاب المنذرين به أصلاً.وإلى أنّ الذين سيؤمنون ويعملون الصالحات ويتخلّون عن عقيدة اتّخاذ الولد لله، فلهم جزاءً الحُسنى. على حسب ماورد في قوله تعالى: ﴿**للذّين أحسنوا الحُسنى وزيادة..**﴾(١) وماورد في قوله تعالى: ﴿**للذين استجابوا لربّهم الحسنى..**﴾(٢). علماً بأن الحُسنى تعني الظفر والعافية.(٣).

﴿**وسنقول له من أمرنا يُسراً**﴾ واليسر يعني السّهولة والغنى أيضاً أي سنكلّفه بما يطيقه، وبما يقربّه من ربّه ويغنيه عمّن سواه، إن هو استجاب لهذا الصّوت السّماوي وانضمّ إلى الجماعة المؤمنة التي نؤلّفها بإذنٍ وأمرٍ من الله عز وجل.

أقول ماأعظم هذه النبوءات التي احتوت عليها هذه الآيات الكريمة والتي تبشّر المؤمنين بمستقبل زاهر باسمٍ ومشرق. كما تبشّر في الوقت نفسه بزوال هذا الاخطبوط "المسيح الدّجال" من السّاحة العامة إن شاء الله تعالى.

---

(١)- سورة يونس - الآية (٢٦).

(٢)- سورة الرعد - الآية (١٨).

(٣)- معجم أقرب الموارد.

ومن ثمّ راح الله جل شأنه يوضّح مهمة ذي القرنين بالنسبة للدّول الشرقية وقال:

الآية ﴿ ٨٩ ﴾

﴿ ثم أتبعَ سَبَباً.﴾

وسبق أن وضّحت أنّ معنى (أتبع سبباً) أي أن ذو القرنين استخدم هذه الأسباب التي وفرها لـه ربّه لاعادة بناء هذا الجدار الاسلامي من وسائل نقل واتّصال وطباعة ونشر لنشر مـا أوتيه مـن معارف القرآن وعلومه لصالح الدفاع عن الإسلام واثبات صدقه وحقيقته.

الآية ﴿ ٩٠ ﴾

﴿ حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قومٍ لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾

والمقصود بالشّمس هنا شمس الإسلام التي تجلّت خلال بعثة محمد ﷺ والذي قال الله تعالى بحقّه في كتابه العزيز: ﴿**ياأيّها النبيّ إنّا أرسلناك شـاهداً ومبشّـراً ونذيـراً. وداعيـاً إلى الله بإذنـه، وسراجاً منيراً.**﴾(١).فمحمّد شمس وسراج منيرٌ مجازاً. وألفاظ الآيـة صيغـت بدلالاتهـا المجازيـة. ومطلع الشمس كناية عن البـلاد الشـرقية وخاصـة منهـا بـلاد العـرب الـتي طلعـت منهـا شمـس الإسلام. ﴿**وجدها تطلع على قومٍ لم نجعل لهم من دونها سـتراً.**﴾ إشـارة إلى أنّ الأمـة العربيـة والاسلامية لايحجبها عن شمـس الإسـلام حـاجبٌ ولاسـترٌ وبـالرغم مـن ذلـك فـإنّ هـذا القـوم لايستفيدون من نور هـذه الشـمس الفـائدة المرجـوة منهـا. بـل تطلـع عليهـم فيكتـوون بحرّهـا، وتحرقهم أشعّتها ويُسيئون سمعتها. فقوله تعالى: ﴿ **تطلـع علـى قـومٍ لم نجعـل لهـم مـن دونهـا ستراً.**﴾ قد وصف حالة المسلمين المأساويّة المعاصرة التي تتنافى وتعاليم الاسلام التي تنـصّ علـى ضرورة التأدّب بأدب القرآن وبالتواضع، وأخذ الأمور بحسن الظّن وبتقوى الله تعالى. وتُستنبط هذه المعاني من جهة أنّ الذي يجلس قُبالة الشمس، لايستطيع النّظر إليهـا إلا بالواسـطة. وهـذا المعنى يفيد بألفاظٍ أخرى أنّ مُسلمي عصـر بعثـة ذي القرنـين قـد غـابت عـن أذهـانهم حقـائق القرآن ومعارفه الأمر الذي يؤدي بهم إلى الهلاك.

(١)- سورة الأحزاب - الآية (٤٦)..

الآية ﴿٩١﴾

﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خُبراً.﴾

أي على هذه الشاكلة نكون بتحليلنا وتشخيصنا لأحوال الأمم الشرقية والعربية منها خاصة، قد أثبتنا إحاطتنا بحقيقة أحوالهم وبما يحمله ذو القرنين من مؤهّلات وخبراتٍ تفيدهم في علاج أمراضهم. هذا على اعتبار أنّ (خُبراً) من الخُبْر وهو العلم بالشيء والتجربة والاختبار. يُقال صَدَقَ الخَبَرُ الخُبْر : بمعنى أن الإختبار بالمشاهدة صدّق الإخبار بالسّمع أي وُجِدَ المُخْبَرُ عنه مطابقاً للخبر المسموع عنه. (١). ومن ثم، وبعد أن وضّح الله جل شأنه أنّ مهمة ذي القرنين تشمل أمم الشرق والغرب في آن واحد، وأنّ مهمّته تتصّف بالصفة العالمية وليس بالصّفة القومية. فبعد أن وضّح جل شأنه ذلك انتقل للكلام عن الناحية العمليّة من هذه المسؤولية وقال:

الآية ﴿ ٩٢ ﴾

﴿ ثم أتبع سبباً ﴾

قال إنّه أخذ يُتبع الأسباب التي هيأها الله تعالى له لصالح مهمته السّماوية المتعلقة بإعادة بناء الجدار الإسلامي محافظة منه على ملّة ابراهيم الحنيفيّة.

الآية ﴿ ٩٣ ﴾

﴿ حتّى إذا بلغ بين السّدين وجد من دونهما قوماً لايكادون يفقهون قولاً ﴾

﴿**حتى إذا بلغ بين السدّين**﴾ والمقصود مجازاً بالسّدين هنا، وضع الأمم الغربيّة كسدّ مخيف على طريق المؤمن، ووضع الأمة الغربية والاسلامية المتخلّف الجاهل بحقائق القرآن الكريم وهو سدّ مخيف آخر على طريقه.

﴿**وجد من دونهما قوماً لايكادون يفقهون قولاً.**﴾ أي وجد أُناساً طُلاّب حق ويريدون وجه ربهم، لكنّهم في حالة تشتّت وضياع من جرّاء وجودهم بين هذين السّدين الرهّيبين.

وقوله ﴿**و لايكادون يفقهون قولاً**﴾ يفقهون من فقه الرجل يفقَه إذا عَلِمَ وكان فقيها

(١)- محيط المحيط.

والفقه هو العلم بالشيء والفهم له والفطنة والحذق. ﴿وقولاً﴾ كلمة تُطلق على الآراء والمعتقدات. ومعنى ﴿لايفقهون قولاً﴾ أي أنّهم بحاجة إلى من يوصل إليهم حقائق الاسلام ومعارف القرآن ويجمعهم على هدى الله لينقذهم من حالة التشتّت والضّياع التي هم عليها وسط هذين السّدين المخيفين.

وأضاف جلّ شأنه يتكلّم بلسان حال هذا الفريق الثالث المشتّت والضائع الذي يقف حائراً من هو مايدور حوله وقال:

الآية ﴿ ٩٤ ﴾

﴿ قالوا ياذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض، فهل نجعلُ لك خرجاً على أن نجعل بيننا وبينهم سدّاً.﴾

أي قالوا بلسان حالهم : ﴿**ياذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض**﴾ والمفسدون المقصودون في هذه الآية الكريمة وفقاً لما يفيده سياق الكلام هو هذه الأقوام الغربيّة التي أفاض الله تعالى في الكلام عنها منذ أوائل آيات سورة الكهف.

والسؤال الذي يواجهنا هنا والذي يتوجّب علينا الإجابة عليه قبل الاستمرار في شرح هذه الآية الكريمة هو : ماالدّاعي لتسمية الأقوام الغربية بيأجوج ومأجوج؟

وأتناول الكلام عن ذلك من الوجهة التاريخيّة وأقول : ليعلم قارئنا العزيز أن التّوراة المعاصرة تعدّ في نظر الباحثين أقدم مصدر تاريخي يُرجع إليه ، مالم يتوفّر مصدر آخر أقدم يخالفه.

فإن عُدنا إلى سفر التكوين من هذه التوراة المعاصرة، وإلى مايتعلّق بنوحٍ ونسله خاصّة. نُلاحظ أنّه ورد في الإصحاح العاشر من هذا السفر مايلي : (هذه سُلالة بني نوح : سام وحام ويافث، ومن وَلَدَ لهم من البنين بعد الطّوفان، بنو يافث : جومر ومأجوج وماداي وياوان وتوبل وماشك وتيراس..)

واستناداً إلى هذا المصدر ندرك أنّ مَن بني يـافث أحـد أولاده وهـو الـذي يحمـل اسـم (مأجوج). وهذا الأمر يعني أنّ الأقوام الغربية هي من نسـل مـأجوج بـن يـافث بـن نـوح عليـه السّلام. ولاشك أنّ هذا إدعاء هو بحاجة لإثباته والتّدليل على صحتّه.

لذلك انتقل بالقارىء لأطلعه علـى نبـوءةٍ تنبّـأ بهـا النبي حزقيـال عـن زماننـا المعـاصر بالذات، ووردت في الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر حزقيال. وإليـك بعـض مُقتطفـاتٍ مـن هذه النبوءة: (وكانت إليّ كلمة الرّب قائلاً : ياابن الإنسان إجعل وجهك نحو جـوج، في أرض مأجوح، رئيس روشٍ ماشِك وتوبال.. من أقاصي الشّمال.. استعدّ وهيء لنفسـك أنـت وكـلّ جماعاتك المجتمعة إليك، فصرت لهم موقّراً.).فالنبوءة متعلّقـة بجـوج وهـو ابـن يـافث بـن نـوح. القاطن في أرض مأجوج وهو رئيس روش أي رئيس روسيا. ماشك وتوبال همـا أخـوة جـوج من يافث وسُميّت باسمهما عاصمة روسيا وهي ماشك أي موسكو ومدينة توبال. والمعروف أنّ روسيا أضحت زعيمة الدّول الاشتراكية وصارت بالنسبة للدّول المذكورة موقّرةً في أعينهم.

وأضافت النّبوءة تقول : (بعد أيّام كثيرة تُفتقد. في السّنين الأخيرة تأتي إلى الأرض المستردّة من السّيف المجموعة من شعوبٍ كثيرة على جبال إسرائيل الـتي كـانت دائمـة خربـة..) أي أنّ النبوءه متعلّقة بآخر الزمان الذي هو مُصطلح أحاديث رسول الله ﷺ . وأنّ جوج يـأتي إلى الأرض المستردة من السّيف وهي اسرائيل الحالية المغتصبة للأرض التي فتحها المسـلمون بحدّ السّيف. والمجموعة مـن شـعوب كثيرة إشـارة إلى اليهـود المجتمعـين في فلسـطين مـن جنسـياتٍ مختلفة..

وأضافت النبوءة تقول : (لذلك تنبّأ ياابن آدم وقل لجوج.. وتصعد على شعبي إسرائيل كسحابةٍ تغشي الأرض. في الأيام الأخيرة يكون. وآتي بك على أرضي لكي تعرفني الأمم حـين أتقدّس فيك أمام أعينهم ياجوج.) وهـذه إشـارة صريحة إلى امكانيـة حدوث حرب خاطفـة، تزحف خلالها روسيا والجيوش الحليفة لها نحو الأرض العربية المُحتلة.

وأضافت هذه النبوءة تقول : (ويكـون في ذلـك اليوم، يـوم مجـيء جـوج علـى أرض اسرائيل يقول السيّد الرّب أنّ غضبي يصعد في أنفي. وفي غيرتي في نار سُخطي تكلّمـت أنّـه في

ذلك اليوم يكون رعشٌ عظيم في أرض إسرائيل. فترعش أمامي سمك البحر وطيور السّماء ووحوش الحقل والدابّات التي تدبّ على الأرض، وكل النّاس الذين على وجه الأرض، وتندكّ الجبال وتسقط المعاقل وتسقط كل الأسوار إلى الأرض.. وأعاقبه بالوبا وبالدّم، وأمطر عليه وعلى جيشه وعلى الشعوب الكثيرة الذين معه مطراً جارفاً، وحجارةَ بردٍ عظيمة وناراً وكبريتاً. فأتعظم وأتقدّس وأُعرف في عيون أممٍ كثيرة، فيعلمون أني أنا الرّب.) وفي هذه الجمل من النبوءة إشارة واضحة إلى احتمال وقوع حربٍ ذريّة طاحنة والله أعلم.

والذي يُهمّنا من هذه النبوءة هنا هو أنّها تُصرّح بأن سكان روسيا، أصلهم من نسل جوج وماشك وتوبال أبناء يافث بن نوح عليه السّلام. أي أن سكان روسيا هم آسيويو الأصل . وهم الذين قهرهم كورش ملك فارس وميديا في يومٍ من الأيام على حسب مايرويه المؤرخون.

والحقيقة التي يعرفها الرّوس والأوربيون في وقتنا الحاضر هي أنهم من شعوبٍ آسيوية هاجرت إلى أوربة وتوزعت فيها شرقاً وغرباً. والذي يزور متحف لندن يلاحظ وجود تمثالين في أحد اجنحته كُتب تحتها يأجوج ومأجوج (**Yagog and Magog**) وهما الرئيسان للقبائل الآسيوية التي هاجرت إلى أوربة وانتشرت فيها وهي أصل شعوبها.

و أتناول الآن كلمتي يأجوج ومأجوج من النّاحية اللّغوية. ونحن إذا فتحنا المعاجم العربية نُلاحظ أنّ هذين اللّفظين اشتُقا من أجّج النار أي ألهبها. ومن أجّج الفتنة أثارها وحرّكها. فإن نحن عُدنا إلى شعوب أوربة المعاصرين، المُنذرين في سورة الكهف بعذابٍ مدمّر. فإنّنا نلاحظ انطباق صفتي يأحوج ومأحوج عليهما بشكل مدهش.ذلك أنّ قيادات تلك الشعوب أثارت حتى الآن حربين عالميتّين، واستعمرت مختلف البلدان وعاثت في الأرض فساداً، وهي وراء كلّ فتنة في الأرض مهما بَعُد وطنها عن أوطان هؤلاء. وقد تمكّنت شعوب أوربه وأمريكة من اختراع آلات حرب ودمار ماسبق للبشرية أن عرفتها. وهكذا فإنّ كلمتي " يأجوج ومأحوج " الواردتين في الآية التي نحن بصددها تنطبق من الوجهة التاريخية واللغوية والوصفيّة على هذا القوم الذي ورد بحقّه قوله تعالى : ﴿**حتى إذا بلغ مغرب الشمسّ، وجدها**

تغرب في عينٍ حمئــة، ووجـد عندهـا قومـاً قلنـا يـاذا القرنـين إمّـا أن تتخّـذ فيهـم حُسـناً.﴾.
والمقصود هنا بالقوم القوم المُفسد في الأرض والذي يطلـب الفريـق البـاحث عـن الحقيقـة وعـن وجه ربّهم والساعون للخلاص من شرور هؤلاء المفسدين، للخلاص مـن افسـادهم وشـرورهم ومؤامراتهم أقول يطلبون من ذي القرنين الذي بعثه الله تعالى لإعادة بناء جـدار الإسـلام الـذي يريد أن ينقضّ، يطلبون منه قائلين بلسان حالهم : **﴿ياذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدّاً.﴾.**

أمّا وقد علمنا من هو القوم المقصود بيأجوج ومأجوج، فإنّنا نتابع شرح الآيـة الكريمـة ولنتدبّـر وصـف هـذا القـوم بقولـه تعـالى : **﴿مفسـدون في الأرض﴾** فقـد ورد في الكليـات : الفاســد مأخوذ من فسد اللحم، إذا أنتن، بحيث لايمكن الانتفـاع بـه، والفسـاد مصـدر ويعـني الابتداع واللهو واللّعب وأخذ المال ظُلماً والجدب. والفساد ضدّ الصّلاح والاصلاح. أمّـا لفـظ (خرجاً) فالخرج أخصّ من الخراج، يختص برسم الرأس [1].

ألا إنّ الله عز وجلّ راح يتكلّم في هذه الآية الكريمة عن هذه الفئة الثالثة من النّاس الضـائعين في متاهاتٍ بين هذين السّدين الطغيان الاوربي والتفسّـخ الحاصل في المجتمـع الإسـلامي. عـن هـذه الفئة المحبّة للحقيقة والباحثة عنها، والتي تتمنّى عودة مجد الإسلام وإدراك حقائق القرآن الكريـم. يتكلّم بلسان حال هؤلاء أنّهم يتمنّون لقاء هذا الموعد موعد ظهور المجدد ذو القرنين لإعادة بناء جدار الإسلام الذي تصدّع على أيدي أهله. وهم ماداموا قد عاصروا هذا المصلح (ذو القرنـين) يخاطبونه بلسان حالهم ويقولون له : **﴿ياذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج مفسـدون في الأرض، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدّاً؟﴾** أي أننا نتوق إلى إعادة بناء هذا السّد، هذا الحائط الإسلامي الذي سيحمي أمثالنا من طلاّب الحقيقة ويخلّصنا مـن طوفـان فسـاد هـذه الدّول الغربية وطُغيانها.

وعلى ضوء هذا المعنى نتوجّه لشرح ماأجاب به ذو القرنـين، وبمنطـق تـاريخ الاصـلاح الديـني، وليـس بمعيار آخر في هـذا المقام . أي أنّ من واجبنا فهم ماأجـاب به ذو القرنين، آخذين بعين

(١)- محيط المحيط.

اعتبارنا الخطوات التي اتخذها محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ وهو أسوتنا حين أسس هذا السدّ الجداري ليحمي به ملّة ابراهيم الحنيفيّة من الضّياع، وفي وجه التيارات والأعاصير التي ولّدتها مجتمعات اليهود والنصارى لتعصف بهذه الملّة الحنيفية. فبماذا أجاب ذو القرنين؟

الآية ﴿٩٥﴾
﴿ قال : مامكّني فيه ربّي خيرٌ، فاعينوني بقوّة، أجعل بينكم وبينهم ردماً.﴾

﴿قال : مامكّني فيه ربّي خير.﴾ ومكّني من مكّنه من الشيء ، وأمكنه منه : جعل له عليه سلطانا. وقدره، وتمكّن من الأمر واستمكن منه : قدر عليه وظفر به (١). أي أنّ ذي القرنين أعاد إلى الذاكرة قوله تعالى : **﴿إنّا مكّنا له في الأرض، وآتيناه من كلّ شيءٍ سبباً.﴾** بمعنى أن الله عز وجل كلّفني أصلاً بمهمّة إعادة بناء جدار الاسلام، وفتح عليّ أسلوب إعادة بنائه وهذا الاسلوب يتلخصّ في ضرورة تقصّي خطوات أسوة محمد ﷺ في هذا المضمار تقصّي خطوات هذا الرّسول الذي ألّف جماعة من المؤمنين وأخذ منهم البيعة وفقاً لتعاليم القرآن المجيد، وراح يدعو هو وجماعة المؤمنين على بصيرة إلى سبيل الله. وها أنكم ترون كيف أنّ ربّي أعدّني للقيام بنفس المهمة ومكّني في هذا المضمار، وهيّأ لي من كلّ شيءٍ سبباً أي أداة تعينني لتحقيق مهمتي من مواصلات وأدوات اتّصال وأدوات طباعة ونشر وماإلى ذلك من مستلزمات نشر دعوتي.وإنّ مامكّني فيه ربّي هو"خيرٌ" من جميع الطرق وأساليب العنف التي يتّبعها هؤلاء الذين انتحلوا شخصيّة المنقذين للإسلام دون أن يكون لهم تأييد في السّماء ولا رابطة. وإنّ **﴿مامكّني فيه ربي خير﴾** والخير في اللغة العربية ضدّ الشرّ، ويعني وجدان الشيء وكمالاته اللائقة. ويستعمل الخير إسم تفضيل، وأصله أخير، فحذفت الهمزة على خلاف القياس لكثرة الاستعمال (٢) ومنه في سورة الضّحى : **﴿وللآخرة خيرٌ لك من الأولى﴾**. وأضاف يقول : **﴿فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾**. أي ساعدوني بقوة. والقوة تعني الطاقة. أي تعالوا انضموا إلى الجماعة التي أُمرت بتأسيسها ، وهي جماعة المؤمنين، لاستمدّ من طاقتكم طاقة على طاقتي فتكونون لي عَضُداً في بناء هذا السّد.وفق قوله تعالى : **﴿ هو الذي أيّدك بنصره**

---

(١)- محيط المحيط.

(٢)- محيط المحيط.

وبالمؤمنين..﴾؟ فإن استجبتم لي وفعلتم ذلك **﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً.﴾** والرّدم من ردم الباب سدّه كلّه. والرّدم أكثر من السّد. والرّدم مايسقط من الجدار المتهدّم (محيط المحيط) وهذه الألفاظ تعني أنّ ذي القرنين، أي هذا المجدّد المهديّ المثيل والنظير لابن مريم، ماجاء بتعليم جديدٍ غير القرآن الكريم. بل يأخذ مما سقط من هذا الجدار المتهدّم، وهو بغنىً عمّا سواه. ذلك أن تعاليم الإسلام لاينضب عطاؤها فهي لكل زمان ومكان. وقد أضاف ذو القرنين يقول:

الآية ﴿ ٩٦ ﴾

﴿ آتوني زُبَرَ الحديد، حتى إذا ساوى بين الصّدفين، قال انفخوا، حتى إذا جَعَلَهُ ناراً، قال آتوني أُفرِغَ عليه قِطراً.﴾

وقول ذو القرنين هذا ومطالبته تلك وردا بلسان المجاز أيضاً، على شاكلة مادرجت عليه الآيات حتى الآن. وهو جلّ شأنه وضح في هذه الآية الكريمة ماأجمله من أمور في الآية السابقة. فمطالبه ذو القرنين التي عبّر عنها هناك بقوله **﴿أعينوني بقوة﴾**، والتي فهمنا منها مطالبة هذا المجدّد هؤلاء الناس التائهين أن يبايعوه وأن ينضمّوا إلى جماعته، جاء يفصلّها هنا وبقول **﴿آتوني زُبَر الحديد﴾** وآتوني من آتى فلانا شيئاً : أعطاه إياه أي أعطوني. وكلمة **﴿زُبَر الحديد﴾** مفردها زُبْره وتعني القطعة أو الكاهل. (١).

ويكون المقصود من **﴿آتوني زُبَرَ الحديد﴾** أنّه إذا بايعني الواحد منكم دون أن يُجري في تفكيره وسلوكه تبديلاً جذرياً ويعودكقطعة الحديد إسلامياً، فلا تقّويني بيعته.بل يصبح عبئاً عليّ. والواجب على هذا الذي يبايعني وينضّم إلى جماعتي أن يحمل على كاهله نفس مسؤوليتي المتعلقة بإعادة بناء الحائط الذي يريد أن ينقض. ولايحمل مثل هذه المسؤوليّة الثّقيلة من لايصبح قطعةً صلبة من حديد صلبٍ لاتؤثر فيه حرارة المُغريات.وعليه فهذه مُطالبة أساسيّة يطالب بها ذو القرنين الذين يبايعونه ووردت تفسيراً وتفصيلاً لقوله السابق **﴿أعينوني بقوة﴾**.

ثم إن قول ذو القرنين في الآية السابقة **﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾** ، جاء

---

(١)- محيط المحيط.

يفصّله هنا ويقول : ﴿**حتى إذا ساوى بين الصّدفين قال انفخوا**﴾. وساوى من سوّى الشيء تسوية جعله سويّا، وصنعه مستوياً. وكلمة الصّدفين مثنى صَدَفٌ وصُدُفٌ وهو ناحية الجبل ومُنقطعه، وكل شيء مرتفعٍ من حائطٍ ونحوه.

وهو أتى بصيغة ﴿**حتى إذا**﴾، وحتّى حرف يشير إلى انتهاء الغاية بمعنى " إلى أن " وهو تعالى وقد أضاف (حتّى) إلى (إذا) الظرف لما يُستقبل من الزّمان، يكون قد نبّه ذهن القارىء إلى أنّ عمليّة الرّدم بين السّدين ماهي بعمليّة بسيطةٍ بالإمكان إنجازها في يومٍ أو يومين أو عام أو عامين، وعلى أيدي عدد قليل من المؤمنين. بل هي عمليّة جبّارة تتناسب طرداً وحجم هذين السّدين وحجم أعداد هاتين الكتلتين: كتلة المسلمين المتخلّفين وكتلة المسيحيّين المتغطرسين المفسدين من حولكم فهي عمليّة تقتضي عملياً مبايعة عشرات بل مئات الملايين الذين يأتون كزُبَر الحديد. ويشكّلون أداة ردم مابين السّدين أي يشكّلون كتلة عالميّة في مواجهة هاتين الكتلتين العالميتّين.

وليلاحظ القارىء أنّ الله تعالى لم يأت بحرف (ثمّ) الذي يفيد الترتيب، بل قال بعد ذلك مباشرة ﴿**قال انفخوا**﴾. فما المقصود بفعل الأمر (انفخوا)؟

انفخوا من نفخ في النّار زادها لهيباً واستعاراً. وهو فعل ورد أيضاً على سبيل الاستعارة والمجاز . أي أنّ الإلتزام بتعاليم الإسلام التزاماً كاملاً وجامداً، ليس هو المطلوب من المبايعين. بل إنّ المطلوب منهم أن يحيطوا علماً بقوانين السّلوك الروحاني الذي تقتضي من المسلم أن ينفخ في نفسه محبّة الله ربّه إلى درجةٍ يجذب معها محبّة ربّه عز وجلّ، ويتقرّب بذلك من ربّه ويفوز بنُصرته وتأييده، هذا الأمر الذي افتقده المجتمع الاسلامي المتخلّف المعاصر.

والحقيقة هي أنّ ألفاظ هذه الآية الكريمة تُلفت نظر القارىء إلى أمرٍ ماديٍّ تشاهده عيناه في أغلب الأحيان. فكلّ واحد يمرّ من أمام دُكّان حدّادٍ ، ويُلاحظ كيف أنّ الحدّاد الذي يريد صُنع إزميلٍ أو سواه، يأتي بقطعة الحديد الصلّبة، ويضعُها في كور ناره الملتهبة ويُبقيها إلى أن تحمّر وتلين وتكتسب خواص النّار. وحينذاك فقط تعود قطعة الحديد صالحة للطّرق والتكّييف وفق مشيئة الحدّاد. وإلى نفس هذه الظاهرة تشير ألفاظ هذه الآية الكريمة. وهو أنّ

التديّن الجافّ لايثمر شيئاً مفيداً مالم يُرافقه عروج روحاني يساعد هذا المؤمن على أن يتقرّب من ربّه إلى درجة يُصبح معها مطيّةً بين يدي ربّه عز وجلّ، وحتى تتجلّى بواسطته صفات ربّه فيصبح ربّه عينه التي ينظر بها وأذنه التي يسمع بها ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ووفقاً لماورد في الحديث القدسي المعروف.

وهكذا ينبّه ذو القرنين إلى أنّ إعادة الجدار الذي يريد أن ينقضّ والرّدم بين السّدين لايتحقّق مالم تتوافر أعداد من المؤمنين تعد الملايين، وتكون نوعيّتها من النوعية التي أتينا على بيانها وبيان أوصافها.

يقول إن توفّر هذا العنصر ﴿**حتى إذا جعله ناراً**﴾ أي جعل كل مبايع بمثابة قطعة الحديد المحميّة بمحبة الله إلى درجة بدت معها خواص النّار الموضوعة في كورها وأصبح هذا الرّدم بمثابة كتل النار الملتهبة، تعبيراً وكناية عن تشكيل كتلة عالمية ثالثة لها تواجدها ورسوخها، يقول : وهذه الأعداد الهائلة من المؤمنين الروحانيّين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، يستحقّون حينئذ فقط الفوز بالخلافة التي تقودهم إلى شاطىء النّصر. وهي الأداة التي تماثل النحاس المذاب الذي يُصبّ على قطع الحديد الملتهبة ليربط بينها بوشيجة لايستطيع أحد تجاوزها أو النفوذ من خلالها. لذلك أضاف ذو القرنين قوله : ﴿**آتوني أفرغ عليه قطراً**﴾ أي نحاساً مُذاباً وهو كلام بأسلوب مجازي أيضاً. ونبّه بذلك إلى أنّه مالم يتحقّق ذلك، فلا تقوى هذه الكتلة العالمية الثالثة أن تمثّل نفس دور البعثة الاسلامية الأولى التي قامت ببناء هذا الجدار الاسلاميّ الذي حافظ على ملّة ابراهيم الحنيفية. أمّا إذا تحقّق ذلك، وهو أمرٌ مقدّرٌ له في السّماء أن يتحقق على أيدي ذو القرنين . ففي تلك الفترة من الزمان التي يكتمل فيها بناء هذا الجدار، يضيف قائلاً:

الآية ﴿ ٩٧ ﴾

﴿ **فما استطاعوا أن يظهروه، وماستطاعوا له نقباً.** ﴾

أي حتى إذا اكتمل ذلك، يُقطع الطريق على هؤلاء المفسدين، وعلى أسلوبيهما اللّذين يتبّعانهما في مجال مُعاداة الإسلام . الأسلوب الأول ﴿**أن يظهروه**﴾ إشارة إلى محاولة شعوب المسيح الدجال إخضاع هذا المعسكر بالقوة. والأسلوب الثاني ﴿**له نقباً**﴾ أي لايعود لهم مجال لاحتواء

عُمَلاَء لهم من بين صفوف المسلمين، وعبّر عن وجود العملاء بمثابة النّقب وايجاد ثُقبٍ في جدار الإسلام.

على هذه الصّورة يكون الله عز وجلّ قد نبّه من خلال ألفاظ هاتين الآيتين الأخيرتين إلى أنّ إعادة بناء الكيان الاسلامي المتفسّخ المتخلّف، وهو الكيان الذي مثّله بالجدار الذي يريد أن ينقضّ في قصّة إسراء موسى عليه السّلام، أقول إن هذه المهمّة لاتحتاج إلى أعمال عُنفٍ وتهديمٍ ضدّ هؤلاء المفسدين. بل تحتاج إلى إعادة صياغة المسلم المؤمن صياغة إسلامية حقيقية وروحانية ليصبح مؤهّلاً لجذب كلّ عاقل في العالم يطلب الحقيقة التي جاء بها الإسلام، ومن أيّ اتجاه كان وبوسيلة الحوار بالحجّة والبرهان، وبوسيلة الدّعاء وتجليات التأييد الالهي لهذا المسلم المؤمن وبوسيلة قوة الرابطة الأخوية التي سترتبط مابين جماعة المسلمين المؤمنين.

كذلك تكون ألفاظ ومضمون هذه الآيات الكريمة قد نبّهت إلى حقيقةٍ وردت في الآيات الأواخر من سورة الفتح قوله تعالى : ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليُظهره على الدّين كلّه وكفى بالله شهيداً. محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكُفّار، رُحماءُ بينهم، تراهم رُكّعاً سُجداً، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السّجود، ذلك مثلهم في التّوراة، ومثلهم في الإنجيل ، كزرعٍ أخرج شطأه، فآزره، فاستغلظ، فاستوى على سوقه، يُعجبُ الزُرّاع ليغيظ بهم الكُفّار، وعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصّالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً**﴾. هذا وقد شرحت دلالات هذه الآيات الكريمة المبشره بمثيل ونظير المسيح بن مريم أو بذي القرنين ومهمته في (فنّ الاختزال) على الصفحتين (١٨٦-١٨٧) منه، فليُرجع إليه.

والآن بإمكاننا تلخيص المطالبات التي طالب بها ذو القرنين الناس الذين سيؤمنون بمهمته الدينيّة والذين يبايعونه. تلخيصها بشروط رئيسية ثلاثة :

الشرط الأول : أن يستقيم المبايع على حسب ماأمره الله ربّه في كتابه العزيز مُبّرءاً في ذلك من الذهنية التقليدية المسيطرة على عقول أفراد المجتمع الاسلامي المتخلّف المعاصر. وأن يستقيم إلى

درجةٍ يصبح معها كقطعة الحديد الصّلبة الصّالحة لحمل مسؤوليات إعادة بناء كيان الإسلام المتصدّع، على كاهليه.

والشرط الثاني : أن يعيد هذا المُبايع إلى المجتمع الاسلامي الجوّ الرّوحاني الذي أتى به الإسلام، والذي افتقده المجتمع الاسلاميّ المتخلّف المعاصر. وهذا الشرط الثاني يتمثّل في محاولة التعرّف على أسماء الله والاتصاف بها والتقرّب من ذات الله تعالى إلى درجةٍ تبدو معها آثار جاذبية محبّة الله وتأييده له ونصرته إياه متجلية في جميع أحواله.

والشرط الثالث : أن يتمسّك بهذا النهج من الإيمان وعمل الصالحات وبأهداب نظام الخلافة الرّاشدة التي أعادها ذو القرنين إلى سلسلة المبايعين، هذا النّظام الذي فقده المجتمع الاسلامي المتخلّف منذ أن تفرّق أجداده إلى شيعٍ ومذاهب وفرقٍ وتخلّوا بذلك عن الاعتصام بحبل الله جميعاً.

أقول : فلّما انتهى ربُّنا من الكلام عن ذي القرنين وعن مهمته السّماوية المكلّف بانجازها، وهي إعادة بناء الكيان الاسلامي المتصدّع. وبعد أن فرغ من بيان الشروط التي اشترطها على الذين يتعرّفون إليه ويبايعونه ويتحملون معه مايتوجّب عليهم من مسؤوليات.
أضاف يقول بلسان حال ذو القرنين، إذا ماانتهى من إنجاز مهمته التي لاتتحقّق في مدة قصيرة، بل تحتاج إلى فترة ليست بالقصيرة من الزمان، أضاف يقول بلسان حاله :

الآية ﴿ ٩٨ ﴾

﴿ قال هذا رحمةٌ من ربّي، فإذا جاء وعدُ ربيّ جعله دكّاءَ ، وكان وعد ربّي حقّاً.﴾

قال هذا بلسان حاله وبأسلوب مجازي أي أنّ هذا الإنجاز الذي سيتحقّق على يديّ هو **﴿رحمةٌ من ربيّ﴾** والرّحمة لاتكون ولايتصّف بها على وجه الحقيقة إلاّ ذات الله عز وجلّ، على اعتبار أنّها تكون مظهر كرمٍ وجودٍ بغير عوض معلوم على حسب ماذهب إليه الإمام الرازي (١) فذو القرنين ينسب ماتحقّق على يديه إلى رحمة ربّه الذي ربّاه وعهد إليه بمهمة إعادة بناء الجدارالإسلامي المتصدّع،فلم ينسب إلى نفسه أيَّ فضلٍ في الإنجاز المذكور. وهذا التواضع يُعدّ

(١)- محيط المحيط.

من سُنّة وأسوة المصلحين الرّوحيّين.

وذو القرنين حين أضاف يقول: ﴿**فإذا جاء وعد ربّي جعله دكّاء، وكان وعد ربّي حقّاً.**﴾. المراد بالوعد هنا الوعيد الذي توعّد الله تعالى به الذين اتخذوا لله ولداً في أوّل سورة الكهف وهو قوله تعالى : ﴿**وإنّا لجاعلون ماعليها صعيداً جرزاً**﴾. فالوعد معناه الوعيد أيضاً. أمّا ﴿**جعله دكّاء**﴾ فالدكّاء هي الرّابية من طين (١) .

ذلك أنّه أتى بحرف الفاء الاستئنافية وأعاد إلى الذاكرة الوعيد الذي كان قد توعّد الله تعالى به هؤلاء المفسدين في مستهلّ الكلام عن تاريخهم، ونبّه إلى أنّ الله عز وجلّ سيؤجّل تنفيذ وعيده المذكور بهؤلاء إلى أن تكتمل عمليّة بناء الكيان الاسلامي المتصدّع. فإذا ماااكتمل البناء المذكور وحاء زمن تنفيذ ذلك الوعيد بهؤلاء ﴿**جعله دكّاء**﴾ أي جعل هذا السّد المخيف الذي أقاموه في وجه الإسلام (دكّاء) أي قلبه من جبلٍ مخيف شاهق الإرتفاع، إلى هضبة أو رابية طينيّة لاتصلح لشيء. بمعنى أن الله عز وجلّ سيُنهي وجود أمّة موسى وفتاه إلى غير رجعة، ولايعود يجلجل في الأرض إلاّ صوت الاسلام، ولايُعمل إلاّ على ملّة ابراهيم الحنيفيّة. وأنّ كل ذلك سيحدث وفق ماأطلع الله تعالى به موسى عليه ضمن إسرائه الذي أراه إياه وليذكّره بقدرة الله وبكونه جلّ شأنه علاّم الغيوب الذي لايشرك في حكمه أحداً.

وهو إذ أضاف قوله : ﴿**وكان وعد ربّي حقّاً.**﴾ يكون قد نبّه القارىء من خلال لفظ (حقّاً) إلى أنّ الله تعالى لايتوعّد أحداً افتراء وظلماً وتجبُّراً. بل يتوعّد على أساسٍ من العدل والصدق والإنصاف والقول الثابت، وهذه هي دلالات كلمة (حق) كما سبق أن بيّناه.

إلى هنا يدرك القارىء دلالات الآيات المتعلقة بذي القرنين ومهمته السّماوية، ويتوقف هنيهةً يتساءل في حديث نفسه أن كيف سيـُنزل الله تعالى العذاب بهؤلاء الذين اتخذوا لله ولداً، كما نتساءل عن الأسلوب الذي يتـّبعه الله تعالى للقضاء على كيان الذين اتخذوا لله ولداً. ولنلاحظ أن الله تعالى لم يدع هذا القارىء يتخبّط في تخميناته وظنونه، بل راح يتفضّل هذا القارىء لمحة موجزة عن ذلك وقال:

---

(١)- محيط المحيط.

الآية ﴿٩٩﴾

﴿ وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج في بعض، ونُفخ في الصّور، فجمعناهم جمعاً.﴾

وقوله (تركنا) من تركه إذا ودّعه وخلاّه. وترك الشيء رفضه قصداً واختياراً أو قهراً و اضطراراً. هذا في حال تعدّيه لمفعول واحد. أمّا إذا عُلّق بمفعولين كما هو الحال في هذه الآية الكريمة فيفيد معنى التصّيير ويجري مجرى أفعال القلوب (محيط المحيط) ويصبح معنى **﴿وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج في بعض﴾** أي صيّرنا بعضهم يومئذ يقتتلون ويختلفون ويضطربون. حيث يقال ماج البحر ارتفع واضطربت أمواجه وماج الجيشان اقتتلا. وماج النّاس اختلفت أمورهم واضطربت. (١).وإنّنا نتلّمس هذه العلامة الواضحة في هذا القرن في العالم الغربي، ونرى تحقّقها بشكل عجيب. فلقد قامت هناك كُتلتان شرقيّة وغربيّة وتطاحنتا وخاضتا غمار حربين عالميتين فيما بينهما. وهذا الأمر ساعد كثيراً على تأخير تكتّل هؤلاء ضدّ الإسلام خاصة حتى الآن. وهذه العلامة إن دلّ تحقُّقها على شيء، فإنّما يدلّ بشكل يقينيّ على أن زماننا هذا هو زمان ظهور ذو القرنين المجدد والمثيل لابن مريم عليه السّلام.

وأضاف جلّ شأنه علامة ثانية وقال : **﴿ونفخ في الصّور فجمعناهم جمعاً.﴾** والصّور هو القرن الذي يُنفخ فيه لجمع الجنود أو التلاميذ قديماً. واستعمل هنا مجازاً بمعنى أنه بعد أن يبعث الله تعالى (ذو القرنين) المذكور ويؤسّس جماعة المؤمنين ويفيض علوم القرآن عليهم ويزّودهم بأدلة بطلان عقيدة الكّفارة والشرك التي اعتقدها هؤلاء المفسدون، وبعد أن تتمكّن جذور جماعته في كل مكان، يبدأ الله عز وجلّ يُخلّ بتوازن كتلتي هؤلاء المضلّين، ويغلّب واحدة على الأخرى، وذلك بتقدير منه عز وجلّ، وتأخذ إحدى الكتلتين تتجمع حولها القوى من الطرفين، إلى أن تصبح كلمتها هي العليا في العالم. وهذه العلامة قد تحققت أكثر معالمها حتى الآن، وذلك بعد انتهاء زمن الحرب الباردة القائمة بين المعسكرين، وزوال الاتحاد السوفييتي.

وأضاف جلّ شأنه يقول :

(١)- محيط المحيط.

الآية ﴿ ١٠٠ ﴾

﴿ وعرضنا جهنّم يومئذٍ للكافرين عرضاً.﴾

قوله **﴿وعرضنا﴾** من عرض الشيء له : أظهره له. وجهنّم اسم من أسماء النّار، وتعني بعيدة القعر من بئر جهنّام أي بعيدة قعرها فمن وقع فيها هلك (١).

يقول تعالى : أنّه بعد اكتمال بناء جدار الإسلام الذي يريد أن ينقضّ، نُنزل عذابنا الذي قدّرناه بهؤلاء الذين قالوا اتّخذ الله ولداً ورغبوا عن ملة ابراهيم الحنيفيّة ونأتي بما يسبّب لهم الهلاك والدّمار. وهو تعالى أتى بلام التّخصيص وقال : (للكافرين) أي أنّ عذاب جهنّم المقصود مختصٌّ بإهلاك هؤلاء الكافرين من دون سواهم من الناس.

وراح جلّ شأنه يحدّد سبب ذلك ويعلله ويقول :

الآية ﴿١٠١﴾

﴿ الذين كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذكري، وكانوا لايستطيعون سمعاً.﴾

أي أنّ الكافرين المقدر لهم هذا العذاب هم أولئك المسيحيون الضّالون والمفسدون الذين استعرضنا لكم تاريخ نشأتهم وتطوّرهم منذ أول سورة الكهف وحتى اللحظة. هؤلاء الذين بلغوا درجة من الغلّو والغطرسة والإفساد في الأرض إلى حدّ أنّ ذلك شكّل غطاءً شغلهم عن تذكّر ربّهم الحقيقي، وحال دونهم ودون سماع صوت السّماء الذي أتى به ذو القرنين.

ومن ثمّ نبّههم جلّ شأنه وقال :

الآية ﴿١٠٢ ﴾

﴿ أ فَحسب الذين كفروا أن يتّخذوا عبادِي من دونِي أولياء، إنّا أعتدنا جهنّم للكافرين نُزُلا.﴾

فأتى بهمزة الاستفهام وأدخلها على فعل حسب وقال (أفحسب) أي أظنّ الذين كفروا بالاسلام وبما أتى به ذو القرنين لإعادة حائط الاسلام الذي تصدّع على أيدي أهله من المسلمين الذين أضحوا يقولون مالا يفعلون . أظنَّ هؤلاء أن يُتركوا أن يتّخذوا عبادي من دوني أولياء

(١)- محيط المحيط.

إشارة إلى اتخاذهم المسيح الهاً من دون الله عز وجلّ. وأضاف قائلاً : إنّ مثل هذا الفعل لايُنجى فاعله من العقاب. وإننا أنذرنا هؤلاء بهذا العقاب من أوّل آيات سورة الكهف.لذلك ﴿**إنّا اعتدنا جهنّم للكافرين نُزُلاً**﴾ أي أنه كما دفعناهم على طريق الرقيّ العلميّ، فقد هيّأنا لهم مايقضي على مابلغوه من رقيّ، وماينزل بهم أسفل سافلين ليكون مقرّهم هناك، وتأتي بذلك نهايتهم الحتمية وأضاف جلّ شأنه مُنذراً وقال :

الآية ﴿ ١٠٣ ﴾ ﴿ **قل هل نُنبئكّم بالأخسرين أعمالاً؟** ﴾

(والأخسرين) من خسر بمعنى ضلّ عن الطريق وهلك وهي صيغة مبالغة (١).

أي بلّغ هؤلاء وقل لهم : هل نخبركم خبراً ذا شأن يفيدكم بحقّ الذين تصل بهم أعمالهم إلى الضّلال عن الطريق المستقيم، وتنتهي بهم إلى الهلاك من دون بقيّة خلق الله تعالى؟ وراح تعالى يعطي علامات ذلك وقال :

الآية ﴿ ١٠٤ ﴾ ﴿ **الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا، وهم يحسبون أنّهم يُحسنون صُنعاً.** ﴾

وضلّ من الضّلال وهو ألاّ يجد السّالك إلى مقصده طريقاً أصلاً، وحاد عن الطريق المستقيم (٢) والمعنى أنّ الله تعالى خلق الإنسان في هذه الحياة ليبتليه، وحدّد لوجوده مقصداً فالأخسرين من النّاس هم الذّين لم يسعوا لتحقيق هذا المقصد من حياتهم، واندفعوا في سعيهم منحرفين عن هذا الطريق المستقيم ولابدّ أن يؤدي بهم ذلك الانحراف إلى هاويةِ الهلاك ويحرموا أنفسهم بذلك من جني الثمار الحقيقية التي خُلقوا لجنيها لخلقهم في هذه الحياة الدنيا. وراح جلّ شأنه يحدّد هويّة هؤلاء الأخسرين الذين يتكلّم الله تعالى عنهم فقال :

---

(١)- محيط المحيط.

(٢)- محيط المحيط.

الآية ﴿ ١٠٥ ﴾

﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه، فحبطت أعمالهم، فلا نُقيم لهم يوم القيامة وزناً.﴾

أي أن الله عز وجلّ لم يخلق هؤلاء الأخسرين ويدعهم لشأنهم، بل أراهم آياته ونبهّهم إلى المقصد من حياتهم وبحتميّة لقائه بعد الممات. وأرسل ذو القرنين يكشف لهم عن وجوده أيضاً. لكنّهم لم يُلبّوا صوت السّماء وظلّوا مُندفعين وراء مطامعهم يفسدون في الأرض **﴿فحبطت أعمالهم﴾** وحبط معناه بطل عمله فلم يحصد منه ماكان يبغيه (١) أي أن رقيّهم العلمي وعلّوهم في الأرض لم يُغن عنهم شيئاً و لم يُنجهم من العذاب الذي توعّدهم الله تعالى به أول سورة الكهف. لذلك **﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً.﴾** أي لانهتّم بغطرستهم وبأسهم زمن إرسالنا ذو القرنين في يوم القيامة الموعود به لاحياء الاسلام. ولابُدّ أن ينجح هذا المبعوث في إعادة كيان الإسلام على مدى الأيام فلا يتمكّنوا من الحيلولة دونه ودون تحقيقه مهمته السماوية تلك. وأضاف :

الآية ﴿ ١٠٦ ﴾

﴿ ذلك جزاؤهم جهنّم بما كفروا واتّخذوا آياتي ورسلي هُزُوا.﴾

فأتى جلّ شأنه باسم الإشارة للبعيد ذلك، تضخيماً لشأن العذاب الذي قدّره تعالى لإهلاكهم وقال :**﴿ذلك جزاؤهم جهنّم﴾** أي جزاؤهم الإهلاك والالقاء بهم في قعر بئرٍ عميقةٍ جداً لاتقوم لهم بعدها من قائمة. لماذا؟ أجاب : **﴿بما كفروا واتخذوا آياتي ورسُلي هُزُوا.﴾**.

وتوجّه جل شأنه نحو الطرف الآخر وهو فئة المؤمنين بهذا الاسلام وبمهمّة ذو القرنين وقال :

الآية ﴿ ١٠٧ ﴾

﴿ إنّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات كانت لهم جنّات الفردوس نُزُلاً.﴾

فأتى جل شأنه بإنّ للتوكيد بأنّ الذين آمنوا بمهمة ذي القرنين وبايعوه وحملوا معه أعباء إعادة

(١)- محيط المحيط.

الكيان الإسلامي وعملوا الصالحات ﴿ **كانت لهم جنّات الفردوس نُزُلاً** ﴾ والفردوس معناه الأودية التي تُنبت ضروباً من النّبت، أو البستان الذي يجمع كل مافي البساتين من كروم وسواها. (١).

والمعنى أنّ الله تعالى سيورث المؤمنين هؤلاء جميع الأراضي التي تمتلكها شعوب هؤلاء الكفّار الذين استحقوا الهلاك والعذاب. فأتى جل شأنه بصيغة ﴿**كانت لهم**﴾ أي قُرّرت وقدّر لها أن تكون أراضي هؤلاء وديانا وبساتين لهؤلاء المؤمنين فتكون لهم نُزُلاً ومستقرّاً. وأضاف يقول :

الآية ﴿ ١٠٨ ﴾ ﴿ **خالدين فيها لايبغون عنها حِوَلاً.** ﴾

أي ستعود أراضي وممتلكات هؤلاء الهالكين إلى هؤلاء المؤمنين، فلا يستطيع أحدٌ بعدها إخراجهم منها بشكل من الأشكال. ولايستبدلونها هم أيضاً بأراضٍ سواها.

فلما يصل القارىء إلى هذا الحدّ من الإحاطة بمصير هؤلاء وهؤلاء. ويُدرك أنّ موضوع سورة الكهف قد اكتمل من جميع جوانبه. يتساءل : وهل أنّ الله عز وجلّ لن يبعث بعد ذي القرنين أحداً لتجديد ماقد يطرأ في المستقبل، من انحرافات عقائدية على عقائد المسلمين وسواهم من عباد الله تعالى؟

وقد أجاب الله عز وجلّ من لدنه على هذا السؤال العفوي وقال :

الآية ﴿ ١٠٩ ﴾ ﴿ **قل لو كان البحر مِداداً لكلمات ربّي، لَنَفِدَ البحر قبل أن تنفَدَ كلمات ربّي، ولو جئنا بمثله مدداً.** ﴾

وأتى بجملة (كلمات ربّي)، ليعود بآخر موضوع سورة الكهف على أوّلها، ويُظهر تماسك وتكامل موضوعها. فقد عاد بذهن القارىء إلى ماقاله جل شأنه في بداية الآيات حيث قال :

﴿**واتل ماأوحي إليك من كتاب ربّك، لامبدّل لكلماته، ولن تجد من دونه مُلتحداً.**﴾

(١)- محيط المحيط.

مُنبّهاً إلى أنّه تعالى هو علام الغيوب والقادر على كلّ شيء ولايشرك في حُكمه أحـداً. فهـا أنّـه أرسل ذو القرنين ليعيد بنـاء مـاتصدّع مـن جـدار الإسـلام. مـزوداً بكلمـات الله أي بإنذاراتـه وبشاراته عز وجل.

ولايظّنن القارىء أنّ ذو القرنين هو آخر المصلحين. بـل إنّ ربوبيـة الله تعـني بألفـاظ أخـرى أنّ سلسلة الإصلاح الديني لاتنتهي إلا بانتهاء هذا العالم المادي وبزوالـه. وليعلـم القـارىء أيضـاً أنّ ماأوحي إلى محمد رسول الله ﷺ من كتاب يقرؤه الناس ويتلونـه علـى مـدى الدّهـر، إنّمـا هـو كتاب احتوى على جميع مستلزمات المصلحين في جميع الأزمنـة المقبلـة مـن انـذارات وبشـارات متعلّقة بعصورهـم أيضاً. وإنّكم إذا حولّتم مياه أي بحرٍ تعرفونه إلى مدادٍ لتدويـن مـااحتوى عليـه هذا الكتاب من معارف وانذارات وبشاراتٍ متعلّقة بجميع الأزمنة المُقبلة.فلن تكفيكـم لتدوينهـا ولو جئتم بمثله مدداً. وهكذا نبّه جل شأنه ذهن القـارئ إلى أن نهايـة هـذا العـالم ليسـت قريبـة واتفق بذلك مع ماكشف عنه العلم المعاصر.

وبعد أن ربط جل شأنه آخر السورة بأوّلها هذا الرّبط الموضوعي، راح فلخّصها في آخر آية مـن آيات سورة الكهف وقال :

الآية ﴿ ١١٠ ﴾

﴿ قل إنّما أنا بشرٌ مثلكم يوُحى إليّ أنّما الهكُم إله واحد، فمن كان يرجوا لقاء ربّه، فليعمل عملاً صالحاً، ولايُشركْ بعبادة ربّه أحداً.﴾

بمعنى أن خلاصة ماقصدناه من موضـوع سـورة الكهـف، هـو التّدليـل علـى وجـود الله عـلاّم الغيوب ربّ العالمين والذي لاإله إلا هو، وأنّ كل شيء صائر إليه، وأنّـه تعـالى خلـق الإنسـان ليعرفه ويعبده ولايشرك به شيئاً وان الله منَحَ هذا الإنسان حريته ليحقّق هذه الغاية من خلقه أو ينحرف عنها. وقد بعثنا أحد أفـراد مجتمعكـم الانسـاني وهـو محمـد بـن عبـد الله ﷺ برسـالتنا وأنزلنا عليه وحي هذا الكتاب ، ونبّهناكم فيه إلى هذه الحقائق الكونيـة . فمـن عقلهـا وأحـاط بها علماً، وأيقن أنّه خُلق ليحقّق هذا اللقاء بربّـه، فليعمـل عمـلاً صالحـاً ولايشـرك بعبـادة ربّـه أحداً.

الخـــاتمـــة

إذا كان لابُدَّ من كلمة تُقال في الختام ، فلست أملك إلا الشّكر لله تعالى الذي مكّنني من تسجيل مافتحه عليّ من علوم سورة الكهف فالحمد كل الحمد والشكر كل الشكرلله رب العالمين..

يوم الاثنين ٢٥ ذي الحجة ١٤١٦ هجري
الموافق ١٣ أيار ١٩٩٦ ميلادي

سـليم الجـابي
ماجستير علم الأديان المقارن

الفهرس

تمت